أصداء الغزو المغولي في الشعر العربي
من القرن السابع الى القرن التاسع للهجرة

اعداد

مأمون فريز جرار

باشراف

الأستاذ الدكتور عبد الكريم خليفة

تاريخ المناقشة

/ / ١٩٧٩

(قدمت هذه الرسالة استكمالا لمتطلبات الماجستير في اللغة العربية وآدابها ، بكلية الآداب في الجامعة الأردنية)

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الإهـــــــداء

* إلى والدي الحبيبين ثمرة من ثمـار غرسـهما ...

* إلى زوجتي العزيزة ثمرة من ثمـار الصبـر ...

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بسم الله الرحمن الرحيـــــم

المقدمـــة

الحمـد لله والصلاة والســـلام علـــى رســول اللـــه

واجهت أمتنا في تاريخها الطويل محنا عديدة ، وربما كان أبرز هـــذه المحن ثلاث : الغزو الصليبي والغزو المغولي ثم الغزو الصهيوني .

وقد كان لهذه المحن أصداء في الشعر العربي ، وكان للشعر في مواجهتها دور إيجابـــي .

واتجه كثير من الباحثين الى دراسة الأدب العربي في مواجهة الغـــزو الصليبي ، بينما لم يحظ الشعر الذي سجل أصداء الغزو المغولي وواكب أحداثـــه بدراسة متخصصة تحاول التعرف على دوره وملامحه .

وقد لمعت فكرة هذا البحث في ذهني ، وبدأت بجولة استطلاعية فـــي المراجع والمصادر ، لأرى إن كان هناك من الشعر ما يقوم بهذه الدراسة . وقـــد تبددت من ذهني منذ البداية فكرة كنت أحملها عن هذا الغزو ، ملخصها ، أنـــه بدأ بسقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ ، وانتهى بانتصار المسلمين في موقعة عين جالـوت سنة ٦٥٨ هـ . وتبيّن لي أن هذا الغزو قد بدأ قبل سقوط بغداد بأربعة عقـــود، وبقي بعده يأخذ طابع المدّ والجزر حتى بداية القرن الهجري التاسع . وبهـــذا تحدد المدى الزمني الذي تشمله هذه الدراسة . وقد اتخذ الغزو المغولي طابعـا استيطانيا في العراق وفارس وما وراءهما من ديار الإسلام ، وأقام المغول مملكتيـــن كان لأولاهما ، وهي التي كانت في فارس ، وملوكها من ذرية هولاكو ، علاقات عـداء

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مع دولة المماليك التي تصدى سلاطينها لغزواتهم ، وكان للأخرى ، وهي التي كانت في بلاد القفجاق ، علاقات مودة ومسالمة مع دولة المماليك[1] .

وقد أسلم بعض ملوك فارس المغوليين ، فمنهم من حسن إسلامه وكفّ أذاه عن المسلمين ، ومنهم من بقي على سياسته قبل الإسلام ، من التحالف مع الكفار وإيذاء المسلمين بغزو بلادهم .

وقد كان للمغول جولات في بلاد الشام امتدت منذ عهد هولاكو وانتهت بتيمورلنك ، وحدثت معارك كان فيها انتصارات وهزائم . وقد تركز الصراع بين المسلمين والمغول بعد سقوط بغداد في بلاد الشام .

وقد حددت المدى المكاني للدراسة بالعراق وبلاد الشام ومصر ، وليس هناك إلاّ استثناء واحد هو رثاء سعدي الشيرازي ، الشاعر الفارسي المسلم ، لبغداد .

وقد تحمّل عبء الدفاع عن بلاد الشام ومصر ، ومقارعة المغول سلاطين المماليك ، ووقف إلى جانبهم شعراء ، سجلوا الوقائع والأحداث ، ومدحوا ، ونفخوا في النفوس روح الحمية والعزيمة .

وقد لفت نظر الباحث إغفال الحديث عن هذه الصفحة من تاريخ أمتنا في كتب تاريخ الأدب ، وقد جاء الحديث عنها عرضا في بعض الدراسات التي تناولت الأدب في العصر المملوكي[2] .

---

(١) انظر: ابن خلدون : م٥ ،ص١١٣٢ ، ١١٤٨ ،صبح الأعشى : جـ٧ ،ص٢٣٦ ، ٢٩٣ .

(٢) انظر: عمر موسى باشا : ص٤٧٤-٤٨٢ ،الشعر وطوابعه الشعبية :ص١٦٥ ، ١٤٣-١٤٤ ، محمد زغلول الاسلام: جـ٢ ، ص ١١٢ ،

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولا أزعم أن هذه الدراسة قد استقصت كل ما قيل من الشعر في مواجهة الغزو المغولي وتسجيل أحداثه . فذلك أمر عسير المنال في عصر ضاع كثير من دواوينه ، وما زال كثير من مصادره التاريخية مخطوطا ، ليس في متناول يد كل باحث ، وبعض ما طبع منه فنادر الوجود ، يعز الحصول عليه .

وحسب هذا البحث أن يلفت النظر إلى صفحة من صفحات تاريخنا وأدبنا ، ويبيّن أن الشعر لم تنطفيء شعلته ، وأن البطولة لم يخل ميدانها بعد سقوط بغداد ، فقد وجد أبطال تصدّوا للغزاة ، ووجد شعراء مجّدوا بطولتهم ، وسجلوا أمجادهم (١) .

ولعلّ هذا البحث ، الذي يأتي في وقت تواجه فيه أمتنا الاستعمار الصهيوني الشرس ، المدعوم من كل قوى البغي والكفر في الأرض ، سرا وعلانية ، يسهم في إلقاء ضوء على الحاضر من خلال التعرف على الماضي ، ليعرف أبناء هذا الجيل أن أعداء أمتهم تحالفوا من قبل ، كما يتحالفون اليوم ، وليعرفوا أن في أمتهم مكامن قوة وقدرة على مواجهة الغزاة ومقاومتهم ، مهما تكن شراستهم ، وشدة بطشهم .

وقد جاء البحث في مقدمة وتمهيد وخمسة فصول وخاتمة . فتناول التمهيد : تحديد ساحة الصراع بين المسلمين والمغول ، ثم رسم صورة لواقع المسلمين قبيل الغزو المغولي ، حتى سقوط بغداد ، من النواحي السياسية والاجتماعية والثقافية . وذلك لبيان أن الأحداث التاريخية لا تأتي صدفة وبغير مقدمات . فقد كان واقع المجتمع الإسلامي مهيأ لتقبل الغزو الخارجي بما كان عليه من ضعف وتفكك .

وتناول الفصل الأول : دور الشعر في مواكبة أحداث الغزو المغولي وتسجيل وقائعه . وجعل ذلك في قسمين : الأول من بدء الغزو حتى سقوط بغداد ، والثاني من سقوط بغداد حتى نهايته .

---

(١) انظر: البطولة منذ سقوط بغداد حتى فجر النهضة : شكري فيصل ، مجلة الآداب بيروت ، العدد الأول ، ١٩٥٩ ، ص ٤٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتناول الفصل الثاني : دور الشعر في مقاومة الغزو المغولي ، وظهر هذا الدور في بيان طبيعة الصراع بين المسلمين والمغول ، والدعوة إلى الجهاد ، والتحريض على ضرب أحلاف المغول ، وتصوير الانتصارات التي حققها المسلمون عليهم ، ثم مدح الزعماء الذين قادوا الجيوش الإسلامية .

وتناول الفصل الثالث : رثاء المدن خلال الغزو المغولي ، فقد تعرض كثير من المدن الإسلامية للدمار والخراب ، وقد سجل الشعر صدى أفعال المغول في كل من بغداد ودمشق وحلب .

وتناول الفصل الرابع قضيتين : الأولى : صورة المغول في الشعر العربي ، والثانية : ما كان للغزو المغولي من أثر نفسي ظهر في الشعر .

وتناول الفصل الخامس : تقويما فنيا لشعر الأصداء ، وذلك بمحاولة التعرف على النزعات الفكرية التي ظهرت في الشعر ، والمؤثرات الثقافية التي تجلت آثارها فيه . ثم التعرف على الصنعة والشعر ، وأخيرا : الصور الشعرية والخيال الشعري .

وقد استعنت بكثير من المصادر والمراجع ، التي أسهمت في تكوين هذا البحث ، وجعله في هذه الصورة . وأبرز المصادر التي اعتمدت عليها وبخاصة في جمع المادة الشعرية ، والأحداث التاريخية :

(١) ديوان الصاحب شرف الدين شيخ الشيوخ الأنصاري . ت ٦٦٢ هـ . وقد عاصر هذا الشاعر بعض أحداث الغزو المغولي ، وله قصائد في مدح ملك حماة ، المنصور الثاني ، الذي شارك في موقعة عين جالوت .

(٢) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر : لمحي الدين بن عبد الظاهر . ت : ٦٩٢ هـ . والمؤلف معاصر لأبرز أحداث الغزو المغولي . وأورد في هذا الكتاب بعض ما قيل في الظاهر بيبرس من أشعار .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(٣) تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور . للمؤلف نفسه . وهو سيرة قلاوون . وفيه ذكر لبعض ما قيل فيه من شعر مدحا ورثاء .

(٤) الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة . لكمال الدين عبد الرزاق بن الفوطي البغدادي : ت ٧٢٣ هـ . وفي هذا الكتاب وصف لأحوال الخلافة الإسلامية قبيل سقوطها ، ووصف لواقعة بغداد ، والمؤلف عاصر أحداثها ، وأسره التتار عند دخولهم إياها . وأورد أشعارا ذات علاقة بالبحث .

(٥) الجزء التاسع من زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة . للأمير بيبرس الدواداري ت : ٧٢٥ هـ . ويتحدث عن جزء من المدة الزمنية التي تشملها الدراسة . وأورد نصوصا شعرية قيلت في أحداث الغزو المغولي .

(٦) ذيل مرآة الزمان ، للشيخ قطب الدين موسى بن محمد اليونيني ، ت٧٢٦هـ ، وقد كان معاصرا لجانب من أحداث الغزو المغولي ، وسجل فيه بعض أحداثه ، وبعض ما قيل في تلك الأحداث من شعر .

(٧) الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر . لأبي بكر عبد الله بن ايبك الدواداري ، وهو الجزء التاسع من كتاب : كنز الدرر وجامع الغرر . ويتحدث عن سيرة الملك الناصر محمد بن قلاوون ، الذي عاصره ، وقد أورد أشعارا كثيرة قيلت في موقعة مرج الصفر سنة ٧٠٢ هـ .

(٨) الوافي بالوفيات : لصلاح الدين خليل بن ايبك الصفدي ، ت ٧٦٤ هـ . وهو كتاب في التراجم ، وفيه ذكر لأعلام وشعراء ، كان لهم مشاركة في أحداث الغزو المغولي وتسجيلها ، وأورد في تراجمهم بعض ما قالوا من شعر أو قيل فيهم . وقد طبع بعض أجزائه ، وأكثرها مخطوط .

(٩) فوات الوفيات : لمحمد بن شاكر الكتبي . ت ٧٦٤ هـ . وهو كتاب في التراجم كذلك ، وأورد بعض ما قيل في أحداث الغزو المغولي من شعر .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(١٠) البداية والنهاية في التاريخ لاسماعيل بن عمر بن كثير القرشي . ت ٧٧٤هـ . وقد سجل جانبا كبيرا من أحداث الغزو المغولي ، وأورد بعض ما قيل فيها من شعر .

(١١) درة الأسلاك في دولة الأتراك ، لبدر الدين حسن بن حبيب الحلبي ، ت ٧٧٩ هـ . وهو كتاب في التاريخ سجل بعض أحداث الغزو المغولي ، وبعض ما قيل في تلك الأحداث من شعر .

(١٢) السلوك لمعرفة دول الملوك ، لتقي الدين أحمد بن علي المقريزي ، ت ٨٤٥ هـ . وهو كتاب هام في تاريخ الفترة التي تشملها الدراسة ، وقد غطى معظم أحداثها .

(١٣) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، لجمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي ، ت ٨٧٤ هـ . وفيه تسجيل لأحداث الفترة التي تشملها الدراسة ، وذكر لكثير من النصوص الشعرية التي قيلت في أحداث الغزو المغولي .

وإذا كان لي من كلمة في الختام ، فإنني لا أبرئ ما قمت به من النقص والخلل ، وتلك طبيعة ما يقوم به البشر ، ولكل من يسدي إلي نصحا ، أو يكشف في عملي عيبا ، كل شكري وتقديري .

وإنني لأسجل إعترافي بالجميل ، لأستاذي الفاضل الدكتور عبد الكريم خليفة ، الذي كان لتوجيهاته ونظراته أثر طيب في سد كثير من ثغرات هذا البحث ، وتوجيهه إلى الغاية المقصودة .

والله ولي التوفيق ،،،

رمضان ١٣٩٩ — مأمون جرار

آب ١٩٧٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تمهيـــــــــــــــــــــــــــــد

* ساحة الصراع بين المسلمين والمغـــــــــول
* الحالة السياسيـــــــــــــــــــــــــة
* الحالة الاجتماعيـــــــــــــــــــــــــة
* الحالة الثقافيـــــــــــــــــــــــــــة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ساحة الصراع بين المسلمين والمغـــــــــــــول

لم يكن للصراع بين المسلمين والمغول ساحة محددة المعالم ، من بدئـــه إلى نهايته . إلاّ أننا نستطيع تحديد تلك الساحة بالنظر إلى مراحله . فمنذ انطلاقه سنة ٦١٧ هـ إلى سقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ ، "شملت الساحة بلاد الإسلام الواقعـــة من حدود العراق إلى تركستان [1] ، التي كانت تحت سلطة الدولة الخوارزميـــــة ، فقد استفحل أمر المغول "واشتد إفسادهم من أقصى بلاد الصين إلى أن وصلـــوا الى بلاد العراق وما حولها ، حتى انتهوا إلى إربل [2] وأعمالها ، فملكوا في سنـــة واحدة . . . سائر الممالك إلا العراق والجزيرة [3] ومصر" . . [4] ، ولكنهم لم يستقـروا في تلك البلاد ، ولم يبسطوا سلطانهم عليها جميعا ، بل بقي بعضها تحت سلطة غياث الدين بن السلطان علاء الدين خوارزم شاه [5] .

---

(١) تركستان : اسم جامع لجميع بلاد الترك ، وأول حدهم من جهة المسلمين فاراب ، ومدائنهم المشهورة ستة عشر مدينة . انظر : مراصد الاطلاع : حـ١ص ٢٥٦

(٢) إربل : مدينة تعد من أعمال الموصل . انظر : ياقوت : حـ١ ص ١٣٨

(٣) الجزيرة : وهي التي بين دجلة والفرات ، مجاورة الشام ، تشتمل على ديارمضر وديار بكر ، بها مدن جليلة ، منها : حران والرها والرقة ورأس عين ونصيبين . انظر : ياقوت حـ ٢ ص ١٣٤

(٤) ابن كثير : حـ ١٣ ص ٨٦ ، وانظر : ابن الاثير : حـ١٢ص ٣٥٦ — ٣٦٠ ، ابن العبرى : ص ٢٣٣ — ٢٣٤

(٥) هو أصغر أولاد علاء الدين خوارزم شاه ، أقطعه والده بلاد كرمان ، وفـــي اخباره غموض ، وهناك خلاف حول سنة وفاته ، يمتد بين سنة ٦١٦هـ — ٦٢٦هـ . انظر تلخيص مجمع الآداب : حـ ٤ ق ٢ ص ١١٨٤ ، النسوى : ص ١٤٤ — ١٥١ ، ١٨٠ — ١٨٢ ، ٢٣٦ — ٢٤٥ ، ابن الأثير : حـ ١٢ ص ٤١٥ ، ٤٢٠ ، ٤٧٥

١٨٦٣٥٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكان المغول يخرجون بين حين وآخر إلى المدن الاسلاميه التي امتدت إليها يد التدمير ، فيعملون فيها نهبا وسلبا ، وفي أهلها قتلا وسبيا [١] . ففي سنة ٦٢٨ خرجوا إلى أذربيجان [٢] وذلك بعد أن استقر ملكهم فيما وراء النهر ، " وقدموا إلى الجزيرة وديار بكر فعاثوا بالفساد (!) يمينا وشمالا ، فقتلوا ونهبوا وسبوا على عادتهم " [٣] ، وذلك بعد هزيمة جلال الدين الخوارزمي [٤] أمامهم . وكانوا يطمعون في توسيع ساحة الصراع وإضافة بلاد جديدة إلى إمبراطوريتهم ، وكانوا يحومون حول العراق ، ويرسلون الكتائب التي ربما كانت تقوم بمهمة استطلاعية لاختبار قوة الخلافة الإسلامية [٥] ، وانتهى بهم الأمر إلى تجهيز حملة للاستيلاء على العراق وما وراءها : الشام ومصر ، وقد تم لهم الاستيلاء على العراق سنة ٦٥٦ هـ . وبعد ذلك انتقل الصراع إلى ساحة جديدة حيث أخذ المغول يعدّون العدّة للاستيلاء على الشام .

---

(١) انظر : ابن الأثير : جـ ١٢ ص ٤١٩ ، ٤٧٦ ، ابو الفداء : جـ ٣ ص ١٤١

(٢) صقع حده من برذعه مشرّقا الى زنجان مغرّبا ، ويتصل حده من جهة الشمال ببلاد الديلم والجبل ، ومن أشهر مدنه تبريز ، ومراغة وسلماس واردبيل انظر : مراصد الاطلاع جـ ١ ص ٤٧

(٣) ابن كثير : جـ ١٣ ص ١٢٨ ، وانظر : ابن الاثير جـ ١٢ ص ٤٦٥ ، ٤٦٧ ابو الفداء : جـ ٣ ص ٢٤٧ . وديار بكر : تنسب الى بكر بن وائل ، حدها ما غرّب من دجلة الى بلاد الجبل المطل على نصيبين إلى دجلة ، ومنه إلى حصن كيفا وآمد وميا فارقين . انظر : ياقوت : جـ ٢ ص ٤٩٤

(٤) ابن السلطان علاء الدين محمد كان مضرب المثل في الشجاعه ، وقاوم التتر في اول حدهم وحدتهم ، وظلم وعسف وغدر ، قتل سنه ٦٢٩ : انظر العبر : جـ ٥ ص ١١٤

(٥) انظر : الحوادث الجامعه : ص ٢٤ ، ٩٦ ، ١٠٩ — ١١٠ ، ١٩٩ — ٢٠٠ ذيل الروضتين : ص ١٦٥ ، ابو الفداء : جـ ٣ ص ١٧٤ ، ابن العبرى ص ٣٣٨ ، ٢٥٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وسار هولاكو[1] " من بغداد بنفسه إلى ديار بكر ، ونزل على آمد[2] يريد حلب ، ونازل حران[3] ، ونصب عليها المجانيق ، وكانت في مملكة الناصر يوسف[4] ، حتى أخذها ، وقطع جيشه الفرات ، وعاثوا في البلاد "[5].

وفي المحرم من سنة ٦٥٨هـ نزل هولاكو على مدينة حلب وحصرها سبعة أيام ، ثم افتتحها بالأمان ، واستباح وجنوده الدماء ونهبوا الأموال[6] ، وكذلك سقطت دمشق بأيديهم في العام نفسه[7] ، وأغاروا على بلاد الشام حتى وصلت جنودهم إلى أطراف غزة[8] ، وتصدى للمغول عساكر مصر بقيادة المظفر قطز[9] ، الذي جمع الجنود وسار بهم إلى الشام ، وكان اللقاء الحاسم في موقعة عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ[10] .

---

(١) حفيد جنكز خان ، كانت مدة ملكه عشر سنين ، واستقرت له البلاد التي كانت بيد والده ، خراسان وعراق العجم الذي يعرف ببلاد الجبل ، والعراق وأذربيجان ، وخوزستان وفارس وديار بكر ، وبلاد الروم وغير ذلك ، توفي سنة ٦٦٤هـ . انظر : ابو الفداء ، جـ٤ ص ٢ — ٣

(٢) آمد : أعظم مدن ديار بكر ، وهو بلد قديم حصين . انظر : ياقوت : جـ١ ص٥٦

(٣) حران : من مدن الجزيرة ، تقع على طريق الموصل والشام والروم . انظر : ياقوت جـ٢ ص ٢٣٥

(٤) هو الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز بن محمد الظاهر بن غازي ابن السلطان صلاح الدين ، صاحب الشام ، ولد سنة ٦٢٧هـ ، خدع فوقع في قبضة التتار ، فذهبوا به الى هولاكو فأكرمه ، ثم قتله سنة ٦٥٩هـ .
انظر : العبر : جـ٥ ص ٢٥٦ — ٢٥٧

(٥) المقريزي : جـ١ ق ٢ ص٤١٩ ، اليونيني : جـ١ ص ٣٤٢ .

(٦) المقريزي : جـ١ ق٢ ص ٤٢٢ ، ابن كثير : جـ١٣ ص ٢١٨ .

(٧) المقريزي : جـ١ ق٢ ص ٤٢٢ ، ابن كثير : جـ١٣ ص ٢١٦ — ٢٢٠ .

(٨) المقريزي : جـ١ ق ٢ ص ٤٢٥ .

(٩) هو الملك المظفر قطز المعزي ، قاهر التتار في عين جالوت ، كان اتابك الملك المنصور علي ، بن عز الدين ايبك ، فلما رآه ضعيفا عزله ، وقام في السلطة مكانه ، قتله الظاهر بيبرس سنة ٦٥٨ بعد موقعة عين جالوت . انظر : العبر : جـ٥ ص ٢٤٧ .

(١٠) المقريزي : جـ١ ق٢ ص ٤٢٩ — ٤٣١ ، اليونيني : جـ١ ص ٣٦٠ — ٣٦١ ابن كثير : جـ١٣ ص٢٢٠ — ٢٢١ . وعين جالوت بلدة بين بيسان ونابلس من أعمال فلسطين . انظر : ياقوت : جـ٤ ص ١٧٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولم يتوقف المغول عن قصد الشام بعد هزيمتهم في عين جالوت ، ففي سنة ٦٥٩هـ (١) . تجمع ستة آلاف منهم ، والتقى بهم المسلمون بالقرب من حمص ، وهزموهم . وتصدى لهم الظاهر بيبرس (٢) سنة ٦٧١هـ . وهزمهم على نهر الفرات (٣) . واحتلوا حلب سنة ٦٧٤هـ ، ورجعوا عنها بعد أن تجهز السلطان قلاوون (٤) للقائهم ، ووصل إلى غزة (٥) . وفي سنة ٦٨٠هـ توجهوا الى الشام ، وجرت بينهم وبين المسلمين معركة قرب حمص ، كان النصر فيها حليفا المسلمين (٦) . وفي سنة ٦٩٩هـ . توجه غازان (٧) ملك المغول إلى الشام ، والتقى بجيش المماليك في وادي الخزندار (٨) بين حمص وسلمية ، فهزمهم ، واحتل دمشق ، وأقام فيها نائبين عنه ، قبجق (٩) ، وبكتمر السلاح دار (١٠) ، وهما من المماليك رحلا إلى غازان ، وزينا له المسير إلى الشام (١١) ، وبعد رحيل

---

(١) المقريزي : جـ ١ ق ٢ ص ٤٤٢ ، اليونيني : جـ ١ ص ٤٣٤ ، ابن كثير : جـ ١٣ ص ٢٣٠

(٢) ولد ببلاد القبجاق سنة ٦٢٥ تقريبا ، وأسر وبيع ثم حمل إلى القاهرة ، وكان من المماليك البحرية ، تسلم السلطنة بعد قطز سنة ٦٥٨ ، وتصدى للتتار والفرنجة . توفي سنة ٦٧٦هـ . انظر : فوات الوفيات جـ ١ ص ٢٣٥ .

(٣) المقريزي : جـ ١ ق ٢ ص ٦٠٦ ، اليونيني : جـ ٣ ص ٢ ، ابن كثير : جـ ١٣ ص ٢٦٢ .

(٤) كان من أكابر الامراء زمن الظاهر بيبرس ، تملك سنة ٦٧٨ ، كسر التتار في حمص ، وغزا الفرنج غير مرة . توفي سنة ٦٨٩ . انظر : العبر : جـ ٥ ص ٣٦٣

(٥) المقريزي : جـ ١ ق ٣ ص ٦٨١ ، ابن كثير : جـ ١٣ ص ٢٦٩ .

(٦) المقريزي : جـ ١ ق ٣ ص ٦٩١ ، اليونيني : جـ ٤ ص ٩١ ، ابن كثير : جـ ١٣ ص ٢٩٥

(٧) محمود بن أرغون المغلي الجنكزخاني ، صاحب العراقين وخراسان وفارس وأذربيجان والروم . حسن له نائبه الاسلام فأسلم ، سنة ٦٩٤ ، وفشا الاسلام في التتار ، طرق الشام وغلب عليه ، مات قرب همذان سنة ٧٠٣هـ . انظر : فوات الوفيات : جـ ٤ ص ٩٧ .

(٨) واد بين حمص وسلمية . انظر : العبر : جـ ٥ ص ٣٩١ .

(٩) هو الأمير سيف الدين قبجق المنصوري ، نائب حلب ، ولي نيابة دمشق ، وخرج منها في سلطنة لاجين الى بلاد التتار ، وأقدم غازان الى دمشق ، ثم عاد الى طاعة الملك الناصر وتوفي سنة ٧١٠هـ . انظر : النجوم الزاهرة : جـ ٩ ص ٢١٦

(١٠) تولى نيابة طرابلس ، وخاف من منكوتمر نائب السلطان لاجين ، ففر الى بلاد التتار مع جماعة ، سنة ٦٩٨ ، وأقام عند غازان ، وسار معه الى الشام سنة ٦٩٩ وولاه حماة وحمص ، ثم عاد إلى طاعة الملك الناصر مع قبجق . توفي سنة ٧٠٣ . انظر : الدرر الكامنة : جـ ٢ ص ١٨

(١١) المقريزي : جـ ١ ق ٣ ص ٨٩٥ ، ابن كثير : جـ ١٤ ص ٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

غازان عن الشام ، كاتبهما الملك الناصر محمد بن قلاوون[١] بالطاعة ، فامتثلا وعادت السلطة في الشام الى المماليك.[٢] وفي سنة ٧٠٠ هـ رجع غازان إلى الشام مرة أخرى " فأوقع ببلاد حلب أشهرا "[٣] ، وفي سنة ٧٠٢هـ ، هزم المسلمون المغول في موقعة مرج الصفر بالقرب من دمشق.[٤]

وفي سنة ٧١٢هـ ، وصل المغول الى الرحبة[٥] بقيادة ملكهم خدابندا ،[٦] وحاصروها عشرين يوما ، ثم رجعوا عنها.[٧]

ومن الجدير بالذكر ان بعض زعماء المسلمين ،كانوا يكاتبون المغول ويدعونهم إلى احتلال بلاد المسلمين[٨] ، أو يتوجهون الى بلادهم لخلافات تقع بين اصحاب السلطة الكبار ، ومن أولئك ، قراستقر[٩] ، الذي توجه الى خدابندا ، ومعه عدة امراء[١٠]

---

(١) ولي السلطنة بعد أخيه الأشرف خليل سنة ٦٩٣ ، وعمره تسع سنين ، واغتصب منه مرتين ، انتصر على المغول في مرج الصفر سنة ٧٠٢هـ. توفي سنة ٧٤١هـ.
انظر : الدرر الكامنة جـ٤ ص٢٦١ .
(٢) المقريزي : جـ١ق٣ص٨٩٩ ، ابن كثير : جـ١٤ ص ١١ .
(٣) الدرر الكامنة : جـ ٣ ص ٢٩٣
(٤) المقريزي : جـ١ق٢ ص٩٣٠ ، ابن كثير : جـ ١٤ ص ٢٣
(٥) الرحبه : مدينة على شاطئ الفرات بين الرقة وبغداد . انظر : ياقوت: جـ٣ص٢٤
(٦) هو محمد بن أرغون بن أبغا بن هولاكو ، المعروف بخدابندا وعلى السنة العامه غرابندا ، ملك بعد أخيه غازان ، وكان حسن الاسلام ثم ترفض ، مات سنة ٧١٦هـ.
انظر : الدرر الكامنة : جـ٣ ص ٤٦٩ .
(٧) ابن كثير : جـ ١٤ ص ٦٦ ، الدرر الكامنة: جـ ٣ ص ٤٦٩
(٨) ابن كثير: جـ ١٣ ص ٢٦٨
(٩) من مماليك قلاوون ، ولي نيابة حلب ، وفر الى ملك المغول خدابندا ، فأكرمه وأقطعه مراغه . مات ببلاد التتر سنة ٧٢٨ . انظر : الدرر الكامنة : جـ ٣ ص ٣٣٠ .
(١٠) المقريزي : جـ ٢ ق ١ ص ١١٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والأمير مهنا بن عيسى أمير العـــــــرب [(١)]

وحميضة شريف مكة [(٢)] ، الذي زيّن لملك المغول خدابندا ، أن يرســـل جيشاً يملك به الحجاز ، إلّا أن الأمر لم يتم له . [(٣)]

وقد سادت بين المسلمين و المغول هدنة ، وانقطع سعيهم لاحتلال الشام منذ تولي أبي سعيد [(٤)] ملك المغول سنة ٧١٧هـ [(٥)] ، إلى أن ظهر تيمورلنك [(٦)] ، الذي احتل بلاد الشام سنة ٨٠٣هـ [(٧)] . وكان بعض ملوك المغول يطلب الهدنة والصلـــح مع المسلمين ، كما اعتنق بعض ملوكهم الاسلام ، وحسن إسلامه ، وكف الأذى عـــن المسلمين ، وامتنع عن مهاجمة ديار الشام [(٨)] .

وفي الصفحات التالية سنلقي بعض الأضواء على الأحوال التي سادت ساحة الصراع بين المسلمين والمغول ، والتي امتدت من بلاد التركستان شرقا إلى بـــلاد الشام غربا ، وذلك قبيل بدء الغزو والمغولي ، حتى سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ .

---

(١) ابن كثير : جـ ١٣ ص ٣٣٦ ، ومهنا بن عيسى أمير آل فضل من بني طيء ، ولد سنة ٦٥٠ ، غضب عليه السلطان الأشرف خليل ، فحبسه وأهله ، ثم توجه الى خدابندا ، فأكرمه ، ثم عاد الى خدمة الملك الناصر محمد . مات سنة ٧٣٥هـ . انظر : الدرر الكامنة جـ ٥ ص ١٤٠ .

(٢) هو أبو نمي ، محمد بن حسن بن علي ، أمير مكة ، كان بينه وبين أخيه خلافات بشأن إمارة مكة ، لحق بملك المغول ، فأمده بجيش لغزو مكة ، لكن خدبندا مات ، فانفل الجيش . قتل سنة ٧٢٠ . انظر : الدرر الكامنة : جـ٢ ص ١٦٧ .

(٣) المقريزي : جـ٢ ق ١ ص ١٤٧ ، ابن كثير : جـ ١٤ ص ٧٧ .

(٤) هو ابن خدبندا بن أرغون ، هادن سلطان الاسلام ، وكان فيه ديانة ورأفة ، توفي سنة ٧٣٦هـ . من ذيول العبر : ص ١٦١ . وقد تفرقت كلمة التتر بعده . انظر : صبح الاعشى : جـ٤ ص ٤٢٠ . (٥) المقريزي : جـ٢ ق ١ ص ١٦٠

(٦) ولد سنة ٧٢٨هـ ، كان من اتباع طقتمش خان ، آخر الملوك من ذرية جنكزخان وصار أتابك ابنه محمود ، ثم تسلم زمام السلطة ، وملك ما وراء النهر وسمرقند وخراسان .. وامتد ملكه الى الجزيرة وديار بكر وبغداد وحلب ودمشق ، وفعل الافاعيل المنكرة ، وأسر سلطان بني عثمان ، أبا يزيد . كان مغرى بقتل المسلمين وترك الكفار . توفي اثناء غـــزو بلاد الصين سنة ٨٠٧هـ . انظر : شذرات الذهب : جـ ٧ ص ٦٢

(٧) انظر : المقريزي : جـ٣ ق٣ ص ١٠٣٠ ، النجوم الزاهرة : جـ ١٢ ص ٢١٩ .

(٨) انظر : المقريزي : جـ١ ق ٢ ص ٥٥٣ ، ٥٧٤ جـ ٢ ق ١ ص ٦ ، ٢٤٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحالـــــــــة السياسيـــــــــة

كان العالم الاسلامي عشية الغزو المغولي في العقد الثاني من القرن السابع للهجرة ، مقسما بين قوى سياسية رئيسية هـــي : الدولة الخوارزميـــة في البلاد التي تمتد من العراق حتى حدود التركستان (١) ، ودولة الخلافة العباسية التي تقلص نفوذها ، حيث لم يعد تحت سلطة الخليفة في أحسن الأحوال سوى العراق وخوزستان وهمذان (٢) ، والدولة الايوبية في بلاد الشام ومصر ، حيـــث كانت مقسمة بين أبناء الايوبيـــين * .

أما الخلافة ، فقد أصابها منذ وقت مبكر من عمرها داء الانقسام فقامت في أطرافها دول كانت تعطيها الولاء الاسمي (٣) ، وابتليت كذلك بأن حاضرتها صارت مهوى أفئدة السلاطين الأقوياء ، الذين أقاموا ممالكهم في شرق العالم الاسلامي . هكذا كان حالها مع البويهيين ، ثم السلاجقة ، ثم الخوارزميين الذين لم يتحقق لهم ما تحقق لسابقيهم (٤) .

---

(١) ابن الأثير : جـ ١٢ ص ١٣٦

(٢) ابن واصل : جـ٤ ص١٧٠ ، المغول في التاريخ : ص ١٥٦ ، محنة الاسلام : ص ٢٠ وخوزستان : هي بلاد الخوز ونواحيها بين فارس والبصرة وواسط وجبال اللور المجاور لأصبهان . انظر : ياقوت جـ ٢ ص ٤٠٤ .
همذان : مدينة كبيرة تقع وسط بلاد الجبال ، ومدينة قم تقع شرقيها . انظر : تقويم البلدان ص٤١٧ .

* كان بالاضافة الى هذه القوى الرئيسية قوتان أخريان ، هما : الاسماعيلية الذين كان لهم قلاع وحصون في همذان وفارس واصفهان ، وبلاد الشام ، وقد حرب جلال الدين منكبرتي بن علاء الدين خوارزم شاه كثيرا من قلاعهم ، وتولى القضاء عليها هولاكو سنة ٦٥٠ . وفي الشام قضى عليهم الظاهر بيبرس . انظر ابن خلدون جـ ٤ ص ٢٠٠ — ٢٠١ والقوة الثانية : دولة سلاجقة الروم ، التي شملت كثيرا من أراضي ارمينيا وأسيا الصغرى ، وقد هزمهم المغول ودانوا لسلطانهم منذ سنة ٦٤٠هـ . انظر : رايس ص ٤٢ — ٤٦ ، ٦٥ .

(٣) ابن كثير : جـ ١٣ ص ٢٠٥ ، المغول في التاريخ : ١٥٥ .

(٤) ابن واصل : جـ ٤ ص ٣٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد نتج عن هذين الأمرين أنه لم تبق للخليفة سلطة فعلية ، أو قوة حقيقية ، يستطيع التصرّف بها وفق ما يراه.[١] ولا يخلو الأمر من استثناءات ، كان آخرها تخلص الخليفة الناصر من سلطة السلاجقة ومحاولته استعادة هيبة الخلافة.[٢]

ونتج عن سوء حال الخلافة انصراف بعض الخلفاء عن التفكير في السياسة ، إلى اللهو واللعب ، فكأنها لم تعد من اختصاصهم ، بل من اختصاص أصحاب القوة من السلاطين المتحكمين أو الوزراء المتنفذين ، الذين كانت تلقى إليهم مقاليد الأمور حتى صار الناس يتساءلون عما أبقى الخليفة لنفسه.[٣]

وقد عاصر الغزو المغولي أربع من الخلفاء العباسيين في بغداد ، هم الناصر والظاهر والمستنصر والمستعصم.

أما الناصر : فإنه كان من أطول الخلفاء عهدا ، حيث بلغت خلافته سبعة وأربعين عاما الا قليلا ،[٤] ويتصف ما ورد عن سيرته من الأخبار بالتناقض ، فبينما تصفه بعض المصادر بالصلاح والتقوى وإبادة المفسدين ، وإغلاق الحانات ودور اللهو ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وبأن الخلافة زادت هيبتها في عهده ، واتسع سلطانه[٥] ، نجد مصادر أخرى تصفه بقبح السيرة والظلم ، وبأن العراق خرب في أيامه وتفرق أهله في البلاد[٦] ، وبأنه كان يفعل المتناقضات ، فقد أمر بفتح دور الضيافة للصائمين في رمضان ، وللحجاج ثم أبطلها ، وألغى بعض المكوس ثم أعاده ،

---

(١) ابن الاثير : ج ١٢ ص ٣٧٨ ، الفخري : ص ٣١
(٢) مختصر التاريخ : ص ٢٤٥ ، ابن واصل : ج ٤ ص ١٧٠
(٣) مرآة الزمان : ج ٨ ق ٢ ص ٥٢٥
(٤) ابن الأثير : ج ١٢ ص ٤٣٦ ، ابن كثير : ج ١٣ ص ١٠٦
(٥) مختصر التاريخ : ص ٣٤٣ ، مرآة الزمان : ج ٨ ق ٢ ص ٥٣٤
(٦) ابن الأثير : ج ١٢ ص ٤٤٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبأنه جعل همه في رمي البندق والطيور المناسيب ، وسراويلات الفتوة ، فبطل الفتوه في البلاد جميعها الاّ من يلبس سراويل يدعى إليه [١] ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل نسب اليه أنه " هو الذي أطمع التتر في البلاد ، وراسلهم في ذلك " [٢] من أجل دفع شر خوارزم شاه ، الذي قصد بغداد ، وأراد الاستيلاء على السلطة فيها .

ولم يتخذ الخليفة الناصر اجراءات جادة تكفل بمواجهة التتار ، ويدلّ على ذلك ، ما حدث سنة ٦١٧ هـ ، عندما وصل زحفهم إلى أطراف العراق ، فقد كتب الخليفة الى كل من أميري الموصل واربل يستنفرهما ويدعوهما الى الاجتماع به عند دقوقا [٣] ، وكتب الى الملك الأشرف الايوبي ، للاجتماع على قصد التتار وقتالهم ، فلبّى نداءه أميرا الموصل واربل ، وتخلف الأشرف ، لانشغاله بنصرة أخيه المعظم في استنقاذ دمياط من أيدي الفرنج . فلما اجتمعت عساكر إربل والموصل ، سير الخليفة إليهم أحد مماليكه ومعه ثماني مائة فارس ، وانتظروا أن يصلهم باقي عساكر الخليفة ، الا أنها لم تأت ، ورأى مظفر الدين كوكبري أمير إربل أن ما معه من الجنود لا يكفي لقتال التتار ، الذين رجعوا الى بلادهم ، وقد قال : " ان اجتمع معي عشرة آلاف فارس استنقذت ماأخذ من البلاد " [٤] . وقد توفي الخليفة الناصر سنة ٦٢٢ [٥] ، وتولى الخلافة من بعده ابنه الظاهر ، الذي لم يدم فيها إلاّ قريبا من سنة واحدة [٦] ، ووصف هذا الخليفة بحسن السيرة ، ويرى ابن الأثير

---

(١) ابن الأثير : جـ ١٢ ص ٤٤٠ ، وانظر : مختصر التاريخ : ص ٢٤٦ ، مرآة الزمان : جـ ٨ ق ١ ص ٣٤ ، النجوم الزاهرة : جـ ٦ ص ٢٦١ .

(٢) ابن الأثير : جـ ١٢ ص ٤٥٦ ، ابن واصل : جـ ٤ ص ٣٦ ، ١٧٠

(٣) مدينة بين اربل وبغداد ، انظر : ياقوت جـ ٢ ص ٤٥٦ .

(٤) ابن الأثير : جـ ١٢ ص ٣٧٩ ، وانظر : ابن واصل : جـ ٤ ص ٥٠

(٥) ابن الأثير : جـ ١٢ ص ٤٣٨

(٦) المصدر نفسه : جـ ١٢ ص ٤٥٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أنه لو قيل "إنه لم يل الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز مثله ، لكان القائل صادقاً"[١] ويبدو أن هذا الخليفة كان يطمع في محاولة إصلاح ما فسد من أمور الدولة ، كما انه كان يحس إحساسا خفيّا بقصر مدة خلافته ، فكان يحسن ويحاول إزالة الظلم عن الرعية ، بردّ الأموال المغصوبة ، وإطلاق المكوس[٢] . وقد لامه بعض المقربين إليه لكثرة ما أنفق من الأموال فقال : "أنا فتحت الدكان بعد العصر ، فاتركوني أفعل خيرا ، فكم أعيش"[٣] . وهكذا مر هذا الخليفة في تاريخ الخلافة من غير أن يترك بصمات مؤثرة في صفحاتها . وآل الأمر من بعده لابنه المستنصر بالله الذي تولى الخلافة من سنة ٦٢٣ — ٦٤٠ هـ . واتصف هذا الخليفة بما اتصف به والده من كثرة البر والصدقات والاحسان إلى الرعيّة . وترك من بعده أثرا جليلا هو المدرسة المستنصرية ، التي أنشأها ، ووقف عليها أوقافا كثيرة ، وأكرم فيها العلماء[٤] . وكان كثير البر والصلة للفقهاء والصوفية[٥] . وفي عهده وقعت أحداث خطيرة ، كان لها أثر في مستقبل الخلافة ، فقضى التتار على الدولة الخوارزمية[٦] ، وهاجموا أملاك الخلافة أكثر من مرة[٧] . وعندما سقطت الدولة الخوارزمية ، واستولى التتار على أرمينيا ، اهتم المستنصر بالله غاية الاهتمام ، وسيّر عدة رسائل ، يستنجد الأشرف من مصر ، ويستنجد العربان وغيرهم ، وأخرج الخليفة الأموال فوقع الاستخدام في جميع البلاد لحركة التتر[٨] .

ويقف الباحث امام تلك الحال التي كان عليها الخليفة ،

---

(١) ابن الأثير : جـ ١٢ ص ٤٣٨

(٢) ابن الأثير : جـ ١٢ ص ٤٤١ — ٤٤٤ ، مختصر التاريخ : ص ٢٠٦ ، تاريخ الخلفاء : ص ٤٥٨ — ٤٥٩ .

(٣) ابن الأثير : جـ ١٢ ص ٤٤٤ ، تاريخ الخلفاء : ص ٤٥٨

(٤) الحوادث الجامعه : ص ٤٧ — ٥٩

(٥) الحوادث الجامعه : ص ٧٣ — ٧٤ ، ابن العبرى : ص ٢٤٣ ، النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٤٥

(٦) ابن الاثير : جـ ١٢ ص ٤٩٧ .

(٧) الحوادث الجامعه : ص ٩٨ ، ١٠٩ ، ابن العبرى ص ٢٥٥ .

(٨) المقريزى : جـ ١ ق ١ ص ٢٤٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فليس لديه من الجيش ما يمكنه من الدفاع عن دولته ، فيلجأ الى الايوبيين والمربان .

وبعد وفاة المستنصر بالله انتقلت الخلافة إلى آخر خلفاء بني العباس في بغداد ، المستعصم بالله ، الذي امتدت خلافته من سنة ٦٤٠—٦٥٦ ، وشهد غروب شمس الخلافة عن بغداد ، ويبدو أن هذا الخليفة لم يكن يلقي بالا لما يدور حوله في داخل البلاد وخارجها ،[١] ففي الداخل كانت الفتن منتشرة وبخاصة بين أهل السنة والشيعة[٢] ، وكانت الأحقاد تأكل قلوب كبار المتنفذين .[٣] وقد وصف المستعصم بأنه كان ضعيف الرأي ، ألقى مقاليد الأمور بيد كبراء دولته الذين أساءوا ولم يحسنوا فيما أشاروا به ودبّروه .[٤] وكانت الوزارة في عهده للوزير ابن العلقمي ،[٥] الذي أشار عليه بتسريح قسم كبير من جيشه . وقطع المال عن الجند ، مما اضطرهم إلى الرحيل عن العراق ، واستجداء الناس في الطرقات ،[٦] وأصبح عدد أفراد جيش العراق أقل من عشرين ألفا ، بعد أن كان يبلغ مائة ألف فارس.[٧]

---

(١) الفخري : ص ٣٣٣ ، ابن العبري : ص ٢٥٤ ، تاريخ الخلفاء : ص ٤٦٤

(٢) الحوادث الجامعه : ص ٥٢٤ ، ٢٧٦ — ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٩٨— ٢٩٩ ، ٣٠٤ ، ٣١٤ ، ابن كثير : جـ١٣ ص ١٩٦ ، اليونيني : جـ١ ص ٨٦ .

(٣) الحوادث الجامعه : ص ٢٩٤ ، ٣٠٥ .

(٤) مختصر التاريخ : ص ٢٧٠ ، ابو الفداء : جـ٣ ص ١٧١ ، تاريخ الخلفاء : ص ٤٦٦

(٥) هو محمد بن محمد بن علي ، ابو طالب الوزير مزيد الدين ابن العلقمي ، ولي الوزارة اربعة عشره سنه ، وقع بينه وبين الدوادار وابن الخليفة ضغائن ، جعلته يسعى الى خراب بغداد ، بمكاتبة التتار . وقد مات سنة ٦٥٧هـ . انظر في ترجمته وبيان دوره في سقوط الخلافة : العبر : جـ ٥ ص ٢٢٥ ، ابن كثير : جـ١٣ ص ٢١٢ ، النجوم الزاهرة : جـ٧ ص ٢٠ ، فوات الوفيات جـ٣ ص ٢٥٢ ، مؤيد الدين بن العلقمي ، لمحمد الساعدي .

(٦) الحوادث الجامعه : ص ٣٢٠—٣٢١ ، النجوم الزاهرة : جـ٧ ص ٤٨

(٧) ابو الفداء : جـ ٣ ص ١٩٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد حاول المستعصم تدارك الأمر ، ولكن بعد فوات الأوان . فعندما استيقن قصد التتار بلاده ، أرسل الى الايوبيين مستنجدا ، وطلب أن يكون مقدم عساكر النجدة الملك الناصر داود بن المعظم[1] ، الا أن بغداد سقطت قبل تحرك العساكر الشامية.[2]

* * *

إن الباحث في شخصيات خلفاء بغداد الذين عاصروا الغزو المغولي ، يجد أن بعضهم اتصف بالصلاح الفردي وحسن السيرة ، ولكن ذلك لم يكن كافيا لا يقاف تردي أحوال الخلافة . ويجد أن الخلفاء كانوا ضعيفي الاحساس بالخطر الذي كان يحدق بهم ، فقد ظلوا ينتظرون وصوله إليهم الى أن اجتاحهم[3] . وقد بلغ ضعف الهمه بالمستعصم الى الحد الذي جعله يقول لمن حذره من اقتراب المغول " أنا بغداد تكفيني ، ولا يستكثرونها علي إذا نزلت لهم عن باقي البلاد ، ولا ايضا يهجمون علي ، وأنا بها ، وهي بيتي ودار مقامي "[4] .

وربما كان من الطريف أن يقف القارئ على ما ورد في كتاب جامع التواريخ من تسجيل لمراسلات تمت بين هولاكو والخليفة المستعصم ، حيث نجد علو نبرة الخليفة في مراسلاته يتجاوز حقيقة الحال التي كان عليها . فهو يهدد هولاكو بأن باستطاعته أن يثير ضده مسلمي الأرض ، وأنه قادر على حسم الأمور وإعادتها إلى نصابها . " ألا ليعلم الأمير ، أنه من الشرق إلى الغرب ، ومن الملوك الى الشاذين ، ومن الشيوخ إلى الشبان ، ممن يؤمنون بالله ، ويعملون بالدين لهم عبيد هذا البلاط ، وجنود لي ، إني حين أشير بجمع الشتات ، سأبدأ بحسم الأمور في ايران

---

(١) ولد بدمشق سنة ٦٠٣هـ ، وتوفي سنة ٦٥٦هـ ، تولى دمشق بعد موت أبيه ، وكان بينه وبين ملوك الايوبيين حوادث أدت الى ضياع ملكه ، واستنجد بالمستنصر ، وسافر الى بغداد في عهد المستعصم ومدحه . وكان له باع في الشعر . انظر : فوات الوفيات : جـ١ ص٤١٩ .

(٢) اليونيني : جـ١ ص١٧٣ (٣) الحوادث الجامعه : ص ٢٧ — ٢٩

(٤) جامع التواريخ : م٢ ق ١ ص ٢٦٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثم أتوجه إلى بلاد توران[١] ، وأضع كل شخص في موضعه ، وعندئذ سيصير وجه الأرض جميعا مملوءا بالقلق والاضطراب ، غير أني لا أريد الحقد والخصام ، ولا أن اشترى ضرر الناس وايذاءهم[٢] .

إنه من الغريب أن يصدر هذا الكلام عن خليفة سرّح معظم قوات جيشه ، واستبد الخصام والتنافر بين كبار رجال دولته ، واستشرت الفتن في أرجاء بلاده . ويبدو ان الخليفة قد وقع ضحية وهم ، هو اعتقاده أن الله عز وجل قد تكفل بالحماية للخلافة العباسية[٣] ، فقد أنذر هولاكو بسوء العاقبة إن فكر بالأذى والسوء لو غاب عن الملك ، فله أن يسأل المظلمين على الأحوال ، إذ أن كل ملك حتى هذا العهد قصد أسرة بني العباس ، ودار السلام بغداد ، كانت عاقبته وخيمة ، ومهما قصدهم ذوو السطوة من الملوك ، وأصحاب الشوكة من السلاطين ، فإن بناء هذا البيت محكم للغاية ، وسيبقى إلى يوم القيامة[٤] .

* * *

وكان إلى الشرق من دولة الخلافة ، الدولة الخوارزمية التي بلغت أقصى اتساع لها في عهد خوارزم شاه ، علاء الدين محمد[٥] ، " فإنه ملك من حد العراق الى تركستان ، وملك بلاد غزنة[٦] ، وبعض الهند ، وملك سجستان[٧] وكرمان[٨] ، وطبرستان[٩]

---

(١) اسم لبلاد يحدها من الغرب خوارزم ومن الجنوب نهر جيحون . انظر : تقويم البلدان : ص ٤٨٣ .

(٢) جامع التواريخ : م٢ق١ص ٢٦٩ (٣) انظر : ابن الأثير : جـ١٢ ص ٣١٨

(٤) جامع التواريخ : م٢ ق ١ ص ٢٧٥

(٥) حكم إحدى وعشرين سنة ، واتسع ملكه ، كان فاضلا مكرما للعلماء ، وكانت نهايته على يد المغول سنة ٦١٧هـ . انظر : ابن الأثير : جـ١٢ ص ٢٧١ .

(٦) مدينة وولاية ، في طرف خراسان ، انظر : مراصد الاطلاع : جـ٢ ص ٩٩٣

(٧) ولاية واسعة مدينتها زرنج ، انظر : مراصد الاطلاع : جـ٢ ص ٦٩٤

(٨) ولاية بين فارس ومكران وسجستان وخراسان . انظر : ياقوت : جـ ٤ ص ٤٥٤

(٩) ولاية مجاورة لجيلان وديلمان ، وتسمى أيضا مازندران . انظر : ياقوت : جـ٤ ص ١١٣ ، جـ٥ ص ٤١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وجرجان[١] وبلاد الجبال[٢] وخراسان[٣] وبعض فارس[٤]، وفعل بالخطا[٥] الأفاعيل العظيمة وملك بلادهم[٦]، ولكن يبدو أن هذا السلطان لم يكن ذا حنكة سياسية، أو حكمة تضبط أموره، فإنه لم يحسن التصرف مع المغول الذين كانت تتعاظم قوتهم يوما بعد يوم. فقد بدأت العلاقات بين الدولة الخوارزمية والمغول بداية حسنة[٧]. واستعان المغول بخوارزم شاه في حربهم مع الخطائيين. ولكنهم نقضوا عهدهم معه، وهددوه بأن يلقى مصير الخطائيين، وذلك عندما طلب نصيبا من الغنائم من البلاد التي زال عنها سلطان الخطائيين[٨]. ثم جاءت حادثة أترار[٩] التي قتل فيها جماعة من التجار

---

(١) مدينة مشهورة بين طبرستان وخراسان. انظر: مراصد الاطلاع جـ١ ص٣٢٢

(٢) تعرف بعراق العجم، انظر: مراصد الاطلاع: جـ١ ص٣٠٩

(٣) بلاد واسعة، أول حدودها مما يلي العراق آزاذوار... وآخر حدودها مما يلي الهند طخارستان. وتشمل على أمهات من البلاد منها: نيسابور وهراة ومرو. انظر: ياقوت جـ٢ ص٣٥٠.

(٤) ولاية واسعة، حدها من العراق أرّجان، ومن جهة كرمان السّيرجان، ومن جهة ساحل بحر الهند سيراف، ومن جهة السند مكران. انظر: مراصد الاطلاع: جـ٢ ص١٠١٢

(٥) الخطائيون او القراخطائيون، هم مجموعة من القبائل سكنت شمال شرقي ايران في عهد السلاجقة، وأقاموا دولة في عام ٥١٨هـ، وقضي عليها سنة ٦٠٩. وكانت بين مملكة المغول ودولة خوارزم. انظر: دولة السلاجقة: ص٩٨ — ١٠٠، المغول في التاريخ: ص٦

(٦) ابن الأثير: جـ١٢ ص٣٧١.

(٧) النسوى: ص٨٣، المغول في التاريخ: ص٤٥

(٨) ابن الأثير: جـ١٢ ص٢٧٠

(٩) أترار أو أوترار: مدينة من بلاد الترك وهي آخر ولاية خوارزم شاه، قتل نائبه فيها جماعة من التجار الوافدين من بلاد المغول سنة ٦١٧هـ، وكان بعدها غزو المغول لبلاده. انظر: ابن الأثير: جـ١٢ ص٣٦١ — ٣٦٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المغوليين ، حيث كانت الشرارة التي فجرت البركان[1] ، وزحف المغول بعدها على أملاك خوارزم شاه يتبعونه من مكان إلى آخر ، الى أن مات غريبا شريدا[2] .

وقد كان المصير الذي آلت إليه الدولة الخوارزمية منطقيا مع طبيعة الأحداث التي سبقته ، فقد أخلى خوارزم شاه البلاد من الطوق[3] وأعان على زوال دولة الخطائيين ، التي كانت سدا بين بلاده وبلاد المغول ، ولم يسع إلى توحيد طاقات المسلمين لرد الخطر الداهم . وكانت علاقته مع الخلافة سيئة ، وذلك لأنه طلب أن يقرن اسمه في بغداد باسم الخليفة في الخطبة . ولكن ذلك لم يتم له ، وعزم على قصد بغداد ، سنة ٦١٤ هـ ولكن حال بينه وبينها سقوط ثلثي كثيف أهله الدواب وفرق الجند[4] .

وقد سلك ابنه جلال الدين سبيل والده بالإعراض عن توحيد القوى الاسلامية فعندما رجع من الهند ، التي لجأ إليها عقب زحف المغول على أملاك والده[5] شنّ حربا على الدول الاسلامية ، فأغار على أملاك الخلافة في همذان ، وخوزستان وأطراف العراق[6] . وأغار على أملاك الايوبيين في خلاط[7] ، كما أغار على بلاد سلاجقة الروم[8] ، مما أدى إلى تحالف الايوبيين وسلاجقة الروم ضده ، فهزموه هزيمة منكرة[9] أماتت

---

(١) ابن الأثير : جـ١٢ ص ٣٦١ ، النسوي : ص ٨٥

(٢) النسوي : ص ١٠٤ ، ابن الأثير : جـ١٢ ص ٣٦٩ ، مرآة الزمان : جـ٨ ق ٢ ص ٥٦٨

(٣) ابن الأثير : جـ١٢ ص ٣٦١ ، مرآة الزمان : جـ٨ ق ٢ ص ٦١٠

(٤) ابن الأثير : جـ١٢ ص ٣١٧ ، مرآة الزمان : جـ٨ ق ٢ ص ٥٨٢

(٥) ابن الأثير : جـ١٢ ص ٤٢٥ ، النسوي : ص ١٧٤

(٦) ابن الأثير : جـ١٢ ص ٤٢٦

(٧) ابن الأثير : جـ١٢ ص ٤٦٠ ، ٤٨٧ ، النسوي : ص ٢٦٩ ، ابن العبري : ص ٢١٥ . وخلاط هي قصبة أرمينيا الوسطى . انظر : ياقوت : جـ٢ ص ٣٨١ .

(٨) النسوي : ص ٣٢٩

(٩) ابن الأثير : جـ١٢ ص ٤٨٩ ، النسوي : ص ٣٢٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فيه التتار ، فخرجوا إليه ، وأزالوا أمره[1] ، ولم يصغ أحد إلى صيحات النجدة التي اطلقها بعد هزيمته أمام التتار[2] .

وكان زوال الدولة الخوارزمية بانهزام جلال الدين مؤشر خطر أحس به الملك الأشرف[3] ، الذي بيّن أن الحاجز الذي كان يحول بين المغول وبلاد الاسلام في بلاد الشام والعراق قد زال ، وقال لمن هنّأه بذلك : " تهنئونني به وتفرحون ، سوف ترون غبّه ، والله لتكونّن هذه الكسرة سببا لدخول التتار إلى بلاد الاسلام ، ما كان هذا الخوارزمي الا مثل السد الذي بيننا وبين يأجوج ومأجوج[4]

* * *

وكان في مصر والشام ملك بني أيوب ، الذين تقاسموهما فيما بينهم ، بحيث يصح أن يقال : إنه لم تكن هناك دولة أيوبية واحدة ، بل دول متعددة . وكانت هذه الدول تواجه أمرين : الأول هو الخطر الصليبي الذي كان ما يزال باقيا في مدن الساحل الشامي . والثاني : الخلافات الداخلية بين ملوك الايوبيين . أما الخطر الصليبي فقد تجددت قوته مع بداية القرن الهجري السابع ، وتمثل في ازدياد النشاط العسكري للصليبيين في بلاد الشام ، ومحاولتهم التوغل في البر الشامي[5] . كما تمثل في تعدد المحاولات الصليبية لايجاد موطئ قدم لهم في مصر ،

---

(١) ابن الاثير : جـ١٢ ص ٤٩٧

(٢) ابن العبري : ص ٢٤٦ .

(٣) هو مظفر الدين أبو الفتح موسى بن العادل ، ولد سنة ٥٧٦ هـ بالقاهرة ، ملك حران وخلاط مدّة ، ثم ملك دمشق توفي سنة ٦٣٥ . انظر : العبر : جـ ٥ ص ١٣٩

(٤) مرآة الزمان : جـ٨ ق٢ ص ٦٧٠ ، النجوم الزاهرة : جـ٦ ص ٢٧٧

(٥) ابن الأثير : جـ١٢ ص ١٩٤ ، ٢٧٣ ، ابن كثير : جـ١٣ : ص ٢٧ ، ٦٧ ، ٨٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حيث شنوا الهجوم على دمياط أكثر من مرة خلال هذا القرن[1]. وأما الخلافات الداخلية بين الايوبيين فيبدو أنها كانت من الشدة والتعقيد بحيث استعصت على وساطة الخليفة العباسي ، الذي أرسل اكثر من رسول ليصلح بينهم[2]. ولم تجد في فضها الأخطار الخارجية التي كانت تضغط عليهم ، متمثلة في الخطر الصليبي المتجدد ، والخطر المغولي المتربص. وقد امتد أثر هذه الخلافات الى ما وراء حدود ممالكهم ، حيث نجد منهم من راسل الخوارزميين[3] مستعينا بهم على الفريق الآخر الذي لجأ الى الصليبيين فراسلهم واستعان بهم[4].

وكانت هذه الخلافات ناشئة عن طمع كل منهم فيما في يد الآخر ، وسعيه الى حيازته في ملكه[5]. وقد روى ابن كثير نموذجا من خلافاتهم سنة ٦٢٦هـ فقال " استهلت هذه السنة وملوك بني أيوب متفرقون مختلفون ، قد صاروا شيعا وأحزابا[6].

وهكذا فإن بلاد الاسلام التي شهدت أحداث الغزو المغولي ، كانت مقسمة بين أطراف متعددة :

---

(١) ابن الأثير : جـ١٢ ص ٣٥٧ ، مرآة الزمان : جـ٨ق٢ ص ٦٠٣ ، ابن كثير : جـ ١٣ ص ٦٣ ، ٨٣

(٢) مرآة الزمان : جـ٨ ق٢ص ٥٩٧ ، اليونيني : ج ١ ص ٣٣٣ ، ابو الفداء جـ ٣ ص ١٣٧ ، ١٦٤ .

(٣) مرآة الزمان : جـ٨ ق ٢ ص٥٩٧ ، ابن واصل : جـ٤ ص١٧٦ .

(٤) ابو الفداء : جـ٣ ص ٣٨ ، ١٧٢

(٥) مرآة الزمان : جـ٨ ق ٢ ، ص٦٩٦

(٦) ابن كثير : جـ١٣ ص ١٢٣ وانظر : مرآة الزمان : جـ٨ ق ٢ ص٦٥٧ ، ٧٢٥ ، ذيل الروضتين : ص ١٥٣ ، ١٥٤ ، الحوادث الجامعة : ص ١١٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخلافة الاسلامية التي تمثل الطرف الضعيف العاجز الذي لم يكن يملك قوة حقيقية ، بل هيبة اسمية !!

والدولة الخوارزمية ، التي كانت تمتلك القوّة ولكنها لم تحسن استخدامها .

والدولة الايوبية التي كانت تعيش في صراع وخلاف ، مشغولة عما يحيط بها من أخطار .

ودولة سلاجقة الروم : التي تحالفت مع المغول ، وسارت في ركابهم ، وأمدتهم بالجيوش ، وجعلت بلادها مسرحا لجيوشهم .

هذا الوضع التي كانت عليه بلاد الاسلام لم يكن يبشر بالخير بل يثير المخاوف في نفوس الذين أبصروا عواقب الأمور . ويظهر ذلك في حديث ابن الأثير عن احوال المسلمين ، وما يحيط بهم من اخطار خارجية ، تمثلت في المغول والفرنجة ، وما كانت عليه حالهم الداخلية ، فالذين سلموا من أخطار الغزاة " فالسيف بينهم مسلول ، والفتنة قائمة على ساق . . . فإنا لله وانا اليه راجعون نسأل الله أن ييسر للاسلام والمسلمين نصرا من عنده ، فإن الناصر والمعين والذاب عن الاسلام معدوم "(١) .

وقد يسر الله للمسلمين في هذه العقبة من تاريخهم سلاطين المماليك الذين حملوا عبء الجهاد ، وقادوا الجيوش في مواجهة غزوات المغول .

---

(١) ابن الأثير : ج ١٢ ص ٣٦١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحالـــــة الاجتماعيـــــة

تعرض المجتمع الاسلامي ، في البلاد التي امتد إليها الغزو المغولـــي من بعد ، لمجموعة من العوامل التي اسهمت في إضعافه قبيل ذلك الغزو . فقد اجتاحته كوارث طبيعية ، من زلازل وفيضانات ، وغرق وقحط وجراد . من ذلـــك ما أصاب بلاد الشام من الزلازل سنة ٦٠٠ هـ[1] ، وخراسان ونيسابور سنة ٦٠٥ هـ ، " حيث خرج أهلها إلى الصحراء أياما حتى سكنت وعادوا "[2] ، وفي سنة ٦٢٣ هـ " زلزلت الأرض بالموصل وكثير من البلاد العربية والعجمية ، وكان أكثرها بشهـــر زور ، فإنها خرب اكثرها ، ولا سيّما القلعة ، فإنها أجحفت بـــها ، وخرب فـــي تلك الناحية ست قلاع ، وبقيت الزلزلة تتردد نيفًا وثلاثين يوما ، ثم كشفها اللـــه عنهم ، وأما القرى التي بتلك النواحي فخرب أكثرها "[3] .

وكان إلى جانب الزلازل فيضانات تنتج عن الثلوج أو الأمطار الغزيـــرة ، تغرق مناطق واسعة ، وتؤدي الى خسائر مادية[4] .

وكان القحط يصيب بعض بلاد المسلمين ، ويصاحبه الجراد الذي يأكل الأخضر واليابس ، مما يشيع الغلاء ، حتى كان بعض الناس يضطر إلى أكل الميتة والسنانير[5] .

---

(١) ابن الأثير : جـ١٢ ص ١٩٨

(٢) المصدر نفسه : جـ١٢ ص ٢٨٣ ، مرآة الزمان : جـ٨ ق٢ ص ٥٣٩ ونيسابور: مدينة عظيمة خرج منها جماعة من العلماء . انظر : مراصد الاطلاع: جـ٣ص ١٤١١

(٣) ابن الاثير : جـ١٢ ص ١٦٨

(٤) انظر : ابن الأثير : جـ١٢ ص ٣٢٢ ، مرآة الزمان : جـ٨ ق٢ ص ٥٨٢ ، ٧٩٤ الحوادث الجامعة : ص ١٥٥ ، ٣١٧ ، النجوم الزاهرة : جـ٧ ص٣٥

(٥) ابن الأثير : جـ١٢ ص ٤٤٧ — ٤٤٨ ، ٥٠٤ ، الذيل على الروضتين : ص ١٥٠ الحوادث الجامعة : ص ٢٠٢ ، ٢١٨ ، ٢٢٥ ، مرآة الزمان : جـ٨ق٢ ص ٦٢٣ ، ابن كثير : جـ١٣ ص ١٠٦ ، ١٢٨ ، النجوم الزاهرة : جـ٦ ص ٣٥٢ ، جـ٧ : ص ٣٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكان الغلاء وما ينتج عنه من سوء التغذية سببا من أسباب الأوبئة التي كانت تغتال كثيرا من الناس . ففي سنة ٦٢٢هـ "كثر الموت والمرض في الناس، فكان يحمل على النعش الواحد عدة من الموتى "[1]، وفي سنة ٦٤٠هـ "كثر الموت والمرض في بغداد وسوادها ، وغلا السكر وكل ما يحتاج إليه المرضى "[2].

يضاف إلى هذه الكوارث ما كان في المجتمع من تيار فساد وانحراف تجسّد في أمور . منها : الظلم بأشكاله . ومن الظلم : فساد القضاء وجور الأحكام ، بخروجها عن الحدود الشرعية المقررة ، يصف أبو شامة المقدسي[3] حال قضاة دمشق في هذا العصر فيقول :

دمشق في عصرنا مع فضلها بُليت ... من القضاة بجهّال وأوقاح
بأعجميّ ومصريّ وصاغ ... والاربلي وخياط وفلاح
هم صنف ستة والنواب كلهم ... ضعفان ، أعوانهم أضعاف أفراح[4]

ومن مظاهر خروج الأحكام عن الحدود الشرعية الحكم على بعض المذنبين بالسجن في المستشفى العضدي ببغداد في حجرة المجانين ، مع قطع اللسان[5] !! أو الحبس فيها مع الربط بالسلاسل[6].

ومن الظلم الاسراف والتبذير في الحفلات[7] والهدايا والعطايا التي كان يغدقها أولو الأمر على الاتباع ، وتشمل الملابس الحريرية والسيوف المذهّبة[8] ، في الوقت الذي نجد فيه الجنود يثورون لقطع أرزاقهم ، والعامة يثورون ويشغبون لما

---

(١) ابن الأثير : جـ١٢ ص ٤٤٨
(٢) الحوادث الجامعة : ص ١٥٤ — ١٥٥ ، وانظر : النجوم الزاهرة : جـ٦ ص ٢٩٣
(٣) عبد الرحمن بن اسماعيل ، مقدسي الأصل ، دمشقي شافعي مقرئ نحوي ، ولد سنة ٥٩٦ ، وتوفي سنة ٦٦٥هـ . شارك في مختلف العلوم تدريسا وتصنيفا . انظر : فوات الوفيات : جـ١ ص ٢٦٧ .
(٤) الذيل على الروضتين : ص ٢١٤
(٥) الحوادث الجامعة : ص ٣ — ٤ ، ٢٤ ، ٣١
(٦) المصدر نفسه : ص ١ — ٢
(٧) المصدر نفسه : ص ٧٢ ، ٧٧
(٨) المصدر نفسه : ص ٤٣ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ٨٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يرون من التفاوت بينهم وبين أصحاب السلطة والجاه في المجتمع[1].

وكان في المجتمع الاسلامي أماكن لشرب الخمر والزنا ، يرتادها من يريد[2] ، وكان بعض الحكام يقر هذا الفساد ، فالملك المعظم عيسى[3] أعاد "غصان القيان والخمور والمغنيات وغير ذلك من الفواحش والمنكرات التي كان قد أبطلها أبوه"[4].

وكانت الفتن في المجتمع الاسلامي قائمة على ساق ، وأخطر تلك الفتن ما كان بين السنة والشيعة ، حيث كان يسقط القتلى والجرحى ، وتنهب الدور والدكاكين"[5]. وقد جعلها كثير من المؤرخين السبب المباشر لزوال دولة الخلافة لما رووه من مراسلة الوزير ابن العلقمي لهولاكو ، الذي أراد الانتقام مما حلّ بالشيعة في بغداد[6].

وهناك الفتن التي كانت تثور بين أهل الأسواق والأحياء المختلفة ، في المدينة الواحدة ، "فقد كان من عادة الناس في بغداد الخروج لقتل السباع، وكان كل أهل حيّ يخرجون في جوق ، وبين يديّ كل جوق اللّعابة بالدفوف والزمور،

---

(١) الحوادث الجامعة : ص ١٠٢ ، وانظر : النجوم الزاهرة : جـ٧ ص ٢٠

(٢) المصدر نفسه : ص ١٧ ، ابن كثير : جـ١٣ ص ٧٦ ، ٨٢

(٣) هو ابن الملك العادل ، أخي صلاح الدين ، ملك دمشق والشام ، كان شجاعا باسلا توفي سنة ٦٢٤هـ . انظر : ابن كثير : جـ١٣ ص ١٢١

(٤) ابن كثير : جـ١٣ ص ٨١

(٥) ابن الاثير : جـ ١٢ ص ٤٢٤ ، الحوادث الجامعة : ص ٣١ ، ٢٥٤ ، ٢٧٦ ، ٢٧٨ ، ٢٩٨ ، ٣٦٤ .

(٦) انظر : ابن الوردي : جـ ٢ ص ٢٨٢ ، ابن كثير : جـ١٣ ص ١٩٦ ، ٢١٢ ، السبكي : جـ٥ ص ١١٠ — ١١١ ، النجوم الزاهرة : جـ٧ ص ٤٧ — ٥٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والمغاني وسائر الملاهي ، فجاء قوم من رجال المأمونية ليجتازوا في باب الأزج ، فمنعهم أهل باب الأزج أن يعبروا وسيوفهم مشهورة ، واقتتل الفريقان حتى قتل منهم جماعة ، من النظّارة والمقاتلة ، ونهبت الدور والدكاكين[1] .

وكان يقابل تيار الفساد والانحراف والهدم ، تيار آخر يسعى في الاتجاه المعاكس . وقد تمثل هذا الاتجاه في مستويات المجتمع المختلفة ، من حكام وعلماء وعامة . فظهر من الحكام من وقف في وجه الفساد ، وسعى لاقامة العدل ، ومنهم الخليفة الظاهر ، الذي طلب من أرباب الدولة العدل والانصاف ، وأمر " والي السواد[2] بتخفيف الوطأة ، وانصاف المعاملين ، والاحسان اليهم والرفق بهم[3] " ، وعندما " غلت الأسعار بالموصل وديار الجزيرة ، أمر الخليفة الظاهر أن يباع من الأهراء التي له طعام أرخص مما يبيع غيره ، ففعلوا ذلك ، فرخصت الأسعار عندهم أكثر مما كانت أولا[4] " .

ولم يقتصر الأمر على الخليفة الظاهر ، فقد سار ابنه المستنصر على النهج نفسه[5] ، وكذلك كان بعض ملوك الايوبيين ، ومنهم العادل[6] اخو صلاح الدين ، الذي رفع المكوس عن التجار ، وأبطل المحرمات والخمور ، والمعازف من مملكته كلها[7] ، وحارب الفساد من بعده ابنه الملك الاشرف موسى ، الذي هدم خان

---

(١) الحوادث الجامعة : ص١٧٥ - ١٧٦ ، ١٧٧ ، وانظر : ابن الأثير : جـ١٢ ص ٢٠٣ - ٢٠٤ ، ٣٣١

(٢) ضياع العراق ، افتتح على عهد عمر ، وعدّه من حديثة الموصل طولا الى عبادان ، ومن المذيب بالقادسية الى حلوان عرضا . انظر : ياقوت : جـ٣ ص ٢٧٢

(٣) ابن الأثير : جـ١٢ ص ٤٤١ ، مختصر التاريخ : ص٢٥٦

(٤) ابن الأثير : جـ١٢ ص ٤٤٣ .

(٥) ابن كثير : جـ١٣ ص ١٥٩

(٦) هو ابوبكر محمد بن ايوب ، استولى على المماليك بعد صلاح الدين ، وولى ابناءه عليها . توفي سنة ٦١٥هـ . انظر : العبر : جـ٥ ص ٥٨

(٧) مرآة الزمان : جـ٨ ق٢ ص ٥٦٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الزنجاري في دمشق ، وبنى مكانه مسجدا سماه مسجد التوبـــــة[1] .

وكان من العلماء من يقف في وجه الفساد والانحراف ، فعندما سلم الملك الصالح اسماعيل[2] صاحب دمشق قلعة الشقيف[3] للفرنج سنة ٦٣٨هـ أنكر عليه الشيخ عز الدين بن عبد السلام[4] ، وأبو عمرو بن الحاجب[5]، فسجنهما ، وعزل ابن عبد السلام من خطابة دمشق[6] ، ووقف الشيخ عز الدين في وجه الملك قطز الذي أراد أن يأخذ من أموال التجار قروضا ينفقها في تعبئة الجيش لمحاربة المغول ، وطلب منه قبـــل أن يفعل ذلك ، إحضار ما عنده وعند حريمه ، وعند الامراء وحريمهم من الذهـــب ، وضربه سكة ، وتفريقه في الجيش، فإن لم يكف ذلك جاز له أن يطلب القرض مـــــن التجـــــار[7] .

ووقف العلماء في وجه تيار الفساد الاجتماعي ، فقد أمر الشيخ محي الدين ابن الجوزي[8] محتسب بغداد بإزالة المنكر ، وكسر الملاهي سنة ٦١٦هـ[9]. ورفـــض

---

(١) ابن كثير : جـ ١٣ ص ٧٩

(٢) ابن العادل : تملك دمشق مدة ، ثم انضم الى ابن أخيه صاحب حلب الملك الناصر ، قتل سنة ٦٤٩هـ . انظر : العبر : جـ٥ ص ١٩٨

(٣) شقيف أرتون : قلعة حصينه جدا في كهف من الجبل قرب بانياس من أرض دمشق ، بينها وبين الساحل . انظر : مراصد الاطلاع : جـ٢ ص ٨٠٧

(٤) ولد بدمشق سنة ٥٧٨هـ ، برع في الفقه والاصول ، درس وافتى وصنف ، وبلغ رتبة الاجتهاد ، وكان آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر . توفي سنة ٦٦٠هـ انظر : العبر : جـ٥ ص ٢٦٠ .

(٥) مقرئ نحوي أصولي ، صاحب تصانيف ، توفي سنة ٦٤٦هـ . انظر : العبر : جـ٥ ص ١٨٩

(٦) مرآة الزمان : جـ٨ ق٢ ص ٦٩٣ ، ابن كثير : جـ١٣ ص ١٤٣ .

(٧) العبر : جـ٥ ص ١٥٧ ، ابن كثير : جـ١٣ ص ١٥٥

(٨) هو يوسف بن أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي ، ولد سنة ٥٠٨هـ ، كان كثير المحفوظ ، قوي المشاركة في العلوم . قتله المغول سنة ٦٥٦هـ . ببغداد . انظر : العبر : جـ٥ ص ٢٣٧ .

(٩) ابن كثير : جـ ١٣ ص ٨٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الشيخ شرف الدين الفقيه الحنفي[1] الافتاء بإباحة الأنبذة ، عندما طلب منه ذلك الملك المعظم عيسى ، وكان جزاؤه العزل من المدرسة التي كان يعمل فيها[2] .

وكان العلماء يسهمون في تعبئة الروح المعنوية للأمة وذلك بعقد مجالس الوعظ في المساجد ، حيث كان لبعضهم تأثير شديد في الناس ، وكان يتوب على أيديهم المئات بل الألوف[3] . ومن أشهرهم في هذا المجال سبط ابن الجوزي[4] الذي كان له دور كذلك في جمع المجاهدين لقتال الفرنجة[5] ، ومحاولة التأليف بين ملوك الأيوبيين[6] .

ولم تقتصر محاولة الاصلاح على الحكام والعلماء ، بل كان من أفراد الأمة من يتصدى للفساد ، ويقوم بواجبه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، من ذلك أنه كان ببغداد رجل يفشي مجالس اللهو وشرب الخمر ، فيعظ أهلها ، ويكسر أدوات الخمر ، وآلات اللهو ، وقد تحمل في هذا السبيل العناء الكبير ، ورفع أمره إلى الوزير فطلب منه أن يكف عن ذلك ، ويرفع الأمر إلى الديوان ، ولكنه لم ينته ، فسجن ونفي ، وبقي على أمره[7] .

---

(١) اسماعيل بن ابراهيم ، توفي سنة ٦٢٩هـ ، انظر : النجوم الزاهرة : جـ٦ ص ٢٧٨

(٢) النجوم الزاهرة : جـ٦ ص ٢٧٨ — ٢٧٩ .

(٣) انظر : مرآة الزمان : جـ٨ ق٢ ص ٥٣٠ ، ٥٤٤ — ٥٤٥ ، ٧٤٢ ، الذيل على الروضتين : ص ٥٤ ، الحوادث الجامعة : ص ١٢٤ ، ١٧٧

(٤) العلامة الواعظ المؤرخ ، شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزأغلي التركي ثم البغدادي وعظ بدمشق ، وله تفسير ومؤلفات أخرى — توفي سنة ٦٥٤ هـ . انظر : العبر : جـ ٥ ص ٢٢٠ .

(٥) مرآة الزمان : جـ٨ ق ٢ ص ٦٠٤ ، ٦٠٥

(٦) المصدر نفسه : جـ٨ ق٢ ص ٦١٩

(٧) الحوادث الجامعة : ص ١٥٠ — ١٥١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحالـــــة الثقافيـــــــة

اتسمت الحالة الثقافية في العالم الاسلامي قبيل الغزو المغولي بالنشاط والازدهار . فقد كانت المراكز العلمية منتشرة في أنحاء العالم الاسلامي يقبل عليها العلماء وطلاب العلم من شتى الديار . وكانت هذه المراكز تعج بالعلماء والمكتبات ، بفضل ما كان يلقاه العلم والعلماء من التشجيع والرعاية من الخلفاء والملوك ، فقد كانوا يقربون العلماء ، ويناظرونهم ويحبون مجالسهم (١) . وكانوا يبنون المدارس ، ويرصدون لها أوقافا تدرّ ما يكفي للانفاق على من فيها من العلماء وطلاب العلم . ومن أشهر المدارس التي بنيت في هذا العصر : المدرسة المستنصرية (٢) التي قال الذهبي فيها : "لا نظير لها في الدنيا فيما أعلم" (٣) ، ودار الحديث التي بناها الأشرف موسى بدمشق (٤) ، وكان كثير من الملوك يبنون المدارس التي تنسب اليهم وتخلد ذكرهم (٥) . ولم يكن بناء المدارس مقتصرا على الملوك ، بل كان من نسائهم (٦) ، ومن له صلة بهم (٧) ، ومن الأغنياء وذوي اليسار من يبني مدرسة (٨) ، أو يجعل بيته مدرسة من بعده (٩) .

كما أن أمر التعليم لم يكن مقتصرا على المدارس ، فقد كانت هناك المساجد التي تعقد فيها مجالس العلم ، وحلقات تحفيظ القرآن ، ودراسة الحديث الشريف (١٠) ،

---

(١) ابن الأثير : جـ١٢ ص ٣٧١ ، ابن واصل : جـ٤ ص ٧٧ ، ٧٩ ، ٢٨٥ ، النجوم الزاهرة : جـ٦ ص ٢٨٠ .

(٢) الحوادث الجامعة : ص ٥٣

(٣) العبر : جـ٥ ص ١٢٣

(٤) الذيل على الروضتين : ص ١٦١ ، النعيمي : جـ١ ص ١٩ ، ٤٧

(٥) ابن واصل : جـ ٤ ص ٨٠ ، النجوم الزاهرة : جـ٦ ص ٣٨١ ، النعيمي : جـ١ ص ١١٥

(٦) الذيل على الروضتين : ص ١١٩ ، العبر : جـ٥ ص ١٦٤ ، النجوم الزاهرة : جـ٦ ص ٣١٥ ، النعيمي : جـ ١ ص ٢٧٧ ، ٣٠١ .

(٧) الحوادث الجامعة : ص ٢٤ ، ٧٦ ، ١٢٨ ، النعيمي : جـ١ ص ١٥٨ ، ١٥٩ ، ٢٣٦ .

(٨) شذرات الذهب : جـ٥ ص ١٩ . (٩) العبر : جـ٥ ص ١١١ ، النعيمي : جـ١ ص ٨٠

(١٠) الحوادث الجامعة : ص ٤ ، النعيمي : جـ١ ص ٨٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن أشهرها الجامع الازهر والمسجد الأقصى[1] ، وكان للعلم سوق في بعض الربط[2] ، حيث كان يشتغل في بعضها بالعلم " اكثر من الاشتغال في سائر المدارس[3] " . ومن يراجع الكتب التي ترصد الحركة الثقافية في التاريخ الاسلامي يجد أعدادا كبيرة من المدارس ودور العلم في مختلف حواضر الاسلام[4] .

وقد ظهر في هذا العصر علماء كبار رفدوا الثقافة الاسلامية بذخيرة من المؤلفات التي ما زالت معينا للدارسين إلى عصرنا ، في مختلف فروع الثقافة العربية الاسلامية .

ففي مجال العلوم الشرعية ، نجد كثيرا من العلماء الحفاظ، والأئمة الاعلام[5] ، فهناك الحافظ المنذري[6] ، وعز الدين بن عبد السلام ، والفخر الرازي[7] ، وابن الصلاح[8] ، وعلم الدين السخاوي[9] .

---

(١) أحمد بدوي : ص ١١٤ — ١٧ ، ٢٦

(٢) جمع رباط ، وهو ملجأ الفقراء من الصوفية . المعجم الوسيط : جـ١ ص ٣٢٣

(٣) شذرات الذهب : جـ٥ ص ٣٨

(٤) انظر : الخطط المقريزية : جـ٣ ص٣١٣ — ٣٨٣ ، الانس الجليل : جـ ٢ ص ٣٣ — ٤٧ ، أحمد بدوي : ص ١١ — ٧٥ .

(٥) انظر : أحمد بدوي : ص ٦٣ — ١٦٧ .

(٦) عبد العظيم بن عبد القوي ، ولد سنة ٥٨١هـ، كان حجة في علوم الحديث، عارفا بالفقه والنحو ، توفي بمصر سنة ٦٥٦هـ . انظر : العبر: جـ٥ ص٢٣٢

(٧) محمد بن عمر القرشي ، ولد سنة ٥٤٤هـ، اشتغل في التفسير والفقه والكلام والأصول والطب. توفي بهراة سنة ٦٠٦هـ. انظر : العبر : جـ٢ ص١٨٠

(٨) شيخ الاسلام ابو عمرو بن عثمان ، تقي الدين بن الصلاح الكردي، الشهرزوري الموصلي ، ولد سنة ٥٧٧هـ ، تفقه وبرع في المذهب الشافعي ، والحديث وعلومه . وله تصانيف. توفي سنة ٦٤٣هـ. انظر : العبر جـ٥ ص ١٧٧ .

(٨) العلامة أبو الحسن ، علي بن محمد ، الهمذاني المقرئ النحوي ، انتهت إليه رئاسة الاقراء والأدب في زمانه . توفي بدمشق سنة ٦٤٣هـ . انظر: العبر : جـ ٥ ص ١٧٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ونجد من الأسر العلمية أسرة المقادسة التي برز منها الحافظ موفق الدين أبو محمد المقدسي[1]، والحافظ ضياء الدين[2] وغيرهما.

وفي علم اللغة والنحو ظهر أعلام من أشهرهم : أبو البقاء العكبري[3]، وتاج الدين أبو اليمن الكندي[4]، وابن يعيش[5]، والصاغاني[6]، وابن الحاجب، وابن معطي[7].

---

(١) عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة الحنبلي صاحب التصانيف ولد بجماعيل سنة ٥٤١، هاجر الى دمشق مع أخيه الشيخ أبي عمر سنة ٥٥١هـ، ارتحل الى بغداد وادرك الشيخ عبد القادر، وسمع منه وأدرك درجة الاجتهاد. توفي سنة ٦٢٠هـ. انظر : العبر : جـ ٥ ص ٧٩.

(٢) ابو عبد الله محمد بن عبد الواحد المقدسي، الحافظ، ولد سنة ٥٦٩، انتفع الناس بتصانيفه والمحدثون بكتبه. توفي سنة ٦٤٣هـ. انظر: العبر : جـ ٥ ص ١٧٦.

(٣) العلامة محب الدين عبد الله بن الحسين، صاحب التصانيف، قرأ القراءات وتفقه وحاز قصب السبق في العربية. توفي سنة ٦١٦هـ. انظر: العبر جـ ٥ ص ٦١.

(٤) زيد بن الحسن، البغدادي المقرئ النحوي اللغوي، شيخ الحنفية والقراء والنحاة بالشام، ومسند العصر. ولد سنة ٥٢٠هـ وتوفي سنة ٦١٣هـ انظر العبر: جـ ٥ ص ٤٤

(٥) الموفق يعيش بن علي بن يعيش الاسدي الحلبي، ولد سنة ٥٥٣هـ، وانتهى اليه معرفة العربية ببلده، وتخرج به خلق كثير. توفي سنة ٦٤٣هـ. انظر: العبرة: جـ ٥ ص ١٨١

(٦) العلامة رضي الدين ابو الفضائل، الحسن بن محمد، القرشي، الصاغاني الأصل الهندي اللاهوري المولد، البغدادي الوفاة. المحدث الفقيه الحنفي اللغوي الامام، صاحب التصانيف، وكان إليه المنتهى في علم العربية واللغة. توفي سنة ٦٥٠هـ. انظر : النجوم الزاهرة : جـ ٧ ص ٢٦.

(٧) الشيخ زين الدين أبو الحسن يحي بن عبد المعطي الزواوي الفقيه الحنفي، ولد سنة ٥٦٤هـ، أقرأ العربية مدة بدمشق ثم بمصر، وروى عن القاسم بن عساكر وهو من أجل تلاميذ الجزولي. توفي سنة ٦٢٨هـ. انظر : العبر: جـ ٥ ص ١١٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن الشعراء ، برز ابن عنين[1] وعمر بن الفارض[2] ، والشواء الحلبي[3] وجمال الدين بن مطروح[4] ، والشاعر المتخصص بالمدح النبوي جمال الدين الصرصري[5] وابن الحلاوي[6] ، وفتيان الشاغوري[7] ، وكمال الدين بن النبيه[8] . وقد كان الشعراء يلقون التشجيع والرعاية من أولي الأمر فكانوا يغدقون عليهم العطايا[9] ، كما أن بعض ملوك الايوبيين كان يقول الشعر[10] .

---

(١) محمد بن نصر بن مكارم بن عنين الأنصاري الدمشقي ، له ديوان مشهور وهجو مؤلم. كان بارعا في معرفة اللغة . توفي سنة ٦٣٠هـ. انظر: العبر: جـ٥ ص ١٢٢

(٢) عمر بن علي بن مرشد الحموي الأصل، المصري، ولد سنة ٥٦٦هـ، اشتغل بالفقه والحديث وسلك طريق الصوفية ، وهو من كبار شعرائها . انظر: شذرات الذهب: جـ ٥ ص ١٤٩ .

(٣) شهاب الدين يوسف بن اسماعيل ، له ديوان شعر. توفي سنة ٦٣٥ . انظر: العبر: جـ٥ ص ١٤٧

(٤) ولد سنة ٥٩٢ ، برع في الأدب، خدم الملك الصالح ووصل وزارة دمشق . توفي سنة ٦٤٩ هـ . انظر : العبر : جـ٥ ص ٢٠٤

(٥) الشيخ العلامة ابو زكريا ، يحيى بن يوسف، الضرير ، كان اليه المنتهى في معرفة اللغة وحسن الشعر، استشهد بيد التتار سنة ٦٥٦هـ. انظر: العبر: جـ٥ ص ٢٢٧

(٦) شرف الدين ، ابو الطيب ، أحمد بن محمد ، الشاعر المشهور . مدح الملوك والأكابر توفي سنة ٦٥٦هـ . انظر : العبر : جـ٥ ص ٢٢٧

(٧) شاعر فاضل ، خدم الملوك ومدحهم ، وعلّم اولادهم ، وله ديوان شعر فيه مقاطيع حسان . توفي بدمشق سنة ٦١٥هـ. انظر: شذرات الذهب: جـ٥ ص ٦٣

(٨) العلامة الكاتب الشاعر، صاحب ديوان رسائل الملك الاشرف موسى بن العادل وله ديوان شعر مشهور. توفي سنة ٦١٩هـ. انظر : شذرات الذهب: جـ٥ ص ٨٥

(٩) انظر : الحوادث الجامعة : ص ٥٦ ، ٧٦ ، ٩٢ ، ١٨٤ .

(١٠) انظر : ابن واصل : جـ ٤ ص ٢٨٥ ، ٢٨٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وظهر من أعلام التصوف محي الدين بن عربي[(١)] ، وشهاب الدين السهروردي[(٢)] ، وعمر بن الفارض .

وبرز من المؤرخين ابن الأثير[(٣)] ، صاحب الكامل في التاريخ ، وابن النجار[(٤)] صاحب تاريخ بغداد ، وابن الدبيثي[(٥)] ، مؤلف تاريخ واسط ، وسبط ابن الجوزي صاحب مرآة الزمان .

ووجد في هذا العصر أطباء ، في مختلف ديار الاسلام[(٦)] .

ولم يقتصر العلم والتعليم على الرجال ، بل وجد في هذا العصر شيخات وعالمات ، روين العلم وروي عنهن ، ودرّسن على العلماء ودرّسنهم[(٧)] .

وظلّ العلماء في هذا العصر على ما كان عليه أسلافهم من الارتحال في طلب العلم ، والتنقّل في البلاد ، ليحوز العالم أكبر قدر متاح من العلم والاتصال بالشيوخ والتلقي عنهم[(٨)] .

---

(١) ولد بمرسية سنة ٥٦٠هـ، طاف في بلاد الشام والروم والمشرق ، ودخل بغداد دولة مصنفات كثيرة في التصوف ، توفي بدمشق سنة ٦٣٨هـ. انظر : شذرات الذهب : جـ٥ ص ١٨٩ .

(٢) ولد بسهرورد سنة ٥٣٩هـ، تفقه وتفنن ، وصنف ، وانتهت اليه تربية المريدين ومشيخة العراق . توفي سنة ٦٣٢هـ. انظر : العبر : جـ٥ ص ١٢٩ .

(٣) عز الدين بن الأثير ، الحافظ ، توفي سنة ٦٣٠هـ. انظر : العبر : جـ٥ ص١٢٠

(٤) ولد سنة ٥٧٨هـ، ورحل في البلاد ، وصنّف. توفي سنة ٦٤٣هـ. انظر: العبر: جـ٥ص١٨٠

(٥) الحافظ المؤرخ ابو عبد الله محمد ، ولد سنة ٥٥٨ ، وتوفي ببغداد سنة ٦٣٧ . انظر : العبر : جـ٥ ص١٥٤

(٦) انظر : عيون الانباء : ص ٤٠٧ ، ٤١٠ ، ٤٦٢ ، ٤٧١ ، ٤٧٢ ، ٥٨٢ ، ٦٤٦ ، النجوم الزاهرة : جـ٦ ص ٢٠٩ ، ٢٧٧ ، ٢٧٩ ، ٢٩٨ ، ٣٠٢ . أحمد بدوي : ص٢٠٧-٣١٣

(٧) انظر : العبر : جـ٥ ص ١٠ ، ١٧ ، ٢٢ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ١٣٣ ، ١٦٥ ، ١٧٠

(٨) انظر : عيون الأنباء : ص ٤٧١ ، شذرات الذهب : جـ٥ ص ٥٠ ، ١٣١ ، ١٣٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويبدو أن هذا العصر لم يكن عصر ازدهار للفلسفة والمنطق فكان من يأخذ بهما يتهم في دينه ، ويلقى المحن[1] . وكان من سياسة بعض الحكام محاربتهما وذلك في محاولة لإعادة الناس إلى منابع الاسلام ، وعدم الانشغال بهما عنه . فعندما تولى الملك الأشرف موسى الحكم في دمشق سنة ٦٢٦هـ ، " نادى مناديه فيها ان لا يشتغل أحد من الفقهاء بشيء من العلوم سوى التفسير والحديث والفقه ، ومن اشتغل بالمنطق وعلوم الاوائل نفي من البلد[2]

---

(١) انظر : شذرات الذهب : جـ٥ ص ٤٥ ، ١٤٤ — ١٤٥ ، التميمي : جـ١ ص ٢١

(٢) ابن كثير : جـ١٣ ص ١٢٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصـــــــــل الأوّل

مواكبـــة الشعر لأحداث الغزو المغولـــــــــــــــــي

* من بدئه إلى ســـقوط بغـــــــداد

* من ســـقوط بغداد إلى نهايتـــــه

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مواكبة الشعر لأحداث الغزو المغولي
من بدئه إلى سقوط بغداد

لم يعثر الباحث على شعر يصور ما حلّ بديار الاسلام إبّان الحملة المغولية على مشرق العالم الاسلامي التي انطلقت سنة ٦١٧ هـ ، ولم يجد وصفا لما أصاب المدن الاسلامية الكبرى فيه من الخراب ، الذى لخص أحداثه أحد المسلمين الذين كتب لهم النجاة في بخارى بقوله " جاءوا وخربوا ، وحرقوا وقتلوا ، وسلبوا وذهبوا "(١).

وتساءل الباحث عن سبب فقدان صدى ذلك الاعصار في الشعر. أفلم يكن هناك شعراء شهدوا الغزو ، أو رأوا ما خلف من آثار ؟ . ألم يثر ذلك الحدث قرائحهم ؟

والجواب على هذا التساؤل هو القول : لقد ظهر صدى ذلك الغزو ولكن باللغة الفارسية لا العربية ، لأن الفارسية كانت اللغة السائدة في ديار الاسلام التي واجهت المغول أول مرة(٢) ، وقد شهدت هذه اللغة طريقها إلى الشعر منذ القرن الرابع للهجرة ، ذلك القرن الذى شهد ظهور الشاهنامة(٣) للفردوسي(٤) ، وظهر من بعد ذلك شعراء كبار يعدون من أعظم شعراء الفارسية(٥).

---

(١) براون : ص ٢١ .
(٢) انظر: محمد موسى هنداوى : ص: ١٤-١٦ ، في أدب الفرس : ص ١١
(٣) ملحمة شعرية تشمل كل التاريخ الخرافي الذى عرفته ايران منذ أقدم الأزمنة الى الفتح العربي في القرن السابع الميلادى ، انظر: براون : ص ١٠٦٨ .
(٤) براون : ص ١٣٢ . والفردوسي : هو ابو القاسم حسن بن علي بن شرفشاه الطوسي ولد سنة ٣٢٣هـ وتوفي سنة ٤١٦ اتصل بالسلطان محمود الغزنوى ونظم له الشاهنامة . انظر: قصة الادب الفارسي : جـ١ ، ص ٢١٠ .
(٥) انظر: المصدر نفسه : ص ٢٧٤ ، ٣٠٤ ، ٣٨٥ ، ٤٦١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتساءل الباحث عن صدى هذا الغزو في الشعر العربي في البلاد الاسلامية التي سمعت به ، ولم يصل إليها . ورأى أن انشغال أهل كل قطر من أقطار المسلمين ، بنصيبهم من الأخطار الخارجية ، أو المنازعات الداخلية ، قد صرفهم عن تسجيل أصدائه فإذا كان شرق العالم الاسلامي قد تعرض لغزو المغول في العقد الثاني من القرن السابع للهجرة ، فإن بلاد الاسلام في الشام قد تعرضت لغزو الصليبيين منذ نهاية القرن الخامس ، وبقيت ذيوله حتى نهاية القرن السابع.

ومع هذا ، فليس هناك ما ينفي احتمال تسجيل بعض الشعراء ، الذين لم يصلنا شعرهم ، أصداء غزو المغول لشرق العالم الاسلامي . فقد ضاع كثير من شعر القرن السابع ، وأخبار شعرائه . ومن الكتب المفقودة في هذا المجال ، كتاب لابن الساعي[1] في تاريخ الشعر سماه " لطائف المعاني في ذكر شعراء زماني " ، وكتاب " روضة الأريب في أحوال الأديب " ، في سبعة عشر مجلدا . وكتاب ابن الفوطي[2] " الدرر الناصعة في شعراء المائة السابعة "[3] .

وإننا وإن كنا لا نجد فيما بين أيدينا من الشعر تسجيلا لأصداء الغزو المغولي لشرق العالم الاسلامي ، فإننا نجد شعرا ، يحمل إشارات تومي ولا تفصّل ، يسجل مخاوف الشعراء من امتداده ، ليشمل دار الخلافة. وذلك لما كان عليه خليفة المسلمين المستعصم بالله ، من الكلف " باللهو واللعب وسماع الأغاني ، لا يكاد مجلسه يخلو من ذلك ساعة واحدة ، وكان ندماؤه

---

(١) تاج الدين بن المحتسب المعروف بابن الساعي ، ولد سنة ٥٧٣ ، وسمع الحديث واعتنى بالتاريخ ولم يكن بالحافظ ولا الضابط المتقن . وله تاريخ كبير. انظر: ابن كثير : جـ١٣ ، ص ٢٧٠ .

(٢) عبد الرزاق بن أحمد ، الشيخ الامام المحدث المؤرخ الأخباري الفيلسوف، ولد سنة ٦٤٢هـ ، وتوفي سنة ٧٢٣هـ ، انظر: فوات الوفيات: جـ٢ ، ص٣١٩ .

(٣) انظر: الحزاوي : جـ١ ، ص ٣٠٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وحاشيته جميعهم منهمكين معه على التنعم واللذات ، لا يراعون له صلاحا ، . . . وكتبت له الرقاع من العوام ، وفيها أنواع التحذير ، وألقيت فيها الأشعار في أبواب الخلافة[1] . ومن ذلك ما كتبه أحدهم :

قل للخليفة مهلا ... أتاك ما لا تحسّب
ما قد دهتك فنون ... من المصائب غرب
فانهض بعزم وإلاّ ... غشاك ويل وحرب
كسر وهتك وأسر ... ضرب ونهب وسلب[2]

وكأن الشاعر نظر بعين الخيال ، فرأى بغداد وقد حلّ بها ما حل بالبلاد التي اجتاحها المغول ، فاطلق صيحة إنذار ، ووجه تحذيرا للخليفة ، واستنهضه ليعدّ العدة ، ويواجه العدوان المرتقب . ونجد في لهجة الشاعر ما يدلّ على اليأس من صلاح الحال ، أو إمكان تجنب المصير الأسود ، فالأمر قد أتى ، والمصائب فنون ، والعاقبة كسر وهتك وأسر ونهب .

وكتب المجد النشابي[3] قبيل سقوط بغداد قصيدة ، ذكرها ابن الفوطي في حوادث سنة ٦٥٥ ، للدلالة على سوء الحال الذي وصلت إليه بغداد ، وقد صوّر حال ساسة بغداد ، وأولي الأمر فيها ، وما كانوا فيه من الغفلة عن شؤون الرعية ، والانغماس في الشهوات ، والسعي لجمع حطام المال . قال :

---

(١) الفخري : ص ٤٦ .

(٢) المصدر نفسه : ص ٤٦ .

(٣) هو أسعد بن ابراهيم بن حسن ، مجد الدين النشابي الكاتب ، ولد بإربل سنة ٥٨٢هـ ، ولي كتابة الانشاء لصاحب اربل ، ثم خدم ببغداد . مات سنة ٦٥٦ هـ ، انظر: فوات الوفيات : جـ١ ، ص ١٦٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يا سائلي ولمحض الحقّ يرتاد ... أصخْ فعندي نُشدان وإنشاد
واسمع فعندي روايات محققة ... دراية وأحاديث وإسناد
فهم ذكي وقلب حاذق يقظ ... وخاطر لنفوذ النقد نقاد
عن فتية فتكوا في الدين وانتهكوا ... حماه جهلا برأيٍ فيه إفساد
إذا ترامت أمور الناس ليس لهم ... فيها دواء ولا حزم وإنجاد
أما الوزير فمشغول بمنبره ... والعارضان فنسّاج ومدّاد
وحاجب الباب طورا شارب ثمل ... وتارة هو جنكيّ وعواد
وابن عباس مغرى باللواط له ... في كل ناحية علق وقواد
وشيخ الاسلام صدر الدين همته ... مقصورة لحطام المال يصطاد (١)

هذه هي حال بغداد وزعمائها قبيل وقوعها بيد المغول ، وهي حال تنذر بالسوء ، ولذلك نجد الشاعر يفزع إلى حمى الرسول صلى الله عليه وسلم ، بيثه الحزن والشكوى ، لما رأى من السوء الذى حلّ بالاسلام في شرق العالم الاسلامي ، ولما توقع من امتداده ليشمل مناطق أخرى منه ، ويبلغ الحزن بالشاعر مداه عندما يتمنى الموت قبل وقوع الكارثة التي تنبأ بها لبغداد ، قال :

إن جئت يثرب أو يممت ساحتها ... فقل لمن أُنزلت في حقّه صاد
الكفر أضرم في الاسلام جذوته ... وليس يُرجى لنار الكفر إخماد
واضيعة الملك والدين الحنيف وما ... تلقاه من حادثات الدهر بغداد
أين المنيّةُ مني كي تساورني ... فللمنية إصدار وإيراد
من قبل واقعة شنعاء مظلمة ... يشيب من هولها طفل وأكباد (٢)

ويظهر في قصيدة المجد النشابي اليأس من صلاح الحال ، فقد صور الكفر ، وقد أشعل ناره في الاسلام - وهو في هذا يشير إلى ما فعله المغول .

---

(١) الحوادث الجامعة : ص ٣٢١ .

(٢) المصدر نفسه : ص ٣٢١-٣٢٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويرى حتمية وصولهم إلى بغداد ، لأنه ليس للخلافة قوة تدفع بها عن نفسها . ولذلك رثى الخلافة قبل سقوطها ، وبكى الدين ، وتحسّر على ما سيحل ببغداد من مصائب الدهر ، وتجلى ما في نفسه من الحرقة والمرارة ، فتمنى الموت قبل وقوع الكارثة المقبلة .

ولئن لم تقع بغداد تحت سطوة المغول قبل سنة ٦٥٦ هـ ، فقد كان لهم جولات ، جاسوا فيها خلال العراق ، ففي سنة ٦١٧ هـ ، احتل المغول مدينة مراغة[1] في أذربيجان ثم تحولوا عنها إلى إربل ، فخاف الخليفة أن يعدلوا عنها ويطرقوا العراق ، فكتب إلى صاحبها مظفر الدين كوكبري[2] ، وإلى بدر الدين لؤلؤ[3] ، صاحب الموصل ، يأمرهم بالاجتماع مع عساكره بمدينة دقوقا ، ليمنعوا التتر . " فسار مظفر الدين من إربل ، وسار إليهم جمع من عساكر الموصل[4] ، واجتمعت العساكر إلا أنه لم يحدث قتال ، لانسحاب التتر وعودتهم إلى بلادهم[5] . وقد نظم الشاعر

---

(١) من قواعد أذربيجان تقع غربيّ تبريز ، وبها بنى نصير الدين المرصد الفلكي انظر: تقويم البلدان : ص ٣٩٨ .

(٢) الملك العظيم ابو سعيد كوكبرى ، صاحب اربل ، ولي ملكها بعد أبيه سنة ٥٦٣هـ ، وكان صغير السن ، فاغتصب منه ، واتصل بصلاح الدين فأعاده الى ملكه ، ودام فيه الى ان توفي سنة ٦٣٠هـ .انظر:العبر: جـ٥ ،ص١٢١ .

(٣) كان القائم بأمور الموصل في عهد استاذه أرسلان شاه بن مسعود ،ثم في عهد ولده القاهر، فلما توفي القاهر سنة ٦١٥هـ انفرد بالسلطة، ودام حكمه ثلاثة واربعين عاما ، وقد صانع هولاكو، ودخل في طاعته وحمل اليه الأموال بعد اخذه بغداد ،توفي سنة ٦٥٦هـ .انظر:ابوالفداء: جـ٣ ،ص١٩٨ ، العبر : جـ ٥ ، ص ٢٤٠ .

(٤) ابن الأثير : جـ ١٢ ، ص ٣٧٨ .

(٥) المصدر نفسه: جـ ١٢ ، ص ٣٧٩ ، ابن واصل : ج ٤ ، ص ٥٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

علي بن مقرب العيوني[1] قصيدة مدح بها صاحب الموصل فقال :

لقد أصبح الاسلام في كل موطن ... ينوء بركن منه عبل الدعائم
أقام له في كل ثغر كتائبا ... يقيم اصعرار الأبلج المتضاحم
دعاه لنصر الدين خير خليفة ... وما زال يدعى للأمور العظائم
فلبى مطيعا للامام وحسبه ... بذا مفخرا في عربها والأعاجم
فقاد إلى الافرنج جيشا زماؤه ... عديد الحصا ذا أزمل وزمازم[2]
وجيشا يوارى الشمس ريعان نقعه ... إلى الترك إذ جاء والهتك الضجارم[3]
إذا التتر الباغون ذاقوا وباله ... تمنوا بأن كانوا نعاما في المشائم[4]
جيوش هي الطوفان لا رمل عالج ... ولا جبل الأسرار منها بعاصم[5]
ستبقى به الأفرنج والترك مابقت ... كأن حشاياها ظهور الشياهم[6]

---

(١) شاعر مجيد من بيت إمارة ، ينسب الى العيون ، وهي موضع بالبحرين ، اضطهده أميرها ، فسجنه ، ثم أفرج عنه ورحل الى العراق ، ومدح أمير الموصل بدر الدين لؤلؤ ، توفي بالبحرين سنة ٦٢٩هـ . انظر : الزركلي : جـ ٥ ، ص ١٧٥ .

(٢) الزمزمة : صوت الرعد ، والصوت البعيد تسمع له دويا . وتزمزمت الابل : هدرت . انظر : اللسان : جـ ١٢ ، ص ٢٧٤ .
أزمل : الزامل من الدواب الذي كأنه يظلع في سيره من نشاطه . والأزمل : الصوت . انظر : اللسان : جـ ١١ ، ص ٣٠٩ .

(٣) ريعان الشيء أوله وأفضله . انظر اللسان : جـ ٨ ، ص ١٣٩ ، والنقع : الغبار الساطع . انظر : اللسان : جـ ٨ ، ص ٣٦٢ .

(٤) المشائم : جمع مشيمة ، تقال لما يكون فيه الولد في رحم المرأة . انظر : اللسان : جـ ١٢ ، ص ٣٣١ .

(٥) رمل عالج : لبني يحترمن طيء ويصل الى الدهناء ، وهو يحيط بأكثر أرض العرب . انظر : البكري : جـ ٣ ، ص ٦١٣ .

(٦) ديوان ابن المقرب : ص ٥١٧-٥١٨ . والشياهم : جمع شيهم ، وهو ما عظم شوكه من ذكور القنافذ . انظر : اللسان : جـ ١٢ ، ص ٣٢٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ان مما يلفت النظر في قصيدة ابن المقرب هذا النفس القوي الذي لا أثر فيه للخوف من التتر ، بل التهديد لهم وللفرنج . ويبدو أن الشاعر لم يكن على علم بفظائع التتر ، أو أنه كان يظن أن ما عند بدر الدين لؤلؤ من القوة ، كاف للوقوف في وجههم ومقارعتهم . وقد مدحه بتلبية نداء الخليفة ، عندما انتدبه للقائهم . وقد أطلق عليهم اسم الترك ثم ذكر اسم التتر ، وبيّن أن من مشهور أفعالهم هتك المحارم . وفي أبيات ابن المقرب بيان للخطرين اللذين تعرّض لهما العالم الاسلامي في القرن السابع للهجرة ، خطر المغول القادمين من الشرق ، والخطر الصليبي الذي استعاد نشاطه ، وتجددت قوته .

وفي سنة ٦٤٣ هـ وصل التتار الى ظاهر بغداد ، وخرجت عساكرها للقائهم ، وحدثت بين الفريقين مناوشات وتراشق بالسهام ، وثبت جيش بغداد أمامهم ، فانسحبوا تحت جنح الليل ، من غير أن يحدث صدام بين الجيشين .(1)

وقد هنأ الملك الناصر داود بن المعظم الخليفة المستعصم بالانتصار عليهم ، وعودتهم خائبين فقال :

تهنّ أمير المؤمنين بنصرة ... أتتك من الله القدير على قدْر
لقيت ملوك الترك إذ جاءجمعها ... تجالد دين الله بالكبر والكفر
فللت ملوكاما تسنّى لهمّة ... ملوكية قصدت عسكرها المجري
وقاتلتهم إذ قاتلوك بعزمة ... كعزم رسول الله في غزوتي بدر
وصلت عليهم صولة هاشمية ... أذاقتهم كأسا أمرّ من الصبر
فيا وقعة أحدث إلى الناس كلهم ... أماناً أعاد اليسرفي موضع العسر(2)

لقد عدّ الشاعر رجوع المغول عن بغداد ، وسلامتها من أذاهم نصرا كبيرا ، وصوّر شجاعة المستعصم الذي صال عليهم ، ولم يخش بأسهم ، وكنى عن

(1) شرح نهج البلاغة : جـ٨ ، ص ٢٤٠-٢٤١ ، وانظر : زبدة الفكر : جـ٩ ، ص٣٧ ، الحوادث الجامعة : ص١٩٩ ، ابن كثير : جـ١٣ ، ص ١٦٨ .
(2) زبدة الفكرة : جـ٩ ، ص ٣٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التتـــار بالترك[1] . وصور ما غشـــي الناس من الخوف عند قدومهم ، ثم مـــا حلّ مكانه من اليســـر والأمان ، بعد رحيلهم .

ونظم ابن أبي الحديد[2] ، قصيدة بعد هذه الوقعة مدح بها الوزيـــر ابن العلقمي ، الذي أمدّ العسكر الاسلامي بآرائه وتدبيره وأشار الى أثر تلـــك الآراء في تحقيق النصر ، مع أنه لم يحضرها ، قال :

أبقى لنا الله الوزير وحاطـــه ... بكتائب من نصره ومقانـــب[3]
وامتدّ وارف ظله لنزيلـــه ... وصفـــت متون غديره للشـــارب
يا كالىء الاسلام إذ نزلت بـــه ... فرغاء تشهق بالنجيع الســـالب[4]
في خطة بهماء ديموميـــة ... لا يهتدى فيها السُّليك للاحب[5]
لا يمتطي سلساتها مرهـــوبة (م) ... الا بساس جَلْسٍ لا تـدِرُّ لعاصب[6]

(١) كانت الفكرة عند المسلمين أن التتار من الجنس التركي . انظر : صبح الأعشى : جـ١ ، ص٣٦٦ وانظر : دائرة المعارف الاسلامية : جـ٥ ، ص٥٧٦ . مادة : تتر . ابن خلدون : م٥ ، ص١٠٦٨ .

(٢) هو عزالدين عبد الحميد بن أبي الحديد ، المعتزلي الفقيه الشاعر ، ولد سنة ٥٨٦ هـ ، وتوفي سنة ٦٥٥ هـ ، وهو معدود في أعيان الشعراء ، وله ديوان مشهور ، وتصانيف . انظر : فوات الوفيات : جـ٢ ، ص ٢٥٦ .

(٣) المقانب : جمع مِقْنَب : وهي جماعة الخيل والفرسان . انظر : اللسان : جـ١ ، ص٦٦٠ .

(٤) الطعنة الفرغاء : ذات الفرغ وهو السعة ، انظر : اللسان : جـ٨ ، ص ٤٤٥ .

(٥) السليك : هو أحد الصعاليك العرب . انظر : الاغاني : جـ٢٠ ، ص٣٤٦ .

(٦) السَلِسَة : عشبة اذا جفت تطاير منها ما يشبه السهام الصغار ، يرتد في العيون والمناخر ، وكثيرا ما يعني السائمة . انظر : اللسان : جـ٦ ، ص ١٠٧ .
الإبساس : أن يمسح ضرع الناقة بسكّها لتدرّ . انظر : اللسان : جـ٦ ، ص ٢٨ .
الجَلْس : الغليظ من الأرض ، والصخرة العظيمة الشديدة ، وناقة جلس : وثيقة الجسم . انظر : اللسان : جـ٦ ، ص ٤٠-٤١ .
العاصب : عصب الناقة اذا شدّ فخذيها أو أدنى منحريها بحبل لتدرّ . انظر : اللسان : جـ١ ، ص ٦٠٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فرّجت غمرتها بقلب ثابت ... في حملة ذِعْرى ورأيٍ ثاقب
ما غبت ذاك اليوم عن تدبيرها ... كم حاضر يَقْصُرُ بسيف الغائب
عمر الذى فتح العراق وانما ... سَعْدٌ حسامٌ في يمين الضارب (١)

إن ابن أبي الحديد لا يفصّل ما حدث في الموقعة ، ولا يسجل صورا من أحداثها ، ولكنه يلقي ظلالا تكشف الخطر الذى كان سيحل ببغداد لو دخلها المغول ، فلو قدّر لهم أن يهزموا المسلمين لكانت تلك الهزيمة كالطعنة الواسعة ، التي تفرغ ما في الجسم من الدم ، وكان حال المسلمين معهم كحال من تاه في أرض قفراء واسعة ، ليس فيها علامات يهتدى لها ، ولو كان السائر فيها من صعاليك العرب الذين ألفوا السير في المفاوز ، لما اهتدى الى سبيل بيّن ، وهي مخيفة بما فيها من الأشواك التي تتطاير منها سهام صغيرة تعمي العيون ، وبما هي عليه من الجفاف . هكذا كان حال المسلمين ، فجاء رأي الوزير ابن العلقمي وتدبيره ، فأخرجهم منها . ولئن لم يحضر المعركة بنفسه ، فإن حاله كحال عمر بن الخطاب الذى فتحت العراق برأيه وتدبيره ، وكان سعد بن أبي وقاص سيفا في يده استخدمه في ذلك الفتح !

وهنا يظهر ابن العلقمي في صورة الوزير الناصح ، على عكس حاله عند سقوط بغداد ، حيث يظهر في صورة الوزير المتآمر على الخلافة ، الساعي لهدمها .

ويظهر في قصيدتي الناصر وابن أبي الحديد فرح غامر لانتصار المسلمين ، وتراجع المغول ، وهذا يبيّن خوفهم من أن يحل بهم ما حلّ بالبلاد التي وقعت تحت سطوتهم .

---

(١) شرح نهج البلاغة : جـ٨ ، ص ٢٤٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مواكبة الشعر لأحداث الغزو المغولي
من سقوط بغداد حتى نهايته

واكب الشعر العربي الغزو المغولي منذ سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ ، حتى نهايته بغزو تيمورلنك لبلاد الشام سنة ٨٠٣ هـ. وقد كان سقوط بغداد بيد المغول باعثا لكثير من الشعراء على نظم الشعر . جاء في النجوم الزاهرة " ثم عمل الشعراء والعلماء قصائد في مراثي بغداد وأهلها "[1]. ولكن الذى وصلنا من هذا الشعر قليل[2] ، وبعض ما وصلنا ناقص قد ضاع جزء منه[3] .

لقد سجل الشاعر الشيخ تقي الدين اسماعيل بن إبراهيم بن أبي اليسر شاكر بن عبد الله التنوخي[4] ، أحداث نكبة بغداد ، في قصيدة ، قال فيها :

---

(١) النجوم الزاهرة : جـ ٧ ، ص ٥١ ، وانظر: الحوادث الجامعة: ص ٣٣٤ .

(٢) لم يقتصر الأمر في هذا على بغداد : انظر: النجوم الزاهرة: جـ٧ ،ص ١٧٠ . درة الاسلاك : جـ١ ، ص ٢٤٧ ، نهر الذهب : جـ٣ ، ص ٢١٥ .

(٣) انظر : النجوم الزاهرة : جـ٧ ، ص ٥٣ ، اليونيني : جـ٣ ، ص ٢١٥ ،الوافي بالوفيات : جـ٤ ، ص ٣٦٢ .

(٤) مسند الشام كان متميزا في كتابة الانشاء ، جيد النظم ، ولي بدمشق نظارة البيمارستان ، ومشيخة الرواية بدار الحديث الأشرفية . ولد سنة ٥٨٩ هـ ، وتوفي سنة ٦٧٢ هـ . انظر: فوات الوفيات: جـ١ ، ص ١٧٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لسائل الدمع عن بغداد إخبار ... فما وقوفك والأحباب قد ساروا
تاج الخلافة والربع الذى شرفت ... به المعالم قد عفّاه إقفار (١)

فهو يسجل ما حلّ ببغداد من البلاء الذى عفى على آثارها ، وأزال منها دولة الخلافة ، مما أثار دموعه حزنا وأسى ، ووصف ما حلّ ببغداد من سبي وهتك عرض فقال :

وكم حريم سبته الترك غاصبة ... وكان من دون ذاك الستر أستار (٢)

وقد أشار الى المغول باسم الترك ، إشارة الى الاعتقاد بانتمائهم الى الجنس التركي (٣) .

ووصف الشاعر شمس الدين الكوفي الواعظ (٤) ما حل ببغداد من البلاء ، بأسلوب غير مباشر ، فقد خاطب بغداد بقوله : يا دار ، وبيّن ما نزل بسكانها من قتل أو رحيل ، مما أدى إلى فقد الهدى وتزلزل الاسلام . وأشار الى استيطان المغول ببغداد . قال :

يا دار أين الساكنون وأين (م) ... ذيّاك البهاء وذلك الاعظام
يا دار مذ أفلت نجومك عنّنا ... والله من بعد الضياء ظلام
فلبعدهم قرب الردى ولفقدهم ... فُقد الهدى وتزلزل الاسلام
فمتى قبلت من الأعادى ساكنا ... بعد الأحبّة لاسقاك غمام (٥)

---

(١) تاريخ الاسلام : احداث سنة ٦٥٦ ، ص ٢٤٩ ، النجوم الزاهرة : جـ٧ ، ص ٥١ .

(٢) تاريخ الاسلام : احداث سنة ٦٥٦ ، ص ٢٤٩ ، تاريخ الخلفاء : ص ٤٧٣ .

(٣) انظر : الذيل على الروضتين : ص ٢٠٨ ، بيتان في الاشارة إلى هذا لأبي شامة .

(٤) هو محمد بن احمد بن عبد الهاشمي ، كان أديبا فاضلا ، عالما شاعرا ، ولّي التدريس بالمدرسة التتشية ، وخطب في جامع السلطان ، ولد سنة ٦٢٣هـ وتوفي سنة ٦٧٥هـ . انظر : فوات الوفيات : جـ٤ ، ص ١٠٢ وفيه ورد اسمه محمود في المتن وأشار المحقق في الهامش الى الصواب . وانظر : الحوادث الجامعة : ص ٣٦٠ .

(٥) فوات الوفيات : جـ٢ ، ص ٢٣٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ووصف الشاعر نفسه ما حلّ بالعباسيين في قصيدة أخرى ، فذكر تبدل حالهم ، وزوال سلطانهم ، وعزى نفسه بزوال الممالك من قبل ، فقد زال كسرى صاحب الايوان . قال :

أين الذين عهدتهم ولعزّهم ... كانت تذلّ مماقد التيجان
كانوا نجوم من اقتدى فعليهمُ ... يبكي الهدى وشعائر الايمان
قالت غدوا لما تبدد شملهم ... وتبدلوا من عزهم بهوان
كم الفصاد يراق أرذل موضع ... أبداً ويخرج من أعزّ مكان
أفنتهم غِيَرُ الحوادث مثلما ... أفنت قديما صاحب الايوان (١)

لم يذكر الشاعر الحدث التاريخي بصورة مباشرة ، وانما تحدث عن آثاره في الاسلام والمسلمين . وقد بيّن عموم آثار نكبة بغداد ، وشمولها للناس جميعا ، في قصيدة ثالثة فقال :

يا نكبة ما نجا من صرفها أحد ... من الورى فاستوى المملوك والملك
تمكنت بعد عزّ في أحبتنا ... أيدى الأعادى فما أبقوا ولا تركوا
ربع الهدايا أضحى بعدَ بُعْدِهِمُ ... مَحَلا ودار الإسلام منسفك
أين الذين على كل الورى حكموا ... أين الذين اقتنوا أين الألى ملكوا
وقفت من بعدهم في الدار أسألها ... عنهم وعمّا حووا فيها وما ملكوا
أجابني الطلل البالي ، وربعهم الخالي ، نعم هاهنا كانوا وقد هلكوا (٢)

فبغداد بعد سقوطها في يد المغول ، وتحكمهم في أهلها ، وزوال سلطان المسلمين عنها ، صارت طللا باليا ، وربعا خاليا ، هلك أهله بعد عزّ وتمكين .

---

(١) فوات الوفيات : جـ٢ ، ص ٢٣٤ .

(٢) الحوادث الجامعة : ص : ٣٣٤-٣٣٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وشارك في تسجيل نكبة بغداد الشاعر الفارسي المسلم سعدي الشيرازي[1]، بقصيدة طويلة ، منها قوله :

نسيم صبا بغداد بعد خرابها ... تمنيت لو كانت تمر على قبري
... بكت جدر المستنصرية ندبة ... على العلماء الراسخين ذوي الحجر
... وقفت بعباد ان أرقب دجلة ... كمثل دم قان يسيل الى البحر[2]

لم يطق الشاعر سماع أخبار هذه النكبة ، فتمنى لو مات قبل وقوعها وقد وصف بعض ما نتج عنها من الخراب ، فقد خلت المدرسة المستنصرية من العلماء ، وبكت جدرانها حزنا لفراقهم ، واصطبغ ماء دجلة بدماء القتلى وعبّر الشاعر عن حزنه لزوال ملك الخليفة المستعصم ، وغياب اسمه عن الذكر فوق المنابر فقال :

أيذكر في أعلى المنابر خطبة ... ومستعصم بالله لم يك في الذكر[3]

وبعد واقعة بغداد ، كانت احتلال حلب سنة ٦٥٨هـ . وقد سجل هذا الحدث الصاحب كمال الدين بن العديم[4] ، في قصيدة لم يبق لنا منها سوى أبيات قليلة[5] ، وفي هذه الأبيات الباقية منها ، يعزّي ابن العديم نفسه عما حلّ بحلب بذكر ما أنزله الدهر بالدول السابقة من فرس وروم وغيرهم . ثم يقول :

(١) ولد في أوائل القرن السابع للهجرة ، في أسرة علم ، تفقه بالنظامية ، وعين فيها معيدا . أنفق أواخر حياته في الوعظ . توفي سنة ٦٩٤هـ . انظر : حسين محفوظ : ص٥-٧

(٢) حسين محفوظ : ص ٧٣ .

(٣) المصدر نفسه : ص ٧٤ .

(٤) ولد سنة ٥٨٦هـ ، وتوفي سنة ٦٦٦هـ . كان محدثا حافظا ، مؤرخا ، فقيها ، منشئا كاتبا . درس وأفتى وصنّف . انظر : فوات الوفيات : جـ٣ ، ص ١٢٦ .

(٥) ذكر ابو الفداء انها طويلة : جـ٣ ، ص٢١٥ ، وبيّن محمد راغب الطباخ انه بحث عنها فلم يجد أكثر مما أورده ابو الفداء : إعلام النبلاء : جـ٢ ، ص ٣١٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن حلب ما شئت قل من عجائب أحلّ بها يا صاح إن كنت تعلم[1]

ويصف ما حلّ بها من الدمار والخراب فيقول :

فيا لك من يوم شديد لُغامه[2] وقد أصبحت فيه المساجد تهدم
وقد درست تلك المدارس وارتمت مصاحفها فوق الثرى وهي ضخّم[3]

وفي السنة التي سقطت فيها حلب بيد المغول ، ٦٥٨ هـ ، وقعت معركة عين جالوت ، التي انتصر فيها المسلمون عليهم ، وكان لهذه الموقعة أثر عظيم في نفوسهم ، وتضاعف شكرهم " لله تعالى على هذا النصر العظيم ، فإن القلوب كانت قد يئست من النصرة على التتر ، لاستيلائهم على معظم بلاد الإسلام ، ولأنهم ما قصدوا إقليما الا فتحوه ، ولا عسكرا الاّ هزموه ، فابتهجت الرعايا بالنصرة عليهم[4] " .

ولم يصلنا من الشعر الذي قيل فيها الا القليل . وربما كان للنهاية المفجعة التي آل اليها بطل تلك المعركة ، الملك المظفر قطز ، بالموت قتيلا بيد رفيق سلاحه ، الظاهر بيبرس[5] ، أثر في صمت الشعراء ، أو إخفائهم ما أعدوا من المديح الذي يأتي في سياقه الحديث عن المعركة وآثارها . واكثر ما وصلنا في ذكرها ، قيل في مدح ملك حماة الأيوبي ، المنصور الثاني[6] ، الذي خاض غمارها ،

---

(١) ابو الفداء : جـ٣ ، ص ٢١٥ .

(٢) اللغام : للانسان اللعاب ، وللإبل زبد الأفواه . انظر : اللسان : جـ١٢ ، ص ٥٤٥ .

(٣) ابو الفداء : جـ٣ ، ص ٢١٥ .

(٤) المصدر نفسه : جـ٣ ، ص ٢٠٥ .

(٥) انظر : مقتل قطز في : ابن كثير : جـ١٣ ، ص ٢٢٢ ، المقريزي : جـ١ ، ق٢ ، ص٤٣٤-٤٣٥

(٦) تملك حماة سنة ٦٤٢ هـ وعمره عشر سنوات ، وتوفي سنة ٦٨٣ ، وكان المشير في دولته شرف الدين الانصاري . انظر : اليونيني : جـ٤ ، ص ٢٣٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن ذلك قول شرف الدين الأنصاري[1] في مدحه :

بحين جالوت خضت بحر وغـــى ... يُخال فلكا بالأسد مشـــحونا
وكنت للجيش غرة شـــد خت ... أنوفهم ، فانثنوا مهانينـــا[2]

وفي هذا إشارة الى حول المعركة ، وذلك بتشبيهها بالبحر ، وبالسفينة المشحونة بالأسد ، كما فيه اشارة الى نتيجة المعركة بانتصار المسلمين ، وإهانة المغول بهزيمتهم ، بعد طول استعلاء على المسلمين .

وقال جمال الدين بن مصعب[3] في هذه الموقعة واصفا :

إن يوم الحمراء يوم عجيـــب ... فيه ولّى جيش الطغاة البغـــاة
دار كأس المنون لما مزجنـــا ... عينَ جالوت بالدما للســـقاة
يا لهـــا جمعة غدا الكفر فيها ... سجداً للسيوف لا للصـــلاة[4]

لقد تفنن الشاعر في الحديث عن المعركة ، فهي يوم الحمراء ، لكثـــرة ما سال فيها من الدماء ، وهو يوم عجيب ، وبعث العجب هو أن التتار هزمـــوا وولوا الأدبار ، ولم يعتد المسلمون رؤيتهم على هذه الحال . وينتقل الشـــاعـــر بنا فإذا به يصور المعركة مجلس شرب تدور فيه الكؤوس ، ولكنها ليست كؤوس خمـــر ، بل كؤوس ماء من عين جالوت مزجت بدماء التتار . ثم يلتفت الشاعر الى اليـــوم الذي وقعت فيه المعركة ، وهو يوم الجمعة ، فيورد صورة مستمدة منه ، فيصـــور الكفر وقد أصبح مسجدا ! ولكن أي مسجد ؟ لقد أصبح مسجدا للسيوف التـــي أعملت في رقاب أهله ، لا للصلاة ، فهو ليس أهلا لها !!

(١) عبد العزيز بن محمد ، الامام العلامة الاديب ، شيخ الشيوخ ، ولد بدمشق سنة ٥٨٦هـ ، وتوفي سنة ٦٦٢ ، كانت له مكانة في دولة الملك المنصور الثاني صاحب حماة . انظر: فوات الوفيات : جـ٢ ، ص ٣٥٤ .
(٢) ديوان الصاحب شرف الدين : ص ٤٧٤ .
(٣) لم أعثر على ترجمة له .
(٤) عقد الجمان : م ٥٤ ، ص ٤٣٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد بقي ذكر عين جالوت يتردد على ألسنة الشعراء ، ولم ينسهم إيّاها ما تحقق لهم من الانتصارات من بعد . مما يدل على ما كانوا يحسون به من عظمتها وعمق أثرها . وقد ذكرها القاضي ناصر الدين بن العسقلاني[1] في سياق ذكره للمواقع التي خاضها ممدوحه قلاوون ، وذلك عقب موقعة حمص سنة ٦٨٠ هـ . فقال مخاطبا المغول :

أأنسيتم في عين جالوت ما جرى وفي العين قد أجرى دماءكم نهرا[2] !

وفي سنة ٦٧١ هـ ، وردت الى الظاهر بيبرس معلومات تفيد بنزول التتار على البيرة[3] ، ونصبهم المجانيق عليها ، فجهز جيشه وتوجه للقائهم . ووصل الى الفرات فوجدهم على الشط ، فخاض النهر بجيشه ، والتقوا بهم في الماء ، " فكان لقعقعة السلاح وأمواج الماء هول مفزع "[4] ، ولحق المسلمون بهم ، فقتلوا وأسروا ، وفي ذلك يقول أحد الشعراء :

---

(١) ورد اسمه في زبدة الفكر : جـ٩ ، ص١٦٢ : القاضي ناصر الدين حسن بن العسقلاني . والمشهور بهذه الصفة هو : شافع بن علي بن عباس الكناني العسقلاني وليس في اسمه حسن ، ولعل المؤلف قد وهم ، أو أخطأ الناسخ . وجاء في ترجمته : أنه ولد سنة ٦٤٩ هـ ، وتوفي سنة ٧٣٠ هـ ، باشر الانشاء بمصر الى ان أضرّ ، لأنه أصابه سهم في موقعة حمص ، سنة ٦٨٠ في صدغه فعمي . له نظم كثير ، ونثر كبير . وله ديوان شعر ومؤلفات . انظر : نكت الهميان ص١٦٣ ، فوات الوفيات : جـ١ ، ص٣٧٦ ، الدرر الكامنة : جـ٢ ، ص٢٨١ . وفيه جـ٢ ، ص١٠٠ ، الحسن ابن عبد الرزاق العسقلاني ، ابو محمد . ولكن ليس في ترجمته أنه كاتب أو شاعر .

(٢) زبدة الفكرة : جـ٩ ، ص١٦٢ .

(٣) البيرة : بلدة على الفرات قرب سميساط من ثغور الروم ، ذات قلعة : انظر : المشترك : ص٧٥ .

(٤) المقريزي : جـ١ ، ق٢ ، ص٦٠٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عام الفرات إليهم بصواهـــل ومناصل وعواسل ســـمراء (١)
فانفل جمعهم وولى هاربـــا قد حاطهم ويل وفرط بـــلاء
وغدت سيوف المسلمين خضيبة عند اللقا من هامهـم بدماء
لله يوم بالفرات رأيتـــه قد مرّ في ظفر ونصر لـــواء (٢)

لقد أثار منظر الظاهر بيبرس وهو يخوض الفرات بجيشه هذا الشاعر فركّـز تصويره عليه ، ليبيّن مقدار قوة الجيش وقائده ، وأنه لا يخاف الصحاب ، ولا تقف أمامه العقبات .

وقال شهاب الدين محمود (٣) ، في المعنى نفسه يمدح الظاهر بيبرس:

خضت الفرات بسابح أقصى منى هوج الصبا من نعله الآثـــار
حملتك أمواج الفرات ومـــن رأى بحرا سواك تقله الأنهـــار ؟ (٤)

وقال ناصر الدين حسن بن النقيب (٥) ، يصف كثافة جيش المسلمين ، الـذي خاض النهر ، فأوقفه عن الجريان ! :

---

(١) المناصل جمع منصل وهو: السيف . انظر: اللسان: جـ١١ ، ص ٦٦٥ .
والعواسل جمع عاسل وهو الرمح اللدن . انظر: اللسان: جـ١١ ، ص ٤٤٦ .

(٢) زبدة الفكرة : جـ٩ ، ص ١٢٦ .

(٣) محمود بن سلمان بن فهد الحلبي ، ولد سنة ٦٤٤هـ . عيّن لقضاء الحنابلة ، وبرع في النظم والإنشاء والكتابة ، توفي سنة ٧٠٢هـ . انظر: الدرر الكامنة: جـ٥ ، ص ٩٢ .

(٤) اليونيني : جـ٣ ، ص ٣-٤ ، الغيث المسجم : جـ٢ ، ص ٧٠ .

(٥) الحسن بن شاور الكناني ، المعروف بالفقيسي ، قال ابو حيان الاندلسي في شعره انه حسن ، وله ديوان مقاطيع ، في مجلدين ، توفي سنة ٦٨٧هـ . انظر: فوات الوفيات : جـ٢ ، ص ٣٢٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولما ترامينا الفرات بخيلنـــا سَكَرناه منا بالقنا والقـــوادم
فأوقفت التيار عن جريانـــه إلى حيث عدنا بالغنى والغنائم (١)

وقال موفق الدين عبد الله بن عمر (٢)، مبينا فضل ما فعله الظاهر بيبـــرس بالتتار في هذه الوقعة ، فقد شفى صدور المسلمين :

الملك الظاهر ســـلطاننا نفديه بالأموال والأهـــل
اقتحم الماء ليطفي بـــه حرارة القلب من المُغْـــل (٣)

ويظهر في قول هذا الشاعر حرارة الصدق ، وذلك بتفدية الظاهر بالأموال والأهل ، وهذا يكشف عن اعتراف المسلمين بالجميل للظاهر وجيشه .

وقد حضر قلاوون هذه الموقعة وكان في طليعة من خاض النهر الى التتار (٤). فسجل له ذلك القاضي ناصر الدين بن المسقلاني في مدحه له بعد الانتصـــار في معركة حمص سنة ٦٨٠ هـ ، وفي مجال تعداد فضائله ، قال مخاطبا التتار:

أما كان في عوم الفرات إليكـــم مقدمة الجيش الذى عبر البحـــرا (٥)

وسجل له هذه المبادرة ، أحد الشعراء الذين رثوه ، فقال :

أنت الذى خضت الفرات مبادراً فسقيت جيش المُغْل كاسات الفنا (٦)

---

(١) اليونيني : جـ٣ ، ص ٤ ، فوات الوفيات : جـ١ ، ص ٢٣٩ .
(٢) الأنصارى ، أديب فاضل ، مقتدر على النظم ، وله مشاركة في الطب والكحل وغيرها ، أقام بالشام ومصر ، ومات بالقاهرة سنة ٦٧٧ هـ وشعره كثير جدا . انظـــر : اليونيني : جـ٣ ، ص ٣٢١ .
(٣) اليونيني : جـ٣ ، ص٤ ، الغيث المسجم : جـ٢ ، ص ٧٠ .
(٤) انظر: ابن كثير: جـ١٣ ، ص ٢٦٣ .
(٥) زبدة الفكرة : جـ٩ ، ص ١٦٣ .
(٦) المصدر نفسه : جـ٩ ، ص ١٦٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي سنة ٦٧٥ هـ ، توجه السلطان الظاهر بيبرس الى بلاد سلاجقة الروم ، ووصل الى البلستين (١) ، فوجد فيها جيشا من التتار والكرج والروم ، ووقعت بين جيشه وبينهم معركة كان النصر فيها حليف المسلمين (٢) . قال شهاب الدين محمود في وصف كتائب المسلمين التي شاركت في المعركة :

سَرَتْ من حمى مصر إلى الروم فاحتوت عليه وسوراه الظبا واللهاذم (٣)

وقال :

ولما رمى الروم المنيخ بخيله ومن دونه سد من الصخر عاصم
غدا وهو من وقع السنابك داثر تطاه فتستوطي ثراه المناسم (٤)

ووصف ما حلّ بزعماء الحلف المعادي فقال :

فكم حاكم منهم على ألف دارع غدا حاسرا والرمح في فيه حاكم
وكم ملك منهم رأى وهو موثق خزائن ما يحويه وهي غنائم (٥)

وذكر هذه الموقعة ناصر الدين بن الحلبي ، وكشف عن تحالف سلاجقة الروم مع المغول فقال :

ونحن جلبنا الخيل في كل غارة إلى مغلها والروم فسأل تخبّر (٦)

---

(١) مدينة مشهورة ببلاد الروم قريبة من أبسس مدينة اصحاب الكهف . انظر : ياقوت : جـ١ ، ص ٧٥ .

(٢) انظر : ابن كثير : جـ١٣ ، ص ٢٧١ .

(٣) اليونيني : جـ٣ ، ص ١٧٨ ، النجوم الزاهرة : جـ٧ ، ص ١٧٠ .

(٤) المصدر نفسه : جـ٣ ، ص ١٧٨ .

(٥) المصدر نفسه : جـ١ ، ص ١٨٠ ، النجوم الزاهرة : جـ٧ ، ص ١٧٢ .

(٦) زبدة الفكرة : جـ٩ ، ص ١٣٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وذكرها القاضي ناصر الدين بن المسقلاني في سياق الحديث عن وقائع قلاوون مع التتار فقال يخاطبهم :

أما كان في يوم البُلُسْتَيْن ثاوياً وأعينكم ترنو إلى نحوه شزراً[1]

وفي سنة ٦٨٠ هـ ، أغار المغول على بلاد الشام ، وانتصر عليهم جيش المسلمين بقيادة قلاوون ، بالقرب من مشهد خالد بن الوليد عند حمص[2] ، وقد سجل القاضي فتح الدين بن عبد الظاهر أحداث هذه المعركة ، في قصيدة له ، وصفها الصفدي[3] بقوله " شعر يقارب الجودة ، إلاّ أنها حكاية واقع الحال "[4] قال فيها :

لما بغى جيش أبغا في تجاسره ولم يمدّ له الاّ القنا جسرَ
وأجمع المغل والتّكفور واتفقوا مع الفرنج ومن أردى به الكفر
جاءت ثمانون ألفا من بعوثهم لأرض حمصَ وكان البعث والنشر
جاء الخميسان في يوم الخميس ضحى وامتدت الحرب حتى أذن العصر
... وكان يوم الخميس النصف من رجب عام الثمانينَ هذا الفتح والنصر[5]

لقد سجل الشاعر اسم ملك المغول ، أبغا[6] ، وذكر احلافهم ، وعددهم ، ويوم حدوث المعركة والمدة التي استغرقتها ، وسنة وقوعها .

(١) زبدة الفكرة : جـ٩ ، ص ١٦٣ .
(٢) انظر : ابن كثير جـ١٣ ، ص ٢٩٥ ، المقريزي : جـ١ ، ق٣ ، ص: ٦٩٣ .
(٣) صلاح الدين خليل بن ايبك الصفدي ، ولد بصفد سنة ٦٩٦ هـ أو ٦٩٧ هـ ، سمع الكثير ، وقرأ الحديث ، وتلقى العلم عن شيوخ عصره ، جمع وصنف ، وتولى كتابة الانشاء بمصر ودمشق . انظر: شذرات الذهب: جـ٦ ، ص ٢٠٠ .
(٤) الوافي بالوفيات : جـ٣ ، ص ٣٦٨ .
(٥) المصدر نفسه : جـ٣ ، ص ٣٦٨ .
(٦) أبغا : بن هولاكو خان ، حكم بعد والده ثمانية عشر عاما ، مات حزنا لما وقع لجيشه في حمص سنة ٦٨٠ هـ . انظر: ابن كثير : جـ١٣ ، ص ٢٩٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقال بدر الدين محمد المنبجي البزاز[1] ، من قصيدة له ، في وقعة حمص ، وقد ذكر يوم الموقعة ومكانها :

حتى أتى يوم الخميس خميسهم ... وكأنه تحت الغمام غمام
... غادرتهم في أرض حمص وخيلهم ... لوحوش أرضك والطيور طعام[2]

وقال القاضي محي الدين بن عبد الظاهر[3] يذكر موقف قلاوون قائد المسلمين في المعركة ، ويشير إلى وقوعها قرب مشهد خالد بن الوليد ، وما اعتقده من تأثير ذلك في تنزل النصر :

لله في حمص مقاما قامه ... والنار من بين الأسنة توهج
والناس قد فروا فلا مترتب ... والناس قد هربوا فليس مُعرّج
وهناك خالد قد أجار نزيله ... ونزيل خالد ليس ممّن يزعج
فثنى العنان وما انثنى حتى بدا ... للدين من أمر الأعادي مخرج[4]

وكانت هذه المعركة من مفاخر قلاوون التي عددها القاضي محي الدين في رثائه له ، قال :

---

(١) محمد بن عمر بن أحمد بن عمر المثنى المنبجي ، بدر الدين الشاعر ، ولد قبل سنة ٦٥٠هـ . وتعاني الأدب ، مات بمصر سنة ٧٢٣ . انظر : الدرر الكامنة : جـ٤ ، ص ٢٢٠ .

(٢) زبدة الفكرة : جـ٩ ، ص ١٦٤ .

(٣) عبد الله بن عبد الظاهر ، الكاتب الناظم الناثر ، شيخ أهل الترسل ، سلك الطريقة الفاضلية في إنشائه ، وكتب للملك الظاهر بيبرس ، وللمنصور قلاوون ، وتوفي في القاهرة سنة ٦٩٢هـ . انظر : فوات الوفيات : جـ٢ ، ص ١٧٩ .

(٤) زبدة الفكرة : جـ٩ ، ص ١٦١-١٦٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أين من شرد التتار بحمص فإلى اليوم جيشهم مكسور[1] ؟

وفي سنة ٦٩٤ هـ ، غزا ملك المغول غازان محمود[2] بلاد الشام ، "وحصل على أهل دمشق الذل والهوان وطال ذلك عليهم"[3] ، فقد طولبوا بأموال كثيرة ، وعاث المغول وأحلافهم فيها فسادا ، وعرفت هذه الغزوة ، "بنوبة غازان" . قال الكمال ماجد الشافعي[4] يذكر هزيمة جيش المسلمين فيها ، وما في جيش المغول من الأحلاف ، من مغول وكرج[5] وأرمن[6] :

أقم عذر جيش طالما قتل العدى بدا رهم قهرا وكم غارة شنّوا
اذا ولّوا الأدبار من كل كافر كريمة بعض قد حكى وجهه سنّوا ؟
أتى جيشهم بالمغل والكُرج عصبة وأصحابُ سيس فيه والجنُّ والبِنُّ[7]

---

(١) تشريف الأيام : ص ١٨٢ .

(٢) ويقال له قازان ، من ذرية هولاكو ، تولى الحكم سنة ٦٩٣هـ ، أسلم بعد ذلك بسنة ، ففشا الاسلام في التتر ، وهو صاحب الوقعات مع الملك الناصر بن قلاوون . توفي سنة ٧٠٣ هـ . انظر : النجوم الزاهرة : جـ٨ ، ص ٢١٢ .

(٣) النجوم الزاهرة : جـ٨ ، ص ١٢٦ .

(٤) لم اعثر على ترجمة له .

(٥) الكرج : جيل من النصارى ، كانوا يسكنون في جبال القبق وبلاد السرير ، ثم قويت شوكتهم ، وملكوا مدينة تفليس ، ولهم ولاية تنسب إليهم ، وملك ولغة ، وشوكة وكثرة عدد . انظر: ياقوت : جـ٤ ، ص ٤٤٦ ، وانظر: صبح الأعشى : جـ١ ، ص ٣٦٩ .

(٦) هم أهل أرمينية ، الذين بقاياهم ببلاد سيس ، انظر: صبح الأعشى : جـ١ ، ص ٣٧٠ .

(٧) كنز الدرر : جـ٩ ، ص ٣٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويبدو أن اسمي الحن والبن[1] ، قد لفتا أنظار الشعراء ، قال شمس الدين ابن البيساني[2] في سياق حديثه عن جيش غازان ، الذي كان كالرمل عددا ، وما أصاب أهل دمشق منه :

أتى الشام جيش كالرمال عرمرم ... فلم يبق أرض من نواحيه ما جَنّا
ولازم قوما في دمشق بسببه ... ونهب وقتل ثم أموالنا جَنّا
وقد رجعوا تلك الطموم وخلفوا ... بقاياهم : بولاي والحن والبنا[3]

وقال ابن قاضي شهبة[4] معدّدا ما ناب أهل دمشق من المصائب التي بلغ عددها سبعا ، أقبلت مع جيش المغول :

رمتنا صروف الدهر منها بسبعة ... فما أحد منا من السبع سالمُ
غلاء وغازان وغزو وغارة ... وغدر واغبان وغمٌّ ملازم[5]

ويظهر في هذين البيتين شدة تعلق الشاعر بالصنعة اللفظية ، حيث حرص على اختيار الكلمات التي تحوي حرف الغين في البيت الثاني .

---

(١) هما ولدا الشيخ علي الحريري ، كانا فيمن تولى جمع المال من أهل دمشق انظر: النجوم الزاهرة : جـ٨ ، ص ١٢٦ .

(٢) لم أعثر على ترجمة له .

(٣) كنز الدرر : جـ٩ ، ص ٣٠ .

(٤) هو عبد الوهاب بن محمد الأسدي ، ولد سنة ٦٥٣ ، سمع من علماء عصره ، وتفقه ، ودرس الحريمية ، وفاق أقرانه ، وانتفع به الناس . مات سنة ٧٢٦ . انظر : الدرر الكامنة : جـ٣ ، ص ٤٤ .

(٥) المقريزي : جـ١ ، ق٣ ، ص ٨٩٤ ، النجوم الزاهرة : جـ٨ ، ص ١٢٦ ، وفي كنز الدرر : جـ٩ ، ص ٣١ : نسبت لابن قاضي صرخد .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وجاء مع غازان شيخ عجمي هو شيخ الشيوخ نظام الدين ، محمود بن علي الشبياني[1] ، " ولم يكن فيه من أخلاق المشايخ ما يمدح به ، بل أخذ نحو الثلاثين ألف دينار برطيلا[2] " ، وقال فيه علاء الدين الوادعي[3] :

شيخ غازان ما خلا ... أحد من تجرده
وغدا الكل لابسي ... خرقة الفقر من يده[4]

وقد صوّره في صورة شيخ صوفي يسعى الى تزهيد الناس في الأموال وتجريدهم منها ، لتؤول إلى خزائن غازان ! قال :

أتى الشام مع غازان شيخ مُسلّك ... على يده تاب الورى وتزهدوا !!
فخلّوا عن الاموال والأهل جملة ... فما منهم إلاّ فقير مجرّد !![5]

وقد صمدت قلعة دمشق ولم تستسلم للمغول ، وسجل صلاح الدين الصفدي هذا الموقف في أرجوزة تاريخية له ، ضمنها أخبار أمراء دمشق ، قال :

وجاءها غازان بالمغول ... وأكلَ الأموال مثل الغول
وخطبوا له على المنابرْ ... ولم يجد في نصحه مثابرْ
ولم يفز بالقلعة المصورةْ ... لأنها من صورة منصورةْ

---

(١) لم أعثر على ترجمة له .

(٢) المقريزي : جـ١ ، ق٣ ، ص ٨٩١ .

(٣) علي بن المظفر ، الاديب البارع ، المقرئ المحدث ، الكاتب المنشئ ، علاء الدين الكندي ، المعروف بالوادعي ، ولد سنة ٦٤٠ هـ تقريبا ، وتوفي سنة ٧١٠ هـ ، كان شيعيا ، وولي مشيخة المدرسة النفيسية . انظر : فوات الوفيات : جـ٣ ، ص ٦٨ .

(٤) المقريزي : جـ١ ، ق٣ ، ص ٨٩١ .

(٥) النجوم الزاهرة : جـ٨ ، ص ١٢٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأبصر الناس بها شدائدا ... كادوا يكونون بها حصانا
وصار فيها نائبا للقان ... قبجق إذ صارت بغير قان
فساسها وكفّ عنها المُفْسِلا ... وشرّهم في البرد زيت يُغلى ! (١)

وكان شيخ الاسلام ابن تيمية (٢) يحرض أهل القلعة على الصمود ، وأرسل إلى قائدها أرجواش (٣) يحضه على الثبات ولو لم يبق في القلعة الاّ حجر واحد (٤) .

وفي سنة ٧٠٢ هـ ، غزا المغول بلاد الشام (٥) ، وكان قائدهم في هذه الغزوة قطلوشاه (٦) ، الذي ناب عن غازان في قيادة الجيش ، والتقى بهم جيش المماليك بالقرب من دمشق ، في مرج الصفر (٧) ، وكان النصر حليف المسلمين . قال شمس الدين الطيبي (٨) يذكر الوقعة ويخاطب المرج الذي كانت فيه :

---

(١) أمراء دمشق : ص ١٥٨ .

(٢) أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ، الامام العلامة ، الفقيه المفسر ، الحافظ المحدث من أسرة عرفت بالعلم . صنف وبلغت مؤلفاته ثلاثمائة مجلد . وكان قوالا للحق ، ناهيا عن المنكر . ولد بحران سنة ٦٦٧ هـ ، وتوفي سجينا بقلعة دمشق سنة ٧٢٨ هـ . انظر : فوات الوفيات : جـ١ ، ص ٧٤ .

(٣) من مماليك المنصور قلاوون ، ولي نيابة قلعة دمشق ، وكان له في حصار غازان اليد البيضاء وحفظ القلعة . توفي سنة ٧٠١ هـ . انظر : الدرر الكامنة : جـ١ ، ص ٣٧١ .

(٤) ابن كثير : جـ١٤ ، ص ٧-٨ .

(٥) انظر : ابن كثير : جـ١٤ ، ص ٢٢ ، المقريزي : جـ١ ، ق ٣ ، ص ٩٣٠ .

(٦) من كبار قادة المغول قتل سنة ٧٠٧ . انظر : الدرر الكامنة : جـ٧ ، ص ٣٣٩ .

(٧) انظر : مراصد الاطلاع : جـ٣ ، ص ١٢٥٤ .

(٨) أحمد بن يعقوب ، كاتب الانشاء بطرابلس ، تعاني الأدب ، ففاق في النظم والنثر . مات بطرابلس سنة ٧١٧ . انظر : الدرر الكامنة : جـ١ ، ص ٣٦٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يا مرج صُفّرَ بيضت الوجوه كما ... فعلت من قبلُ بالاسلام يُوءتَنَفُ
أزهرُ روضك أزهى عند نفحته ... أم يانمات روءوس فيك تقتطف ؟
دارت عليهم من الشجعان دائرة ... فما نجا سالم منهم وقد زحفوا (١)

والشاعر هنا يربط بين الحاضر والماضي ، فقد انتصر على المسلمون في مرج الصفر من قبل سنة ١٤ هـ (٢) ، عند انطلاق جيوش الفتح الاسلامي .

وقال محمد المنبجي مبينا ما كان للمعركة من أثر على الاسلام والمسلمين يجعلها من المعارك الخالدة التي يتردد صداها في مختلف العصور :

يا وقعة المرج ، مرج الصفر افتخرت ... بك الوقائع في الآفاق والعصر
رفعت بالنصر أعلام الهدى ولقد ... جرّدت للشرك كسراً ليس ينجبر (٣)

وقال علاء الدين الوداعي مسجلا انتصار المسلمين في هذه المعركة ، ومخاطبا ملك المغول غازان :

قولوا لغازان بأن جيوشه ... جاءوا ففرجناهم بالشام
في سرحة المرج التي هاماتهم ... منثورها وشقائق الاجسام
ما كان أشأمها عليهم فرجةً ... عمّت وأبركها على الإسلام (٤)

وفي سنة ٧١٢ هـ ، حاصر التتار بقيادة ملكهم خدبندا مدينة الرحبة ، عشرين يوما ، وقاتلهم نائبها ، ثم أشار وزير خدبندا رشيد الدولة فضل الله الهمذاني (٥) ، برأي كان فيه فك الحصار ، وهو أن يقدم أهلها هدية للسلطان

---

(١) الوافي بالوفيات : جـ٤ ، ص ٣٦٢ .
(٢) انظر: البلاذري : ص ١٢٥ .
(٣) كنز الدرر : جـ٦ ، ص ٦٢ .
(٤) الوافي بالوفيات : جـ٤ ، ص ٣٦٢ .
(٥) وزير التتار ومدبر دولتهم . اشتغل بالطب والمنطق والفلسفة ، كان أبوه يهوديا فأسلم ، عمل مع غازان ثم خدبندا ، واتهم بقتله ، قتل سنة ٧١٠ . انظر: من ذيول العبر : ص ٦٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المغولي ، ويطلبوا العفو منه . فكان ذلك منهم ، ورجع إلى بلاده[1] ، وفي هذه الأثناء كان الملك الناصر يتهيأ للسفر الى الرحبة ورد المغول عنها . فقال علاء الدين الوداعي يذكر ذلك :

ما فرّ خَرْبندا عن الرحبة م العظمى الى أوطانه شوقا
بل خاف من مالكها أنّه يُلبسه من سيفه طوقا[2]

وقال شهاب الدين محمود في هذه الحادثة :

وفي الرحبة الغراء أيّة آية بها لأنوف الكفر أعظم إرغام[3]

- وعندما تعرضت بلاد الشام لغزو تيمورلنك ، سنة ٨٠٣ هـ ، واحتل حلب[4] ، كتب شاعر من أهلها قصيدة وصف ما حلّ بها من الخراب فقال :

يا عين جودي بدمع منك منسكب طول الزمان على ما حلّ في حلب
... ويلاه ويلاه يا شهباء عليك وقد كسوتني ثوب حزن غير منسلب
واصبح المغل حطاما عليك ولم يرعوا لجار ولا ذي القربى ولا الجنب
وفرقوا أهلك السادات وانتشروا في كل قطر من الاقطار بالهرب[5]

وسجل علاء الدين الغزولي ، ما حلّ بدمشق من البلاء على يد المغول في السنة نفسها فقال :

---

(١) ابن كثير : جـ١٤ ، ص ٦٦ .
(٢) الدرر الكامنة : جـ٣ ، ص ٤٦٦ .
(٣) درة الاسلاك : جـ١ ، ص ٣٠١ .
(٤) انظر: المقريزي : جـ٣ ، ق٣ ، ص ١٠٣١ ، النجوم الزاهرة : جـ١٢ ، ص ٢٢٢ .
(٥) نهر الذهب : جـ٣ ، ص ٢١٥-٢١٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واحسرتاه على دمشق وقولهم ... سبحان من بالمغل قد أبلاني
عاداني الدهر الخؤون بمغله ... والعُجْم منه وقبلَهم غازاني (١)

وفي هذا إشارة إلى ما حلّ بدمشق من النكبات على يد المغول ابتداء من هولاكو ، ثم غازان ، وأخيرا تيمورلنك .

* * *

وهكذا ، فإن الشعر العربي ، قد واكب أحداث الغزو المغولي ، فسجل ما كان من المغول من تدمير وتخريب ، وبخاصة بعد سقوط بغداد ، وسجل وقائعهم مع المسلمين ، بحيث اعتمده مؤرخو هذه الحقبة من تاريخ المسلمين ، وثيقة من وثائق التاريخ فأوردوه جنبا إلى جنب مع أخبار الوقائع ورواياتها (٢) .

---

(١) مطالع البدور : جـ٢ ، ص ٣٠١ .

(٢) انظر : الحوادث الجامعة : ص ٣٢٠ ، ٣٣٤ ، زبدة الفكرة : جـ٩ ، ص ١٦١ ، ١٦٢-١٦٥ ، كنز الدرر : جـ٩ ، ص ٨٦-١٠٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصـــــــل الثانـــــــي

دور الشعر

فـــي مقاومـــــة الغـــزو المغولـــــي

* تصوير طبيعة الصراع مع المغول
* الدعوة الى الجهـــاد
* الدعوة إلى ضرب أحلاف المغول
* تصويـــر الانتصـــارات
* مدح القـــادة المسلميـــن

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(١) تصوير الشعر لطبيعة الصراع مع المغول

يتجلى الصراع بين المسلمين والمغول في الشعر ، في صورة جهاد ديني بين الايمان والكفر ، والتوحيد والشرك . فعندما قصد المغول العراق سنة ٦٤٣ هـ ، وخرجت عساكر بغداد للقائهم ، وانتهى أمرهم بالانسحاب عن بغداد ، قال الناصر بن الممظم في مدح المستعصم:

لقيت ملوك الترك إذ جاء جمعها تجالد دين الله بالكبر والكفر (١)

فالمغول الذين سماهم الناصر بالترك ، جاءوا يحاربون دين الله ، وسلاحهم في ذلك الكبر والكفر .

وعندما سقطت بغداد سنة ٦٥٦ هـ ، قال أبو شامة ، في سياق تعداد ما أصاب المسلمين في ذلك العهد من المحن :

ثم أخذ التتار بغداد في أوّل عام من بعد ذاك بعام
لم يعن أهلها وللكفر أعوان عليهم يا ضيعة الاسلام (٢)

لقد تعاون الكفار على أخذ بغداد ، وتخلّى المسلمون عن أهلها ، فلم يمدوا لهم يد العون .

---

(١) زبدة الفكرة : جـ٩ ، ص ٣٧ .
(٢) الذيل على الروضتين : ص ١٩٤ ، اليونيني : جـ١ ، ص ١١ .
(٣) لقد رأى ملك الأرمن هيتوم بصفته حليفا - للمغول - أن الفرصة سانحة لتخليص القدس من يد المسلمين ، فكون لذلك جيشا قوامه أربعين ألفا من المشاة ، واثنا عشر ألف فارس ، وأسهم في احتلال بغداد . انظر : تاريخ الأمة الأرمنية : ص ٢٢٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقال ابن أبي اليسر التنوخي في وصف نكبة بغداد ، ذاكرا نهب خيراتها ، ونراه يصف من فعلوا ذلك بأنهم كفار :

وكم ذخائر أضحت وهي شائعة ... من النّهاب وقد حازته كفار[1]

وقال سعدي الشيرازي متفجعا على ما حلّ بالاسلام من غربة بسقوط بغداد ، ومظهرتلك الغربة سبي نساء المسلمين في ديار الكفار الذين جاسوا خلال الديار :

وفي الخبر المرويّ دين محمد ... يعود غريبا مثل مبتدأ الأمر
أ أغرب من هذا يعود كما بدا ... وسبي ديار السِلم في بلد الكفر[2]

وبعد هزيمة المغول في عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ ، قال شاعر دمشقي :

هلك الكفر في الشام جميعا ... واستجدّ الاسلام بعد دُحوضه[3]

فهزيمة المغول في عين جالوت هلاك للكفر جميعه ، وانتعاش للاسلام بعد ما أصابه من الويلات في بقاع واسعة من دياره .

وقال محيي الدين بن عبد الظاهر في وصف جيش المغول الذى هزمه المسلمون في وقعة الفرات سنة ٦٧١ هـ :

تجمع جيش الشرك من كل فرقة ... وظنوا بأنّا لا نطيق لهم غلبا[4]

فجيش المغول ، جيش شرك ، تجمع فيه المشركون من كل فرقة . وهنا يبرز إحساس الشاعر المنطلق من الاعتقاد بأن ملّة الكفر واحدة ، كما يبرز إدراكه لتكالب قوى الكفر على الاسلام .

---

(١) تاريخ الاسلام : احداث سنة ٦٥٦ هـ ، ص ٢٤٩ ، النجوم الزاهرة : جـ٧ ، ص ٥٢ .

(٢) حسين محفوظ : ص ٧٤ .

(٣) ابو الفداء : جـ٣ ، ص ٢٠٦ ، النجوم الزاهرة : جـ٧ ، ص ٨٢ .

(٤) فوات الوفيات : جـ١ ، ص ٢٣٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقال القاضي ناصر الدين بن المسقلاني ، في وصف موقعة حمص سنة ٦٨٠ هـ :

هي الوقعة الصمّاء والحطمة التي ... بها انكسر الكفر الذى لم يجد جبرا
... فلله منا الحمد والشكر دائما ... فقد أصّل الاسلام واستأصل الكفر (١)

فما تحقق للمسلمين من النصر في تلك الموقعة ، كان ضربة قاصمة للكفر لا جبر لها ، وكانت تأصيلا للإسلام واستئصالا للكفر . وقال محمد المنبجي البزاز ، في المعركة نفسها مخاطبا السلطان قلاوون :

نشرت بنصرك للعلى أعلام ... يا من تفاءل باسمه الإسلام
وبدا على وجه الهدى نور غدا ... منه على وجه الضلال ظلام
... قد كان يوم كاد دين الله من ... أيدي الطغاة المجرمين يُضام
فتدارك الاسلام من ألطافه ... بالمسلمين على الدوام حسام (٢)

لقد كان النصر في المعركة معزّا للإسلام مذلّا للضلال ، والمغول طغاة مجرمون ، كاد يضام دين الله على أيديهم لولا لطف الله .

وقد أكد الشعراء الطبيعة الدينية للصراع مع المغول ، بما وصفوا به جيش المسلمين وقادته . قال محيي الدين بن عبد الظاهر يصف جيش المسلمين الذى خاض معركة الفرات سنة ٦٧١ هـ :

وجاءت جنود الله في المُدد التي ... تميس لها الأبطال يوم الوغى عُجبا (٣)

---

(١) زبدة الفكرة : جـ٩ ، ص ١٦٢ .
(٢) المصدر نفسه : جـ٩ ، ص ١٦٤ .
(٣) فوات الوفيات : جـ١ ، ص ٢٣٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فجنود هذا الجيش جند الله ، وهذا يعني أنهم يدفعون عن دين الله كيد أعدائه . وقال أحد الشعراء في وصف الجيش في المعركة نفسها :

فأتاهم جيش النبي يؤمُّهُ ... ملك الزمان الظاهر اللألاء (١)

وفي وصف هذا الجيش بأنه جيش النبي ، بالاضافة الى وصف جنوده بأنهم جنود الله ، دلالة على طبيعة الصراع الدينية ، وعلى الأهداف التي يسعى الجيش الاسلامي الى تحقيقها ، وهي حفظ ديار الاسلام آمنة من العدوان ، والأخذ بثأر الاسلام وخليفته الذى قتله المغول الكفار . قال شهاب الدين محمود في مدح الظاهر بيبرس بعد موقعة الفرات سنة ٦٧١ هـ :

لم يبق للدين الذى أظهرته ... يا ركنه عند الأعادي ثار (٢)

وقال شرف الدين الانصارى في مدح الملك المنصور الثاني صاحب حماة ، في سياق مدحه لموقفه في عين جالوت :

أخذت ثأر الامام إذ فتكوا ... به وصالوا عليه عادينا (٣)

وكذلك من أهداف الجيش الاسلامي الأخذ بثأر من قتله التتار من المسلمين . قال الأمير ناصر الدين بن الحلي في وصف موقعة الأبلستين سنة ٦٧٥هـ ، التي وقعت بين جيش المماليك من جهة ، وجيش المغول وحلفائهم سلاجقة الروم من جهة ثانية :

نروم بني خاقان جمعا لأنهم ... بغوا وطغوا عن قسوة وتجبر (٤)

---

(١) زبدة الفكرة : جـ٩ ، ص ١٢٦ .

(٢) اليونيني : جـ٣ ، ص ٤ ، الغيث المسجم : جـ٢ ، ص ٧٠ .

(٣) ديوان الصاحب شرف الدين : ص ٤٧٤ .

(٤) في الأصل : وتجبروا ، ولعله خطأ من الناسخ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لنا فيهم الثارات ثارات من مضوا جدود لنا فاتوا بأطيب عنصر[1]

وقائد الجيش الاسلامي يعمل على الدفاع عن الاسلام ونصرته ، وهو بذلك يستحق الحمد . قال شرف الدين الانصارى يمدح الملك المنصور الثاني ، صاحب حماة :

يا ناصر الدين يا محمد ما أولى بحمد من ينصر الدينا[2]

وهو يبيت الليل سهران مفكرا في رعاية الاسلام والذود عنه .

قال محمد المنبجي البزاز ، في مدح قلاوون :

وكلت بالاسلام عينا جفنها في رعية سهران ليس ينام[3]

وما دام أمر الجيش الاسلامي وقادته كذلك ، دفاعا عن الدين ، وحماية للمسلمين ، فلا عجب في أن يشملهم الله عز وجل بنصره ، ويحوطهم بعنايته . قال شرف الدين بن الوحيد[4] ، بعد وقعة مرج الصفر :

حبانا إله الخلق بالنصر والهدى على الشرك والايمان قد غلب الكفرا[5]

فالنصر من عند الله ، منّ به على المؤمنين ، وأنزل الهزيمة بالكفر وأهله . وبيّن القاضي جمال الدين ابو بكر[6] ، في وصف معركة مرج الصفّر ، دفاع الله عز وجل ،

(١) زبدة الفكرة : جـ٩ ، ص ١٣٦ .

(٢) ديوان الصاحب شرف الدين : ص ٤٧٤ .

(٣) زبدة الفكرة : جـ٩ ، ص ١٦٤ .

(٤) محمد بن شريف بن يوسف الكاتب ، كان صاحب خط فائق ، وله مشاركة في النظم والنثر ، توفي سنة ٧١١هـ . انظر : فوات الوفيات : جـ٣ ، ص ٣٩٠ .

(٥) كنز الدرر : جـ٩ ، ص ٨٩ .

(٦) هو عبد القاهر بن محمد بن عبد الواحد ، القاضي الخطيب التبريزى ، ولد سنة ٦٤٨هـ بحرّان ، واشتغل ونشأ بدمشق . توفي سنة ٧٤٠ هـ . انظر : فوات الوفيات : جـ٢ ، ص ٣٦٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عن جيش المسلمين ، وإبطاله كيد الكافرين وتدبيرهم فقال :

قد دبّر الله أمرا غير أمرهم ... وخاب ما زخرفوا فينا وما هجروا
وأقبل العسكر المنصور يقدمه ... من الملائك جند ليس تنحصر (١)

ومن مؤكدات الطبيعة الدينية للصراع تصوير الملائكة وقد تنزلت لنصرة المسلمين . قال القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر في وصف معركة حمص سنة ٦٨٠ هـ :

وهناك من يجد الملائك عصبة ... جاءته للنصر المبين تروّج (٢)

* * *

وإن مما يلفت النظر في طبيعة الصراع بين المسلمين والمغول ، أنّ صورته لم تتغيّر في الشعر حتى بعد إسلامهم . وكان دخولهم في الاسلام مثيرا للاضطراب في صفوف المسلمين الذين كانوا يواجهونهم في ميدان القتال . وسئل شيخ الاسلام ابن تيمية عن جواز قتالهم ، وما دليل وجوبه إن كان واجبا ؟ وما حكم من يرافقهم من المسلمين الذين يفرّون إليهم من عساكر المسلمين ؟ وكان الجواب : " يجب قتال هؤلاء بكتاب الله وسنة رسوله واتفاق أئمة المسلمين " (٣) . وفصّل ابن تيمية جوابه ، وبناه على أصلين : الأوّل معرفة حال المغول ، والثاني معرفة حكم الله في أمثالهم . وبيّن أن حالهم مع مسلمي بلاد الشام ، وواقع أمرهم ، ينفي عنهم حقيقة الاسلام ، قال " ان هؤلاء القوم جاروا على الشام في المرة الأولى عام تسعة وتسعين ، وأعطوا الناس الأمان ، وقرؤوه على المنبر بدمشق ، ومع هذا فقد سبوا من ذراري المسلمين قريبا من مائة ألف ، أو يزيد ، وفعلوا

---

(١) كنز الدرر : جـ٩ ، ص ٩٤ .

(٢) زبدة الفكرة : جـ٩ ، ص ١٦٢ .

(٣) فتاوى ابن تيمية : جـ٤ ، ص ٢٨١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ببيت المقدس ، وبجبل الصالحية ، ونابلس وحمص ، ودارياً[1] ، وغير ذلك من القتل والسبي ما لا يعلمه الا الله . حتى يقال أنهم سبوا من المسلمين قريباً من مائة ألف ، وجعلوا يفجرون بخيار نساء المسلمين في المساجد وغيرها ، كالمسجد الأقصى والأموى ، وغيره . وجعلوا الجامع الذى بالمقيبة دكا ، وقد شاهدنا عسكر القوم فرأينا جمهورهم لا يصلون ، ولم نر في عسكرهم مؤذنا ولا إماما ، وقد أخذوا من أموال المسلمين وذراريهم ، وخربوا من ديارهم ما لا يعلمه إلا الله ، ولم يكن معهم في دولتهم إلاّ من كان من شر الخلق ، إما زنديق منافق ، لا يعتقد دين الاسلام في الباطن وإما من هو من شرّ أهل البدع ، كالرافضة[2] والجهمية[3] والاتحادية[4] ، ونحوهم ، وإما من هو من أفجر الناس وأفسقهم ، وهم في بلادهم مع تمكنهم ، لا يحجون البيت العتيق ، وإن كان فيهم من يصلي فليس الغالب عليهم إقام الصلاة ولا إيتاء الزكاة "[5] . وبيّن أنهم مع ادعاء الاسلام يعظمون ملكهم جنكزخان ، ويساوون بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم[6] .

ووجه إلى ابن تيمية سؤال آخر ، يكشف عن امتناع بعض المسلمين عن قتال المغول بدعوى أنه لا يجوز قتال المسلمين ، وأنه يخرج معهم من هو مكره[7] . وكان جواب ابن تيمية واضحا حين قال : " قتال التتار الذين قدموا إلى بلاد الشام

---

(١) قرية مشهورة من قرى غوطة دمشق . انظر: ياقوت : جـ٢ ، ص ٤٣١ .

(٢) فرقة من كبار الفرق الاسلامية وتسمى بالشيعة أيضا . انظر: التهانوى : جـ٣ ، ص ٥٦٣ .

(٣) فرقة تقول بالجبر ، وتنفي قدرة الانسان ، وأسسها الجهم بن صفوان واليه نسبت انظر: التهانوى : جـ١ ، ص ٢٠٠ .

(٤) أصحاب مذهب وحدة الوجود . انظر: التهانوى : جـ٦ ، ص ١٤٦٨ .

(٥) فتاوى ابن تيمية : جـ٤ ، ص ٢٨٦ .

(٦) المصدر نفسه : جـ٤ ، ص ٢٨٦ .

(٧) المصدر نفسه : جـ٤ ، ص ٢٩٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واجب بالكتاب والسنة "[1]. وفصّل في إجابته ، وقارن بينهم وبين مانعي الزكاة والخوارج ، ثم خلص إلى النتيجة التالية : " والتتار وأشباههم أعظم خروجا عن شريعة الاسلام من مانعي الزكاة ، والخوارج من أهل الطائف الذين امتنعوا عن ترك الربا ، فمن شك في قتالهم فهو من أجهل الناس بدين الاسلام ، وحيث وجب قتالهم قوتلوا ، وإن كان فيهم المكره ، باتفاق المسلمين "[2].

ويكشف عن البلبلة التي أحدثها دخول المغول في الاسلام ما جاء في رسالة جوابية بعث بها الملك الناصر بن قلاوون الى غازان وذلك في قوله في بيان سبب الهزيمة التي حاقت بجيش المماليك سنة ٦٩٩ هـ[3] ، " إنه - أي غازان - لما رأى أنّه ليس له بجيشنا قبل في المجال ، عاد الى قول الزور والمحال ، والخديعة والاحتيال ، وتظاهر بدين الاسلام ، واشتهر به في الخاص والعام ، حتى ظنّ جيوشنا وأبطالنا أن الأمر كذلك فلما التقينا معه كان معظم جيشنا يمتنع عن قتاله ، ويبعد عن نزاله ، ويقول : لا يجوز لنا قتال المسلمين ، ولا يحلّ قتل من يتظاهر بالدين ، فلهذا حصل منهم الفشل "[4].

وقد ظلّ الشعراء في تصويرهم لطبيعة الصراع مع المغول على ما كانوا عليه من قبل إسلامهم ، فكأنهم اعتبروا هذه الخطوة ، عملا سياسيا ، أو خداعا يراد به تفريق صفوف المسلمين الذين تصدوا لموجات غزوهم . قال شمس الدين الطيبي في وصف تصدي جند الاسلام لجموع المغول في مرج الصفر سنة ٧٠٢ هـ :

---

(١) فتاوى ابن تيمية : جـ٤ ، ص ٢٩٨ ، وقد هاجمت جيوش التتر في عهد غازان بلاد الشام ثلاث مرات ، سنة ٦٩٩ ، ٧٠٠ ، ٧٠٢ . انظر : ابن كثير : جـ١٤ ، ص ٦ ، ١٤ ، ٢٣ .

(٢) فتاوى ابن تيمية : جـ٤ ، ص ٢٩٩ .

(٣) انظر: اخبار هذه الهزيمة : ابن كثير : جـ١٤ ، ص ٦ .

(٤) النجوم الزاهرة : جـ٨ ، ص ١٤٣-١٤٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قاموا لِقُوّة دين الله ما وهنوا ... لما أصابهم فيه وما ضعفوا
وجاهدوا في سبيل الله فانتصروا ... من بعد ظلم ومما ساءهم أنفوا
لما أتتهم جموع الكفر يقدمهم ... رأس الضلال الذي في عقله حَنَف (١)

فجموعهم جموع كفر ، وقائدهم رأس ضلال ، يريد سوءا بدين الله ، ولذلك قام المسلمون لجهادهم ، وفي البيتين الأول والثاني إشارة إلى هزيمة المسلمين أمام جيش غازان قرب حمص سنة ٦٩٩ ، وعدم ضعف معنوياتهم بعدها .

وخاطب الشاعر نفسه ، غازان ، فقال مشيرا إلى محاولاته المتكررة للسيطرة على دمشق وفشله في ذلك :

قد مات قبلك آباء بحسرتها ... وكلهم مغرم مغرى بها كلف
إن الذي في جحيم النار مسكنه ... لا تستباح له الجنات والغرف (٢)

فغازان كآبائه ، من ملوك المغول ، حاول احتلال دمشق ، وهي جنة من جنات الله لا تباح للكافرين الذين مأواهم النار !

ووصف ابراهيم بن علي بن خليل (٣) ، جنود المسلمين في مرج الصفر ، بأنهم :

حموا عن حمى دين النبي محمد ... فلم يبق في الدنيا على الارض كافر (٤)

---

(١) الوافي بالوفيات : جـ٤ ، ص ٣٦٣ .
(٢) المصدر نفسه : جـ٤ ، ص ٣٦٤ .
(٣) اشتهر هذا الشاعر بعين البصل الحراني ، كان شيخا حائكا عاميا ، أنساف على الثمانين ، روى له الصفدي بعض شعره . توفي سنة ٧٠٩ هـ . انظر : الوافي بالوفيات : جـ٦ ، ص ٧٠ .
(٤) درة الأسلاك : جـ١ ، ص ٢٤٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فغازان وجنوده - كما يرى الشاعر - كانوا يريدون شرا بدين النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، فتصدى لهم المسلمون ، وقضوا عليهم ، وتشطح بالشاعر أمنيّته ، فتصور له أنه لم يبق على الأرض كافر .

وصور الشاعر محمد المنبجي النصر في مرج الصفر بأنه نصر للاسلام وكسر للشرك ، قال مخاطبا الواقعة :

يا وقعة المرج مرج الصفر افتخرت ... بك الوقائع في الآفاق والعصر
رفعت بالنصر أعلام الهدى ولقد ... جرّدت للشرك كسرا ليس ينجبر (١)

* * *

لقد حمل الشك في صدق إسلام المغول ، الشعراء الذين واكبوا أحداث الغزو المغولي ، على وصمهم بالشرك والكفر ، كما كان حالهم قبل أن يدخل بعضهم الاسلام . ومما زاد في شكهم ذلك التحالف الغريب الذى كان يؤلف في جيشهم بين أخلاط متباينة في المعتقد والهدف ، فقد كان فيه بالإضافة إلى المغول ، كرج وأرمن وعرب وعجم وأتراك . كما يظهر ذلك في قول الكمال ماجد الشافعي في وصف جيشهم الذى غزا دمشق سنة ٦٦٩ هـ :

أتى جيشهم بالمغل والكرج عصبة ... وأصحاب سيس فيه والحمن والبمن (٢)

ويظهر كذلك في قول شهاب الدين محمود في وصف جيشهم الذى حاصر الرحبة سنة ٧١٢ هـ :

أتو كالدّبا ما بين كرج وأرمن ... ومغل وأتراك وعُرْب وأعجام (٣)

---

(١) كنز الدرر : جـ٩ ، ص ٩٢ .
(٢) المصدر نفسه : جـ٩ ، ص ٣٠ .
(٣) درة الاسلاك : جـ١ ، ص ٣٠١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد بقي الشك في صحة إسلام المغول الذين يغزون بلاد المسلمين ظاهرا في الشعر ، حتى نهاية موجات الغزو ، على عهد تيمور لنك سنة ٨٠٣ هـ . قال ابن عربشاه[1] في قصيدته التي نظمها بعد موت تيمورلنك يصف أعماله :

ومحا الهدى وغدا الردى بحسامه الباغي يمور
وسعى على إطفاء نور الله والدين الطهور
بفروع جنكز خان ذاك الظالم النجس الكفور[2]

وهل يعقل أن يسعى مسلم صادق في إسلامه إلى إطفاء نور الله ومحو الهدى والدين ؟!

---

(١) أحمد بن محمد ، امام عالم أديب فقيه لغوى نحوى ، مؤرخ ، كان امام عصره في المنظوم والمنثور ، وله مصنفات عديدة . توفي سنة ٨٥٤هـ . انظر: شذرات الذهب : جـ٧ ، ص ٢٨٠ .

(٢) عجائب المقدور : ص ١٦٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(٢) الدعـــــوة إلـــى الجهـــاد

كان المتوقع من الشعراء الذين تصدوا للحديث عن نكبة بغداد بالتتار سنة ٦٥٦ هـ ، أن يرفعوا أصواتهم بالدعوة إلى الجهاد ، وإثارة الحماس والحمية في نفوس المسلمين[(١)] . ولكن الذى حدث هو ارتفاع أصواتهم بالبكاء والتحسر ، والاكتفاء بعرض مشاهد من المأساة ، وتصوير الدنيا وقد أشرفت على الانتهاء ، والقيامة وقد حان موعدها ! واليأس وقد عمّ النفوس[(٢)] .

وقد يكون مبعث اختفاء الدعوة إلى الجهاد في ذلك الوقت ، ما كان عليه المسلمون من الفرقة والضعف والتناحر[(٣)] ، وقلة التناصر . فكان حال أهل بغداد إذ لم يجدوا في محنتهم معينا ، كعصفور بين يدى صقر ! وذلك ما صوّره سعدى الشيرازى بقوله :

ومستصرخ يا للمروءة فانصروا ومن ينصر العصفور بين يدي صقر[(٤)] !

وكذلك قال أبو شامة المقدسي مبينا تخاذل المسلمين عن نصرتهم :

لم يُعَن أهلها وللكفر أعوان (م) عليهم يا ضيعة الاسلام[(٥)]

---

(١) انظر بعض ما قيل من الشعر عند سقوط القدس سنة ٤٦٢ : ابن الاثير : جـ١٠ ، ص ٢٨٤ .

(٢) انظر : ص ١٣٣ وما بعدها من هذه الرسالة .

(٣) انظر : ص ١٣ وما بعدها من هذه الرسالة .

(٤) حسين محفوظ : ص ٧٥ .

(٥) الذيل على الروضتين : ص ١٦٤ ، اليونيني : جـ١ ، ص ١١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد امتد اليأس من القدرة على مواجهة المغول الى قلب الملك الناصر يوسف بن محمد ، ملك دمشق الايوبي ، الذى لم يجد بدا من الاستسلام لهم بعد أن دبّ الرعب في قلبه ، وتفرق عنه الجيش الذى جمعه لقتالهم ، فتوجه إلى هولاكو ، وانتهى أمره بالقتل في بلاد المغول سنة ٦٥٨ إثر موقعة عين جالوت.(١)

وقد سجّل الشاعر أمين الدين علي بن عثمان السليماني الاربلي(٢) موقف الملك الناصر ، ووقوعه أسيرا بيد التتار فقال :

تولى صلاح الدين يوسف وانقضت ... محاسنه الحسنى وسيرته المثلى
وفارق ملك الشام والشرق عنوة ... فريدا كما جرّدت من غمده نصلا
فأضحى أسيرا في التتار مروّعا ... فبكّوا عزيزا لم يكن يعرف الذلا(٣)

وبيّن ما وقع فيه الملك الناصر من خطأ الاستسلام للمغول ، وعدم اللجوء إلى قتالهم ، مقارنا بين موقفه وموقف قطز فقال :

وقد كان محض الرأي قبلُ عوامِلا ... مشرّعة عرصانها(٤) تسبق النبلا
ترب لهم عند اللقاء تسرّعا ... إلى الطعن صمصاعا ينوا الأمر أو سهلا
كما فعلت أبطال مصر وقبلُها ... فيا طيب ما أبقى ، ويا حسن ما أبلى
غزوا في سبيل الله غزوة واحد ... فما قفلوا إلا وقد دمّروا الكلا

---

(١) انظر: اليونيني : جـ٢ ، ص١٤٤.

(٢) كان من أعيان شعراء الملك الناصر ، وكان جنديا فتصوّف ، توفي بالفيوم سنة ٦٧٠ هـ . انظر : فوات الوفيات : جـ٣ ، ص ٣٩.

(٣) اليونيني : جـ٢ ، ص ١٤٥ ، فوات الوفيات : جـ٤ ، ص ٣٦٥. وكلمة (يكن) في الشطر الثاني من البيت الثالث ساقطة من اليونيني .

(٤) جاء في اللسان : رمح عرّاص: لدن المهزة ، اذا هزّ اضطرب . ولم أجده مجموعا بهذه الصيغة . انظر: اللسان : جـ٧ ، ص ٥٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وجاءوا بهم قتلى وأسرى رؤوسهم ... على قصب المرّان تحسبها أثلا
وأول ما أرضى الإله ورسله ... وكان دليل النصر أن قتل الرسلا
فلو بادرت أقيالك الحرب مثلهم ... ظفرتم ولم يهتز عرش ولا ثُلا (١)

في هذه الابيات دعوة الى الجهاد ، واتخاذه سبيلا لمواجهة المغول ، فقد كان الاستسلام لهم سببا لضياع ملك الناصر ، وعلى العكس من ذلك . حال الملك المظفر قطز ومن معه من أمراء مصر وجندها ، الذين وحدوا كلمتهم ، وواجهوا عدوهم ، فكان النصر حليفا لهم ، وأصبح المغول ما بين قتيل وأسير . وإذا كان الخوف الذى ملأ قلب الناصر سبب استسلامه ، وضياع ملكه ، فإن القوة النفسية التي تسلّح بها قطز وجيشه كانت أول علامات النصر ، وقد تجلت في قتله لرسل المغول (٢) ، الذين جاءوا برسالة من هولاكو ، فيها تهديد ووعيد ، ودعوة إلى الاستسلام له .

وسجل الشاعر نفسه في قصيدة أخرى رثى بها الملك الناصر ، صورة التخاذل الذى أصابه ، والقعود عن الجهاد الذى أشار به بعض كبار دولته (٣) ، وتخلي اسرته من الايوبيين عنه (٤) ، وتفرق جيشه فقال :

خذلتك اسرتك الذين ذخرتهم ... للنائبات وقد وقفت حيالها
ماذا تقول جحافل ملمومة ... ملأت سهول بلادها وجبالها
رهبت وماشهدت وغى فاستسلمت ... من قبل أن تضع الحروب سجالها (٥)

---

(١) اليونيني : جـ٢ ، ص ١٤٥-١٤٦ .
(٢) انظر: المقريزي : جـ١ ، ق٢ ، ص ٤٢٩ .
(٣) المصدر نفسه : جـ١ ، ق٢ ، ص ٤١٩ .
(٤) انظر بعض أحواله : ابو الفداء : جـ٣ ، ص ٢٠٠ ، ٢٠٤ .
(٥) اليونيني : جـ٢ ، ص ١٤٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد بيّن الشاعر كذلك أن من أسباب استسلام الملك الناصر للمغول طمعه في أن يعيدوه الى ملكه ويقروه فيه بعد بسط سلطانهم على بلاد الشام، قال :

وطمعت في عود الممالك عامدا نحو التتار فكان ذاك زوالها (١)

وقد ذكر الهمذاني أن التتار وعدوه بتفويض حكومة الشام إليه بعد فتح مصر. (٢)

* * *

وقد كان لطبيعة الغزو المغولي الذي لم يتخذ طابعا استيطانيا في بلاد الشام، أو لم يتح له ذلك، أثر في عدم وضوح الدعوة الى الجهاد، في الشعر، إلاّ بشكل غير مباشر، وذلك بمدح الجند المسلمين، وبيان ما يتحلون به من حسن الصفات، وأنهم يجاهدون في سبيل الله، وتمجيد جهادهم. قال شمس الدين الطيبي في وصف جند المسلمين الذين خاضوا موقعة مرج الصفر سنة ٧٠٢ هـ :

لا عيش الا لفتيان اذا انتُدبوا ثاروا، وان نهضوا في غُمّة كشفوا
يقي بهم ملةَ الاسلام ناصرُها كما يقي الدرةَ المكنونةَ الصدف
قاموا لِقُوّة دين الله ما وهنوا لما أصابهم فيه وما ضعفوا
وجاهدوا في سبيل الله فانتصروا من بعد ظلم ومما ساءهم أنفوا (٣)

---

(١) اليونيني : جـ٢، ص ١٤٨.
(٢) جامع التواريخ : م٢، ج ١، ص ٣٠٨.
(٣) الوافي بالوفيات: جـ٤، ص ٣٦٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هذه الابيات تتضمن دعوة الى سبيل الحياة الكريمة ، وهو الجهاد ، الذي يرفع به الظلم ، ويصان الدين .

ويمجد الشاعر نفسه عدة القتال ، ويعلي من شأنها ، ويصفها كما يصف المحبّ محبوبته ، بل يفضلها على ما يلتذ به الناس من جمال النساء ، ومجالس اللهو والطرب والشرب . قال :

برق الصوارم للأبصار يختطف ... والنقع يحكي سحابا بالدما يَكِفُ
أحلى وأعلى وأغلى قيمة وسنى ... من ريق ثغر الغواني حين يرتشف
ولي قدود القنا معنى شغفت به ... لا بالقدود التي قد زانها الهَيَف
ومن غدا بالخدود الحمر ذا كلف ... فإنني بحدود البيض لي كلف
ولأمة الحرب في عينيّ أجمل من ... لأم العذار الذي في الخد ينعطف
كلاهما زرد هذا يفيد وذا ... يردي فشأناهما في الفعل يختلف
والخيل في طلب الأوتار صاهلة ... ألذ لحنا من الأوتار تأتلف
ما مجلس الشرب والارطال دائرة ... كموقف الحرب والأبطال تزدلف
والرزق من تحت ظل الرمح مقترن ... بالعزّ ، والذل يأباه الفتى الصَّلِف (١)

هذه المقارنة ، بين مواطن الجمال ومجالس اللهو ، وبين مواقف القتال وعدة الحرب ، اعلان من الشاعر بأن الوقت ليس وقت لهو وطرب ، بل هو وقت جهاد ودفاع عن بلاد الاسلام .

وكأن الشاعر يشير الى وجود تيار لاهٍ في المجتمع ، لا يكترث بما يحيق بالأمة من أخطار ، وما يتهددها من كوارث .

---

(١) الوافي بالوفيات : جـ٤ ، ص ٣٦٢-٣٦٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وسلك القاضي جمال الدين ، أبو بكر ، في الدعوة الى الجهاد قريبا من مسلك شمس الدين الطيبي ، في حديثه عن موقعة مرج الصفر . فهو يتمنى أن يكون نال الشهادة في تلك المعركة ، ويصف الحرب في صورة محببة الى النفوس ، ترغيبا للمسلمين في الجهاد والاستشهاد . قال :

وددت لو كنت بين الصف منجدلا ... قد ارتوت من دمي الخطيّة السُمُرُ
وكوثر الحرب قد راقت مشاربه ... تحت العجاجة والابطال تعتكر
والسيف يهدي بديعا من فواقره ... والرمح ينظم والهامات تنتثر (١)

وقد دعا القاضي جمال الدين ، جند المسلمين الذين خاضوا تلك المعركة ، الى المحافظة على عدة القتال ، لأن مهمتهم لم تنته بعد . وهنا نحس أن الشاعر وقد رأى في المسلمين قوة وبأسا ، تذكر أن لهم بلادا مغتصبة ، وعليهم واجب تحريرها ، ليعود الخليفة الى مقره في بغداد . وهذا يظهر ما كان يحس به الشاعر من وحدة دار الاسلام ، وواجب المسلمين في التناصر لمواجهة الاعداء ، قال :

صونوا جيادكم اللاتي بكم هَمِيَت ... في بارق الحرب والوضاء تستمر
إنّا لنرجوه من بغداد ينهلها ... بماء دجلة يرويها فتصطدر
يؤمها وإمامَ المسلمين معا ... ثقوا بقولي فهذا منه منتظر (٢)

وفي قول الشاعر " ثقوا بقولي فهذا منه منتظر " ، تحريض للملك الناصر ابن قلاوون ، قائد المسلمين في مرج الصفر ، على متابعة الجهاد من أجل تحرير بلاد المسلمين ودفع الخطر عنها .

* * *

---

(١) درة الاسلاك : جـ١ ، ص ٢٤٧ ، وانظر: كنز الدرر : جـ٩ ، ص ٩٥ .

(٢) كنز الدرر: جـ٩ ، ص ٩٩- ١٠٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولئن لم تظهر الدعوة الى الجهاد في الشعر بصورة مباشرة ، فإنها ظهرت في فتاوى علماء المسلمين الذين كانوا يحرضون على القتال ويخوضونه ، ويقفون من ملوك المغول مواقف جريئة ، ومن أبرزهم في هذا الميدان ابن تيمية (١) . كما تجلت الدعوة الى الجهاد كذلك في كتب الخليفة التي كان يقلد بها السلاطين المماليك ، فكان من أهم واجباتهم الجهاد في سبيل الله (٢) .

---

(١) انظر: المقريزي : جـ١ ، ق٣ ، ص٨٩٢ ، ٨٩٦ ، فتاوى ابن تيمية : جـ٤ ، ص: ٢٨٠ ، ٢٩٨ ، ابن كثير : جـ١٤ ، ص : ١٠ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٦ .

(٢) المقريزي : جـ١ ، ق٢ ، ص ٤٥٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(٣) الدعوة إلى ضرب أحلاف المغـــول

لم تكن الحملة المغولية على بلاد الاسلام مكونة من المغول وحدهم. فقـد كانوا يسعون إلى أن ينضوى تحت لوائهم كل من امتلأ قلبه بالخشية منهم، أو كـل طامع في حليف قوى يعينه على تحقيق مآربه . ويبدو أن العنف الذى رافق انطلاقة المغول الأولى سنة ٦١٧ هـ ، وما تبعها من ذيول ، كان عاملا مساعدا علـــى جعل كثيـــر من الملوك والأمراء وأصحاب النفوذ ، في آسيا وأوروبا ، يسعـــون الى عقد تحالف معهم ، أو استرضائهم دفعا لشرهم . يبيّـن هذا الأمر ، مـــا ذكره ابن العبرى[1] في أحداث سنة ٦٤٣ هـ ، عن اجتماع تمّ في بلاد المغول ضـــمّ " الأولاد والأحفاد ، وأمراء المغول ، في وقت الربيع وحضر في المجمع من غيـــر المغول أيضا ، مما وراء النهر وتركستان ، الأمير مسعود بيك ، ومن خراسان الأمير أرغون آغـا ، وصحبته أكابر العراق واللور ، وأذربيجان وشروان ، ومن الـــروم السلطان ركن الدين ، ومن الارمن الكند سطبل ، أخو التكفور حاتم ، ومـــن كرجستان الداوودان الكبير والصغير ، ومن الشام أخو الملك الناصر صاحب حلب، ومن بغداد فخر الدين قاضي القضاة ، ومن علاء الدين صاحب الالموت محتشـــمو قهستان "[2] وجاء في حاشية الكتاب قول المحقق : " فات المؤلف أن يذكر فيمـن

---

(١) أبو الفرج ابن العبرى ، مؤرخ سرياني مستعرب من نصارى اليعاقبة ، تعلم الطب ، واشتغل بالفلسفة واللاهوت ، ونال رتبة الجاثليق - اى رئاســـة رؤساء الكهنة السريان في بلاد المشرق .توفي سنة ٦٨٥هـ انظر: الاعـلام: جـ ٥ ، ص ٣٠٨ .

(٢) ابن العبرى : ص ٢٥٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حضر في هذا المجمع العظيم الراهب يوحنا دى بـــــــــلان كاربيـــــن Jean du Plan Carpin ، سفير البابا اينوشنسيوس الرابع"[1] وهـــذا الاجتماع بما فيه من الاخلاط العجيبة ، والاتجاهات المتباينة دليل على ما قلنـــاه من البواعث على التحالف مع المغول او استرضائهم . وهو يدل أيضا على أن بعـــض قادة المسلمين قد أحسوا بالضعف وعدم القدرة على مواجهة المغول فما لوا الـــى مصانعتهم . وهذا ما حدث من بعد مع أمير الموصل بدر الدين لؤلؤ ، الـــذى أمد هولاكو عند توجهـــه إلى بغداد في آخر سنة ٦٥٥ هـ ، بالمال والرجال.[2]

ويدل كذلك على سعي الصليبيين الى استخدام المغول أداة يضـــربون بها ما كان للمسلمين من قوة في بلاد الشام ومصر ، كانت تحول بينهم وبين تثبيـــت جذورهم في البلاد التي احتلوها . وقد ساعدهم في ذلك انتشار المسيحية فـــي بلاد المغول ، وقد قام سفراء صليبيون بزيارة بلاد المغول من أجل اقامة تحالـــف معهم ضد المسلمين.[3]

ولكن يبدو أن التحالف المغولي الصليبي لم يجد ترجمة عملية الاّ في زوايا محدودة[4] ، فقد تحالف معهم من الامارات الصليبية امارة انطاكية ، وربما كـــان الدافـــع الى هذا التحالـــف كون أميرها صهرا لحليف المغول ملك الأرمن.[5]

---

(١) ابن العبرى : ص٢٥٦ حاشية رقم ٤ . وانظر : عبد القادر يوسف : ص ١٩٦ ، رنســـيمان : جـ٣ ، ص ٤٤٦ .

(٢) انظر: اليونيني : جـ١ ، ص ٨٧ ، ٨٨ ، ابو الفداء : جـ٣ ، ص ١٩٨ . جامع التواريخ : م٢ ، جـ١ ، ص٣٠٠ ، النجوم الزاهرة : جـ٧ ، ص ٤٩ .

(٣) رنسيمان : جـ٣ ، ص٥١٤ - ٥١٥ ، ٥٢٦ ، مغول ايران: ص٦٣ ، ٦٤ - ٧١ ، عبد القادر يوسف: ص١٩٧ ، مذكرات جوانفيل :ص ٨٤-٨٥ ، ٢١١ .

(٤) انظر: مذكرات جوانفيل :ص٢١٨ - ٢١٩ .

(٥) رنسيمان : جـ٣ ، ص٥٢٩ ، تاريخ الأمة الارمنية : ص ٢٢٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويرى سعيد عاشور أن تحالف النصارى الشرقيين من أرمن وسريان ويعاقبة ونساطرة مع المغول كان أقوى من تحالف النصارى الغربيين [١].

ومما يجدر ذكره أن الصليبيين في عكا ، طلبوا من الملك المظفر قطز السماح لهم بالمشاركة في التصدي للمغول ، فرفض ذلك ، وطلب منهم أن يلتزموا الحياد ، وهددهم إن هم تعرضوا للمسلمين بأذى [٢]. إلاّ أنهم مع هذا الموقف لم يتورعوا عن مكاتبة التتار وإخطارهم بوصول جيش المماليك إلى غزة لاخراجهم من حلب سنة ٦٥٩ هـ [٣].

وقد حمل هذا التحالف الصليبي الارمني المغولي ، باحثا معاصرا على وصف حملة هولاكو على العراق والشام بأنها اتخذت " سمات الحرب الصليبية الأرمنية المغولية " [٤]. وتجلى أثر هذا التحالف في تعاطف المغول مع نصارى البلاد الاسلامية التي احتلوها ، فلم يتعرضوا لهم بأذى ، وكانت بيوتهم في بغداد مأمنا التجأ اليه بعض المسلمين فنجوا من الهلاك [٥]، واعطى هولاكو بطريرك النساطرة واحدا من قصور الخليفة ، اتخذه مقرا وكنيسة ، وأغدق عليه العطايا [٦].

وربما كان في هذا الأمر تفسير لقول ابن أبي اليسر التنوخي في وصف ما حلّ ببغداد :

---

(١) الحركة الصليبية : جـ٣ ، ص ١١٢٩-١١٣٠.

(٢) المقريزي : جـ١ ، ق٢ ، ص ٤٣٠.

(٣) اليونيني : جـ٢ ، ص ٦٣.

(٤) مؤرخ المغول : ص ٤٧. وانظر: رنسيمان : جـ٣ ، ص ٥٢٦.

(٥) الحوادث الجامعة : ص ٣٢٩.

(٦) رنسيمان : جـ٣ ، ص ٥٢٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

علا الصليب على أعلى منابرهـــا وقام بالأمر من يحويه زنـــــار[1]

وعندما احتل المغول بلاد الشام سنة ٦٥٨ هـ ، وجد النصارى في دمشق عونا من واليها المغولي الذى " كان معظما لدين النصارى ، فاجتمع بأساقفتهـــم وقسوسهم ، فعظمهم جدا ، وزار كنائسهم ، فصارت لهم دولة وصولـة بسببه ، وذهب طائفـــة من النصارى إلى هولاكو ، وأخذوا معهم هدايا وتحفا ، وقدموا من عنده ومعهم أمان فرمان من جهته ، ودخلوا من باب توما ومعهم صليب منصوب يحملونه على رؤوس الناس ، وهـم ينادون بشعارهم ويقولون : ظهر الدين الصحيح ، دين المسيح ، ويذمون دين الاسلام وأهله ومعهم أوانـي فيها خمر ، لا يمرون علـى باب مسجد الاّ رشوا عنده خمـرا ، وقماقم ملآنة خمرا ، يرشون منها على وجـــوه الناس وثيابهم ، ويأمرون كل من يجتازون به في الأزقة والأسواق ، أن يقوم لصليبهم"[2] وفي مقابل هذا شكا المسلمون الى الوالي المغولي حالهم مع النصارى ، فلم يلتفت اليهم ، بل " أهينوا وطردوا ، وقدم كلام رؤساء النصارى عليهم "[3].

وقد صدق على المسلمين في بلاد الشام ، القول بأنهم ، أضحو خـــلال الغزو المغولي " لأول مرة منذ القرن السابع يعتبرون أقلية مغلوبة على أمرها "[4].

وكان من أحلاف المغول ، سلاجقة الروم ، وهم مسلمون ، وقعت بلادهـم تحت سطوة المغـــول ، سنة ٦٤١ هـ[5] ، واستسلم حكامهم لهم ، وصاروا معهـم حربا على المسلمين ، وفتحوا بلادهم لعساكرهم . وقد أدى موقفهم هذا الـــى تجريد الظاهر بيبرس عسكره سنة ٦٧٥ ، وغزو بلادهم . والتقى بهم وحلفائهـــم

---

(١) النجوم الزاهرة : جـ٧ ، ص ٥٢ .

(٢) ابن كثيـــر : جـ١٣ ، ص ٢١٩ ، وانظر : اليونيني : جـ١ ، ص٣٦٢-٣٦٤ .

(٣) اليونينـــي : جـ١ ، ص ٣٦٣ .

(٤) رنسيمان : جـ٣ ، ص ٥١٤-٥١٥ .

(٥) انظر : ابوالفداء : جـ٣ ، ص ١٧١ ، المقريزى : جـ١ ، ق٢ ، ص ٣١٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المغول في موقعة البلستين ، ثم سار حتى افتتح عاصمتهم قيسارية ، وأحسن الى أهلها ، وأعطاهم الأمان ، وخطب له في مساجدها "[١] .

وكان مع المغول أحلاف آخرون ، فهناك الكرج ، وبعض قبائل البدو العربية[٢] ، التي كان أفرادها يطمعون في النهب والعطايا ، هذا بالاضافة الى اخلاط من العجم والاتراك الذين كانوا ينضمون إليهم .

ونجد في الشعر صدى يبيّن ما كان للمغول من أحلاف ، قال القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر ، يصف جيش المغول الذى هزمه المسلمون في وقعة الفرات سنة ٦٧١ هـ :

تجمع جيش الشرك من كل فرقة وظنوا بأنا لا نطيق لهم غُلبا[٣]

فقد كان على وعي بما يضم جيش المغول من أحلاف جمعهم الشرك والعداوة لدين الله . واذا كان القاضي محيي الدين قد أجمل القول ، فقد جاء تفصيل له في قول الأمير ناصر الدين بن الحلي في حديثه عن وقعة الابلستين ، قال :

ونحن جلبنا الخيل في كل غارة إلى مثلها والروم فسأل تُخَبِّر[٤]

فهو يكشف عنا عن تحالف سلاجقة الروم مع المغول .

وقال القاضي فتح الدين بن عبد الظاهر[٥] ، يصف جيش المغول الذى

---

(١) انظر ابو الفداء : جـ٤ ، ص٩ - ١٠ ، المقريزى : جـ١ ، ق٢ ، ص٦٢٧ - ٦٣٢ .

(٢) انظر: النجوم الزاهرة : جـ٧ ، ص ١٦٧ .

(٣) الغيث المسجم : جـ٢ ، ص ١٦٧ ، فوات الوفيات : جـ١ ، ص ٢٣٨ .

(٤) زبدة الفكرة : جـ٩ ، ص ١٣٦ .

(٥) هو محمد بن عبد الله بن عبد الظاهر ، ابن القاضي محيي الدين ، ولد بالقاهرة سنة ٦٣٨ هـ ، سمع وحدث ، وساد في الدولة المنصورية وتقدم على والده ، توفي بقلعة دمشق سنة ٦٩١هـ . انظر: الوافي بالوفيات : جـ٣ ، ص ٢٣٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هزمه المسلمون في وقعة حمص سنة ٦٨٠ هـ :

لما بغى جيش أبغا في تجاسره ... ولم يمدّ له الاّ القنا جسرُ
واجمع المغل والتكفور واتفقوا ... مع الفرنج ومن أردى به الكفر
جاءت ثمانون ألفا من بعوثهم ... لأرض حمص وكان البعث والنشر (١)

هذه الأبيات ، تلقي ضوءا ، يكشف عن احلاف جدد للمغول ، فهناك الأرمن ، الذين كنى عنهم بذكر الصفة التي تطلق على ملكهم التكفور (٢) ، والفرنجة ، وأحلاف آخرون ضمهم جميعا اجتماعهم على الكفر .

وكان في جيشهم الذى غزا الشام واحتل دمشق سنة ٦٦٦ هـ ، أحلاف بينهم الكمال ماجد الشافعي بقوله :

أتى جيشهم بالمغل والكرج عصبة ... وأصحاب سيس فيه والجن والبنّ (٣)

فأحلافهم الكرج ، والأرمن الذين دلّ عليهم بذكر عاصمة مملكتهم (٤) .

وكذلك كان حال الجيش الذى حاصر الرحبة سنة ٧١٢ هـ بقيادة ملك المغول خدنبدا ، قال فيه شهاب الدين محمود :

أتوا كالدبا ما بين كرج وأرمن ... ومغل وأتراك وعرب وأعجام (٥)

لقد ضمّ جيشهم أخلاطا من الكرج والأرمن ، والمغول ، والأتراك والعرب والعجم ! وقد استعار الشاعر صورة الدّبا وهو الجراد قبل

---

(١) الوافي بالوفيات : جـ٣ ، ص ٣٦٨ .
(٢) انظر: صبح الأعشى : جـ ٨ ، ص ٣١ .
(٣) كنز الدرر : جـ٩ ، ص ٣٠ .
(٤) انظر: ياقوت : جـ٣ ، ص ٢١٧ ، مادة سيس .
(٥) درة الاسلاك : جـ١ ، ص ٣٠١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أن يطير[1] ليدل على كثرة ذلك الجيش من جهة ، وعلى أفعاله التي تشبه أفعال الجراد ، في التخريب والإفساد !

* * *

ولم يقتصر دور الشعر على كشف عناصر التحالف بين المغول وحلفائهم . بل وجدنا القاضي جمال الدين ابا بكر ، يحرّض المسلمين على مجاهدة طرف من أطراف ذلك التحالف ، وهو الأرمن[2] . وذلك بعد الانتصار الذى تحقق في مرج الصفر سنة ٧٠٢ وأخذ يذكر المسلمين بما فعله الأرمن يوم جاءوا في جيش غازان سنة ٦٩٩ هـ ودخلوا دمشق ، وأراد ملكهم أن يخربها انتقاما من المسلمين الذين أغاروا على بلاده . ولكن حال بينه وبين ذلك الأمير المملوكي المتحالف مع المغول ، قبجق ، وسلمه الصالحية ليعيث فيها فسادا[3] . ومع فلم تسلم دمشق من أذاهم[4] ، فقال القاضي جمال الدين يذكر المسلمين بذلك ويحرضهم على المسير الى بلاد الأرمن والانتقام منهم :

هُبوا إلى سيس من أحلام رقدتكم ... وسارعوا في طِلاب الثأر وابتدروا
بكل غيرانَ أخذ الروع همته ... في غير نفس الرديّ ماله وطر

---

(١) انظر: اللسان : جـ١٤ ، ص ٢٤٨ .

(٢) كان الأرمن من أبرز حلفاء المغول ، فقد أعانوهم في احتلال بغداد سنة ٦٥٦ . انظر: تاريخ الأمة الأرمنية : ص٢٢٦ ، وأسهموا في حملة هولاكو على الشام سنة ٦٥٨ هـ . انظر: ابن شداد : جـ١ ، ق١ ، ص٣٦ . وقد تنبه الظاهر بيبرس الى دورهم هذا ، فأغار على بلادهم سنة ٦٦٤ هـ انتقاما مما فعلوه ببلاد المسلمين ، انظر: اليونيني : جـ٢ ، ص٣٤٣ ، ابوالفداء : جـ٤ ، ص٣ . وأغار ابنه الملك السعيد سنة ٦٧٧ على بلادهم كذلك . انظر: اليونيني : جـ٣ ، ص٢٩٧ ، ابوالفداء : جـ٤ ، ص ١١ .

(٣) انظر: المقريزى : جـ١ ، ق٣ ، ص ٨٩٢ .

(٤) انظر: ابن كثير : جـ١٤ ، ص ٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أيرقد الليل في أمن وفي دعـــة ... عن كيد قوم لهم في شأنكم سـهر
إن تتركوهم فإن القوم ما تركـوا ... يوما عليكم ولا أبقو ولم يـذروا(١)

هذا التحريض الحنيف ، الذى يستثير حمية الرجال ، لم يكن ليصدر عن الشاعر ، لو لم يرتبط الأرمن في مخيلته بصورة رهيبة من التدمير والإفساد ، وبغارات متتابعة تبيّن التفكير الدائم للأرمن بايقاع الاذى بالمسلمين . ومن صور أذاهم التي جعلها القاضي جمال الدين وسيلة إثارة للمسلمين تذكيرهم بما فعلوه في الصالحية سنة ٦٩٩ هـ ، قال :

أما رأيتم وعاينتم وقد فعلـوا ... في الصالحية مالا تفعل التتـر
اشفوا صدوركم إن كنتم غيـرا ... على نسائكم يا قوم واذّكـروا
كم من عجوز ومن شيخ ومكتهـل ... ومن فتاة نماها الحسن والخفـر
بيضاء خرعوبة(٢) بكر محجبـة ... لا الشمس تنظرها صونا ولا القمـر
وذات بعل مخبأة مخـدّرة ... من دونها اضرب الأستار ، قد أسروا
وطفل أثكلوا وجدا بواحدهـا ... وحامل أجهضت خوفا وقد ذكـروا(٣)

إن الشاعر يذكر المسلمين بحوادث الأمس القريب ، ويبيّن ما فعله الأرمن من أسر نساء المسلمين ورجالهم ، والاعتداء على أعراضهم ، وهو بهذا يريد إثارة مشاعر الانتقام في نفوسهم . وليس هذا كل ما فعله الأرمن . ويتابع القاضي جمال الدين قائلا :

ومربع أقفر من بعد ساكنـه ... وعقد شمل نظيم جامع نثـروا
وكم أراقوا وكم ساقوا وكم هتكـوا ... وكم تملّوا بما نالوا وكم فخـروا

---

(١) كنز الدرر : جـ٩ ، ص ٩٦ .
(٢) الخرعوبة : المرأة تكون رقيقة العظم كثيرة اللحم ، ناعمة اللسان : جـ١ ، ص ٣٥٠ .
(٣) كنز الدرر : جـ٩ ، ص ٩٦-٩٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وحرّقوا في نواحيها نواحيـــــا ... وخربوا الشامخ العالي وكم دثروا
وجامع التوبة المحروق مهجتـــه ... يشير لا توبةٌ للقوم إن ظُفِـــروا
إشارة تترك الأنفاس صاعـــــدة ... لها الدموع من الآفاق تنحـــدر!! (١)

إن الأرمن لم يكتفوا بالاعتداء على أعراض المسلمين وسبي نسائهم ورجالهم ، بل عاثوا في دمشق ونواحيها فسادا ، فشتتوا شمل أهلها ، وسفكوا فيها الدماء ، وسبوا ، واستطالوا عليهم ، واشعلوا النيران في نواحي الصالحية ، ومما أحرقوه ، جامع التوبة ، الذى يشير بلسان الحال بأنه لا بدّ من الاقتصاص من الأرمن ، الذين لا تقبل توبتهم إن ظفر بهم المسلمون .

وبعـــــد عرض هذه المشاهد من جرائم الأرمن ، ترتفع نبرة صوت القاضي جمال الدين ، ويأخذ في التحريض المباشر فيقول :

لهم حزازاتٌ في قلبي مخبّـــأة ... تكاد من حرّها الأكباد تنفطـــرُ
فما قعادكم عن أخذ ثأركـــم ... هبوا سراعا وخافوا الله يا غُيُـــر
وفوهم الحرب إنصافا وممد لـــة ... وحرروا نوب الأيام واعتبـــروا
... وسارعوا واقتلوهم إنهم قتلـــوا ... وبادروا وأسروهم إنهم أســـروا
وخربوا دارهم واسبوا حريمهـــم ... وأوقروا (٢) ضعف ما أوعوا (٣) وما وقـــروا
سجلا (٤) بسجل فإن الدهر ذو نوب ... من ذا يغالب ما يأتي به القـــدر
بزّوهم الملك قهرا عن جواركـــم ... وخربوا كل ما شادوا وما عمـــروا (٥)

---

(١) كنز الدرر : جـ٩ ، ص ٩٧ .
(٢) الوقر : الحمل الثقيل . انظر: اللسان : جـ ٥ ، ص ٢٨٩ .
(٣) الوعي : الجمع ، . انظر: اللسان : جـ ١٥ ، ص ٣٩٧ .
(٤) السجل : الدلو الضخمة . انظر: اللسان : جـ١١ ، ص ٣٢٥ .
(٥) كنز الدرر: جـ٩ ، ص ٩٧- ٩٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد كشف الشاعر عما في نفسه من العداوة للأرمن بسبب ما اقترفوه في بلاد المسلمين ، مما سبب له آلاما يكاد كبده ينفطر منها . وقد لوّن أساليب استثارته للمسلمين ما بين أمر بالنهوض للقتال ، وتساؤل يحمل العجب من القعود عن الأخذ بالثأر منهم ، ويدعو المسلمين الى أن ينصفوا انفسهم من الأرمن ويصلحوا ما سلف من نوائب الدهر ، التي انزلوها بهم ، وأن يعاملوهم بما عاملوا به المسلمين ، من تخريب الديار ، وسبي النساء ، ليشربوا من الكأس التي سقوا المسلمين منها .

وقد تابع المسلمون حرب الأرمن بعد وقعة مرج الصفر ، وأغاروا على بلادهم (١) ، وترددت العلاقات معهم ما بين هدنة وحرب (٢) .

---

(١) انظر: ابو الفداء : جـ٤ ، ص ٥١ ، ٧٦ .

(٢) انظر: المصدر نفسه : جـ٤ ، ص ٨٨ ، ٩١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(٤) تصوير الشعر للإنتصارات

كان للغزو المغولي أثر عميق في نفوس المسلمين ، حيث كان الخوف يرافق ذكر المغول . فما كانت الشائعة بقدومهم تنتشر بين الناس في بلاد الشام حتى تراهم يجفلون بحثا عن ملجأ آمن (١) .

وقد أحسن نفر من الشعراء المسلمين الذين عاصروا هذا الغزو بواجبهم تجاه هذا الموقف ، فقاموا يواجهون آثاره في نفوس المسلمين ، فجندوا طاقاتهم الفنيّة في تصوير الانتصارات التي تحققت ، وذلك لانتزاع الرعب من قلوبهم ، وإحلال الأمن والطمأنينة فيها .

انتصر المسلمون سنة ٦٧١ هـ بقيادة الظاهر بيبرس ، على فرقة من المغول قصدت الرحبة ثم نزلت على البيرة (٢) ، فتوجه الظاهر بجيشه الى حمص ، وأخذ مراكب الصيادين على الجمال (٣) ، ووصل قريبا من حلب ، ثم رحل الى منبج ، وبعث طلائع تستكشف أخبار التتار ، فجاءه الخبر بأن ثلاثة آلاف فارس منهم على شط الفرات ، فتوجه اليهم ، ووصل الى نهر الفرات ، وألقى المراكب في النهر وشحنها بالجنود (٤) ، وترامى العساكر من الجانبين في الماء ، واقتتلوا فيه ،

---

(١) انظر: ابن كثير: جـ١٣ ، ص٢١٥ ، ٢٦١ ، ٢٩٢ ، جـ١٤ ، ص٦ ، ١٤ ، ٢٤ .

(٢) اليونيني : جـ٣ ، ص٢ ، والبيرة : مدينة على شط الفرات ، من بلد الجزيرة ، انظر : مراصد الاطلاع: جـ١ ، ص ٢٤٠ .

(٣) المصدر نفسه : جـ٣ ، ص ٢ .

(٤) المقريزي : جـ١ ، ق٢ ، ص٦٠٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفارس إلى جنب الفارس ، " وهم متماسكون بالأعنة ، ومجاديفهم رماحهم ، وعليهم وعلى خيولهم الحديد . وازدحموا في الماء ، فكان لقعقعة السلاح وأمواج الماء هول مفزع "[1] ، وانتهت المعركة بانتصار المسلمين ، وصلى الظاهر بيبرس في منزلة العدو ركعتين شكرا لله ، وبث عساكره خلف التتار ، فقتلوا وأسروا عددا كبيرا ، ولم ينج منهم الا القليل[2] .

وقد سجل يوسف المهندار[3] انتصار المسلمين في هذه المعركة في قصيدة وصف فيها خوض المسلمين نهر الفرات بخيلهم ، " وعليهم على خيولهم الحديد "[4] حتى خيّل للناظر في النهر أنه يرى سدا من حديد ، وبيّن ما فعله المسلمون بالمغول ، مما جعلهم يولون الأدبار . ولكن الطريق كانت مسدودة أمامهم برماح المسلمين ، فامتلأت الارض حول النهر بالقتلى ، حتى أصبح السير فيها صعبا . قال :

لو عاينت عيناك يوم نزالنا	والخيل تطفح في المجاج الأكدر
وسنا الأسنة والضياء من الظبا	كشفا لأعيننا قتام المِثْيَر
وقد اصطخم[5] الأمر واحتدم الوغى	ووهى الجبان وساء ظن المجترى
لرأيت سدا من حديد ما يُرى	فوق الفرات ، وفوقه نار تَرى
ورأيت سيل الخيل قد بلغ الزبى	ومن الفوارس أبحرا في أبحر

---

(١) المقريزي : جـ١ ، ق٢ ، ص ٦٠٦ - ٦٠٧ .

(٢) المصدر نفسه : جـ١ ، ق٢ ، ص ٦٠٧ ، اليونيني : جـ٣ ، ص٣ .

(٣) يوسف بن سيف الدولة التغلبي ، من ذرية سيف الدولة الحمداني ، ولد سنة ٦٢٢هـ ، وكان متجندا ، له يد في النظم والتاريخ . وله تصانيف في الانساب والبديع وغير ذلك . مات على رأس القرن الثامن . انظر : الدرر الكامنة : جـ ٥ ، ص٢٣١ .

(٤) المقريزي : جـ١ ، ق٣ ، ص ٦٠٧ .

(٥) اصطخم : انتصب قائما . انظر : اللسان : جـ١٢ ، ص ٣٣٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

طفرت وقد منع الفوارس مدّها ... تجري ولولا خيلنا لم تطفر
حتى سبقنا أسهما طاشت لنا ... منهم إلينا بالخيول الضُمّر
لم يفتحوا للرمي منهم أعينا ... حتى كحلن بكل لدن أسمر
فتسابقوا هربا ولكن ردّهم ... دون الهزيمة رمح كل غضنفر
ملأوا الفضاء فعن قليل لم تدع ... فوق البسيطة منهم من مخبر
سدّت علينا طرقنا قتلاهم ... حتى جنحنا للمكان الأوعر
ما كان أجرى خيلنا في إثرهم ... لو أنها برؤوسهم لم تعثر
من كل أشهب خاض في بحر الدما ... حتى بدا لعيوننا كالأشقر (١)

إن جيش المسلمين كما وصفه الشاعر ، جيش قادر على اجتياز العقبات، وتخطي الصعاب ، فقد خاض نهر الفرات بالخيل ، وقاتل الأعداء في الماء ، وفي بعض الإشارات عند الشاعر بيان لما كان يتمتع به الجيش الاسلامي من العظمة والقوة ، وحسن الاستعداد للمعركة ، ودقة إدارتها ، فخيول المسلمين أسرع من سهام الأعداء التي صوبت إليهم ، وهي لا تدع فرصة لتوجيه السهام ، فلا يكادون يفتحون أعينهم للرمي حتى تكون الرماح قد فقأتها ، وينهزم الفضول ، ولكن حسن إدارة المعركة تظهر في الكمائن التي وضعت لتمنع فلولهم من الهرب . ثم تظهر صورة خيول المسلمين وهي تعثر برؤوس قتلاهم وجثثهم ، وقد سدّت الطريق على المسلمين ، هذه الاشارات والصور ، إيحاءات تكشف عن بعض جوانب عظمة الجيش المسلم الذى كان أداة تحقيق الانتصار . وفي هذا بيان للمسلمين بأن لهم جيشا قادرا على ردّ الاعداء ، فليقرّوا وليطمئنوا .

ووصف الأمير ناصر الدين بن النقيب الوقعة نفسها في سياق مدح الظاهر بيبرس فقال :

وأوردت الفرات مُضمّرات ... وأسقيت السيوف دما مُدارا
فلما جزته خلناك موسى ... وكم دمّرت فرعوناً دمارا

---

(١) الوافي بالوفيات : جـ٢٦ ، ص ٩٨-٩٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وآتيك المراكب فوق بحر ... تسير وإن في ذاك اعتبارا
فقل للبحيرة اتئدي وقري ... فقد وافاك مفتك الأسارى
أتاك الظاهر السلطان ركضا ... على صهوات خيل لا تجارى
وجاء يجرّ جيشاً أحمديا ... يُذكّر من رآه بجيش دارا
كمثل الموج في عدد ومدّ ... ومثل السيل إن دهم الديارا
يدكّ به جبال الروم دكّاً ... فينسفها ويجعلها غبارا
عساكر تملأ الدنيا خيولا ... وفرسانا وأسلحة ونارا (١)

إن عظمة الجيش من عظمة قائده ، ولو لم يكن الجيش ذا قوة وقدرة لما طاوع القائد ولا استجاب له ، وعدة هذا الجيش خيول أصيلة مضمرة لا تجارى ، أوردها الظاهر الفرات ، وسيوف شربت من دم المغول الذي أريق بغزارة ، وهو جيش كثيف يشبه في كثرته جيش دارا ملك الفرس (٢) ، وهو كموج البحر عددا ومدّا وكالسيل لا يقف أمامه شيء الاّ جرفه ، ولو سار به الى جبال الروم ، على مناعتها ، لجعلها دكا ، وصيّرها غبارا . ويصل الطرب بالشاعر مداه ، فيرى جيش السلطان وقد تكاثر عدده ، فملأ الدنيا خيولا وفرسانا وأسلحة ونارا .

وانتصر المسلمون على المغول في موقعة جرت قرب حمص سنة ٦٨٠هـ . وذلك أن المغول تحركوا في تلك السنة لغزو الشام ، فانقسم جيشهم قسمين ، قسم بقيادة ملكهم أبغا ، توجه إلى الرحبة ، وقسم آخر بقيادة أخيه منكوتمر (٣) ، توجه الى بلاد سلاجقة الروم ليدخل منها الى الشام (٤) . وتقدم منكوتمر بجيشه

---

(١) الروض الزاهر : ص ٤٠٩ - ٤١٠ .

(٢) من ملوك الفرس القدماء ، كان ضابطا لملكه ، قاهرا لمن حوله من الملوك ، يؤدون اليه الخراج . انظر : ابن الأثير : جـ١ ، ص ٢٨١ .

(٣) كان قائد التتار في موقعة حمص نائبا عن أخيه أبغا ، وقد أصيب في هذه المعركة . انظر: العبر : جـ ٥ ، ص ٣٢٦ .

(٤) اليونيني : جـ٤ ، ص ٩١ ، المقريزي : جـ١ ، ق٣ ، ص ٦٩٠ - ٦٩١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الى أطراف حلب ، ومنها الى نواحي حماة ، بجيش تعداده ثمانون ألفا ، خمسون ألفا من المغول ، وثلاثون ألفا من الكرج والروم والأرمن والفرنجة[(١)] . وكان السلطان المنصور قلاوون قد تجهز للقائهم ونزل على حمص ، وفي صبيحة يوم الخميس رابع عشر رجب ، رتب السلطان عساكره وتواجه الفريقان ، ولم يكن التتار قد اعتدّوا مثل عدّتهم في هذه المعركة منذ عشرين سنة . وكان عدد جيش المسلمين نصف عددهم[(٢)] . والتحم الفريقان قرب مشهد خالد بن الوليد ، فكسرت ميمنة التتار ميسرة المسلمين ، وهزمت ميمنة المسلمين ميسرة التتار ، وساق التتر خلف المسلمين حتى انتهوا تحت حمص ، وثبت قلاوون في جمع قليل ، ولم يعلم كل فريق بما حلّ بالآخر ، ونزل من تبع المسلمين من التتر عن خيولهم وأرسلوها في مرج حمص موقنين بالنصر ، ونهبوا الاثقال ، وظنوا أن بقية الجيش سيلحق بهم ، وارسلوا كشافة ، فجاءهم الخبر أن منكوتمر هرب ، فركبوا وراءه راجعين[(٣)] ، وكان منكوتمر قد نزل عن فرسه أثناء المعركة ، ونظر من تحت أرجل الخيل ، فرأى الاثقال والدواب ، فظن أنها عساكره ، ولم يكن الأمر كذلك ، إنما كان ذلك من عساكر المسلمين ، ونهض ليركب فسقط عن فرسه ، فنزل التتر كلهم عن خيولهم لأجله ، فلما رآهم المسلمون على هذه الحال ، حملوا عليهم ، فخالفهم النصر . وقتل من التتار في الهزيمة أكثر مما قتل في الميدان . واختبأ كثير منهم في الأشجار والأعشاب التي على نهر الفرات ، فأمر السلطان بإضرام النار فيها ، فهلك منهم طائفة عظيمة[(٤)] . وأرسل السلطان الرسائل إلى الحصون الاسلامية للترصد لفلولهم ، " فصار العشرة منهم يقتلهم من المسلمين الواحد "[(٥)] وبهذا انقلبت الآية ، ودارت عليهم الدائرة .

---

(١) المقريزي : جـ١ ، ق٣ ، ص٦٩٢ . وذكر اليونيني : جـ٤ ، ص٩٣ أنهم مائة ألف .

(٢) اليونيني : جـ٤ ، ص ٩٣ .

(٣) المصدر نفسه : جـ٤ ، ص٩٣ ، المقريزي : جـ١ ، ق٣ ، ص٦٩٣ - ٦٩٤ .

(٤) انظر : المقريزي : جـ١ ، ق٣ ، ص ٦٩٤ - ٦٩٥ .

(٥) زبدة الفكرة : جـ٩ ، ص ١٦٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" وعاد السلطان إلى دمشق والأسرى تساق قدّامه في الكبول ، وقد نهب ما حمل لهم من القسيّ والسناجق والطبول ، وكان أعظم الأيام قدرا ، وأعطرها عند الأنام شرفا ، وأظهرها في وجه الزمان بشرا ، بهذه النصرة العظيمة ، والنصرة الوسيمة ، والكرّة التي لم ير مثلها في الأزمان القديمة ، فإن جيش التتار لم يجس خلال الديار ، بمثل هذه الاكثار ، ولا تصدها قبل هذه المدة ، في بعض هذه المدة ، وكان إذا تحركت منه الشرذمة القليلة ترتاع لها العساكر ، ويلتاع منها الأكابر ، ويخشى سلطانها الظاهر ".(١)

وقد غمر المسلمين فرح عظيم في أعقاب هذا النصر ، عبّر عنه القاضي ناصر الدين بن المسقلاني ، بقوله :

هي النعمة العظمى ، هي النصرة الكبرى ... هي اللفظ والمعنى ، هي البشر والبشرى
هي المطلب الأسنى هي المنحة التي ... لقد شرفت قدرا ، وقد عظمت ذكرا
هي الوقعة الصمّاء والحطمة التي ... بها انكسر الكفر الذى لم يجد جبرا
هي الفتك بالأعداء والظفر الذى ... شفى الصدر من أبغا وقد أثلج الصدرا(٢)

لقد عظم النصر في نفس الشاعر فراح يشير اليه مرة بعد مرة ، فاستضمير الشأن في هذه الابيات ثماني مرات ، واستعمل كذلك صيغة التفضيل أربع مرات ، هذا التضخيم لصورة النصر صادر عن إحساس حقيقي بالأمان ، تولد في نفس الشاعر بعد انكسار المغول ، وتشعث شمل جيشهم ، وقد كانت المبالغة في تصوير الانتصار أحدها من أساليب رفع الروح المعنوية للمسلمين ، وبث العزيمة في نفوسهم . فإنه يخيّل لقارىء هذه الأبيات أن معركة حمص هي المعركة الفاصلة في تاريخ الصراع مع المغول .

---

(١) زبدة الفكرة : جـ٩ ، ص ١٦١ .
(٢) المصدر نفسه : جـ٩ ، ص ١٦٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واتبع الشاعر العسقلاني في سبيل رفع الروح المعنوية للمسلمين ، أسلوب تذكير المغول ، بالانتصارات التي حققها المسلمون من قبل ، فراح يذكرهم بها ليعتبروا ، ويكفوا عن القدوم إلى الشام . ولئن وجه الشاعر خطابه إلى المغول ، فإنه كان يخاطب المسلمين ، ويذكرهم بأنهم قادرون على الانتصار على المغول مرة أخرى اذا اتخذوا للنصر أهبته . قال :

أأنسيتم في عين جالوت ما جرى ... وفي العين قد أجرى دماءكم نهرا
أما كان في عوم الفرات اليكم ... مقدمة الجيش الذى عبر البحرا
أما كان في يوم البُلستَيْنَ ثاويا ... وأعينكم ترنو إلى نحوه شزرا (١)

وهو هنا يتحدث عن المعارك التي خاضها قلاوون ، حيث شارك في عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ ، وكان في طليعة من خاض نهر الفرات لقتال المغول سنة ٦٧١ هـ ، وشارك في معركة البلستين سنة ٦٧٥ هـ .

ووصف الشاعر العسقلاني ما كان لوقعة حمص من أثر على المسلمين والتتار فقال :

فمن مبلغ تحت التراب هلاونا ... وقائع ترك تقطع القلب والظهرا
ومن مبلغ بيبرس أن قلاونا ... حمى الشام من أعدائها وحمى مصرا
سقى الله عهد الحي والميْت منهما ... سحائب تكسو الارض أردية خضرا
وحيّا محيّا طالع بعد غارب ... جلا الهمّ عن كل القلوب وقد سرّا (٢)

لقد كان لانتصار المسلمين في هذه الموقعة وقع عظيم في نفس الشاعر ، مما جعله يتذكر هولاكو ، الذى فعل بالمسلمين العظائم ، وازال دولة الخلافة ، وتمنى الشاعر لو استطاع إبلاغه بما فعل المماليك بجيشه ، فلو علم بذلك لانقطع

---

(١) زبدة الفكرة : جـ٩ ، ص ١٦٢-١٦٣ .

(٢) المصدر نفسه : جـ٩ ، ص ١٦٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قلبه وظهره !! وكما تذكر الشاعر من آذى المسلمين فقد تذكر بطلا من أبطالهم ، أسهم في الدفاع عنهم ، وردّ الأذى عن ديارهم ، وهو الظاهر بيبرس ، وتمنى لو استطاع إبلاغه بما فعله خلفه قلاوون ، من حماية لديار الشام ومصر ، ليطمئن ، ويعلم أن جهاده لم يضع سدى ، بل جاء من تابع السير على طريقه . ويظهر حبّ الشاعر لكلا البطلين ، الحي منهما والميت ، حين دعا لهما بالخير ، وذلك لما قاما به من جلاء الهم عن قلوب المسلمين ، وغرس السرور فيها .

ووصف محمد المنبجي البزاز ، أحداث معركة حمص ، وأشار لما وقع فيها من الاضطراب في جيش المسلمين ، عندما هزم بعضه أمام ميسرة المغول ، مما أوقع الاسلام في مأزق . قال :

حتى أتى يوم الخميس خميسهم ... وكأنه تحت الغمام غمام
سدت به الآفاق حتى أننا ... ظنا بدا قبل الضحى الإظلام
والنقع ليلٌ والأسنة أنجمٌ ... والقُضْبُ كالبرق اللموع تشام
لو كنت شاهدهم وقد شجر القنا ... لرأيت سوق الموت كيف تقام
قد كان يوم كاد دين الله من ... أيدي الطغاة المجرمين يضام (١)

فجيش المغول كثيف ، والمعركة رهيبة ، وسوق الموت قائمة ، وكان دين الله في ذلك اليوم في خطر . ولكن الله عزّ وجل ، تدارك دينه بقلاوون ، الذي دافع عنه بجنده . قال :

فتدارك الاسلام من ألطافه ... بالمسلمين على الدوام حسام
وأمدّهم بالزهر من أملاكه ... فأعاد بدر الدين وهو تمام (٢)

---

(١) زبدة الفكرة : جـ٩ ، ص ١٦٤ .

(٢) المصدر نفسه : جـ٩ ، ص ١٦٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والتفت الشاعر المنبجي في حديثه عن معركة حمص إلى كون المماليك والمغول من جنس واحد ، هو التركي[1] ، ولكن اختلاف العقيدة بين الفريقين ، أدى إلى تقطيع الأرحام . قال :

وغزوت تركهم بتترك مثلهـا فتقطعت ما بينها الأرحـام[2]

ويذكر المنبجي المغول بالمعارك التي خاضها قلاوون ، وهزموا فيها ، فيقول :

وافاهم بالشؤم بعد هلاكهم بالروم من بعد الفرات الشام[3]

فقد شارك في إنزال الهزائم التي حلت بهم في بلاد سلاجقة الروم سنة ٦٧٥ هـ ، في وقعة البلستين ، وفي معركة الفرات قبل ذلك سنة ٦٧١ هـ ، ثم في الشام في وقعة حمص سنة ٦٨٠ .

ووصف القاضي فتح الدين بن عبد الظاهر معركة حمص فكان حريصا على أن تكون قصيدته وثيقة تاريخية ، بالاضافة إلى اسهامها في رفع معنويات المسلمين . فقال :

جاء الخميسان في يوم الخميس ضحى وامتدت الحرب حتى أذن العصرُ
والسيف يركع والاعلامُ رافعةٌ والروس تسجد لا عُجْبٌ ولا كِبْر
والخيل لا تهتدي الا على جثث والسهل من أروس القتلى به وعر
والبيض تُغمد في الأجفان من مُهَجٍ والسُّمْر ناهيك يا ما تفعل السمر
فجاء من عجب عيدان في رجب، للسيف والرمح هذا الفطر والنحر

---

(١) انظر: صبح الاعشى : جـ١ ، ص ٣٦٩ .
(٢) زبدة الفكرة : جـ٩ ، ص ١٦٤ .
(٣) المصدر نفسه : جـ٩ ، ص ١٦٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكان يوم الخميس النصف من رجب عام الثمانين هذا الفتح والنصر (١)

يتحدث الشاعر عن موقف الانتصار ، والنشوة تملأ نفسه ، فيحدّد يوم المعركة ، وهو الخميس ، ويجانس بينه وبين مثنّى الخميس - بمعنى الجيش - ، ويحدّد مدة المعركة ، فقد ابتدأت في الضحى ، وانتهت مع أذان العصر ، ويصف ما حدث فيها من الطعان والمجالدة ، وكرّ الخيل وفرّها ، وامتلاء السهل برؤوس القتلى ، حتى أصبح السير فيه صعبا ، وأصبحت المهج أجفانا للسيوف تغمد فيها . وفعلت الرماح والسيوف فعلها ، فكان يوم المعركة عيدا للرماح بالنحر ، وللسيوف بالفطر ، وشقّ الاجساد . ويلجأ الشاعر هنا الى أسلوب التورية ليبلغ مراده من تصوير ما فعل المسلمون بالمغول ، في أسلوب فكه مرح !

لقد وصف الشاعر الإنتصار في المعركة معليا من شأنها ، معظما لجهاد المسلمين فيها ، وأشار الى ما انتهت اليه بقوله : هذا الفتح والنصر ، وكأن ما تحقق من الانتصارات قبلها لا يساوي شيئا ان قورن بها .

ونجد قريبا من هذه الصورة التي أوردها القاضي فتح الدين ، في وصف شهاب الدين محمود ، للمعركة نفسها ، في سياق مدحه للسلطان لاجين (٢) ، الذى كان فيمن خاض المعركة تحت قيادة السلطان قلاوون ، فقال :

سل يوم حمص جيوش المغل عنه وقد ضاق الفضاء بهم واستدت السبلُ
والهام تسجد والأجساد راكعة والموت يقبل والأرواح ترتحل
والبيض تغمد في الأبطال عارية وتنثني وعليها منهم حلل (٣)

---

(١) الوافي بالوفيات : جـ٣ ، ص ٣٦٨ .

(٢) حسام الدين لاجين المنصوري ، ناب عن قلاوون بدمشق سنة ٦٧٨ ، وتسلم السلطنة بعد أن ثار على الناصر محمد ، قتل سنة ٦٦٨ . انظر : الصقاعي : ص١٣٢ .

(٣) الوافي بالوفيات : جـ٢٤ ، ص١٨٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والخيل تحفى وتخفي في العجاج فإن بدت غدت وهي بالهامات تنتعل

لم يكن جيش المغول الذى انتصر المسلمون عليه قليل العدد ، بل كان من الكثرة بحيث ضاق به الفضاء ، وسدّت الطرقات والمسالك ، وكانت المعركة شديدة حامية الوطيس ، وهنا يستعير الشاعر في وصف أحداث المعركة صورا من الصلاة ، كما فعل القاضي فتح الدين بن عبد الظاهر ، فالرؤوس التي تقطع تخرّ ساجدة ، والأجساد التي تطعن تنحني راكعة ، والمعركة مليئة بالحيوية والحركة الظاهرة والخفيّة ، فللموت إقبال ، وللأرواح ارتحال ، وللخيل إقدام وتراجع ، وهي تدوس الرؤوس ، فتتخذها نعالا بعد أن حفيت ، وتثير لشدة حركتها الغبار فيحجبها عن العيون . ويجانس الشاعر بين كلمتي تحفى وتخفى ، فيكثّف فيهما وصف دور الخيل في المعركة ، بما يغني عن كثير الكلام . وانتصر المسلمون في المعركة مع كثرة عدد أعدائهم ، وأذاقوهم الويلات ، فصاروا بين هارب مولّ للأدبار ملأ الخوف يقظته ومنامه ، وأسير ذليل ، ومنجدل على الأرض قتيل ! قال :

فمزقتهم سَطاه ذا يسير وذا عان أسير وذا في التيرب منجدل
... كأن هاربهم والخوف يطلبه يبدو لديه مثال منه أو مَثَل
فإن تنبه يوما راعه وإذا أغفى جلته عليه في الكرى المقل
وعاد والنصر معقود برايته والمغل ما بين أيدى خيله خول (١)

ووصف الأمير ركن الدين بيبرس الفارقاني (٢) ، معركة حمص فقال :

وجزنا الشام في جيش عظيم سوى جيش الأعارب والحشود
فقص القاصدون حديث قوم بأرض الروم مع خيل البريد

---

(١) الوافي بالوفيات : جـ٢٤ ، ص ١٨٣ .

(٢) أحد أمراء العشرات ، كان رجلا تركيا ذكيا ، أميا ، يزن الشعر بالطباع ، وناب بقلعة دمشق ، مات سنة ٧٤٥ هـ . انظر : زبدة الفكرة : جـ٩ ، ص ١٦٥ . الدرر الكامنة : جـ٢ ، ص ٤٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فسرنا حيث ساروا والتقينـــــا ... على حمص مسربلة الحديـــــد
وصار النصر للمنصور عونـــــا ... بهمة خالد بـــن الوليـــــد
إذا ما شئت أن تحيا هنيئـــــا ... فبادر للسناجق والبنـــــود
ترى من تحتها ملكا حليمـــــا ... وفيّا بالمواثـــق والعهـــــود
هو المنصور خوّاض المنايـــــا ... اذا ما الحرب تسعر بالوقـــود
أتـــتك مثل الغمام بجيش مصـــر ... وكوسات كأصوات الرعـــــود
لها وقع ترن الأرض منـــــه ... وترعد منه آفـــاق الوجـــود
وأسياف لها لمع كبـــــرق ... تقدّ بها العظام مع الجلـــود
فسائل من هلاون عن قـــلاون ... وسائل للبرنس مع الكنـــود (١)
فلا برحت يداه في عـــــداه ... مصرفة بإسعاف السعـــود (٢)

أقبل الجيش الاسلامي من مصر ومعه حشود وجموع من الطّوعة ، لملاقـــاة جيش المغول الذى ورد الخبر بأنه دخل بلاد سلاجقة الروم ليتوجه منها الـــى بلاد الشام ، وكان اللقاء بين الجيشين ، وكل منهما في عدة كاملة ، عند حمص ، قرب مشهد خالد بن الوليد . وقد تصوّر الشاعر أن نفحة خالدية هبّت علـــى جيش المسلمين فتحقق لهم النصر (٣) . ويبيّن الشاعر أنّ الطريق الى الحياة الهنيّـــة الكريمة انما تكون بالجهاد ، وعبر عن ذلك بالدعوة الى المبادرة للسناجق (٤) والبنود ، وهي الرايات التي تحمل في القتال . ووصف الجيش الاسلامي بأنه كالغمام ، وفـــي هذا التشبيه دلالة على أمرين ، أولهما الكثرة والكثافة ، وثانيهما الإغاثة ، فقـــد كان قدومه إلى الشام سببا في إغاثة أهله بحمايتهم من أذى المغول . ووصـــف

(١) ربما كان في قوله البرنس ، اشارة الى الفرنج . والكنود : لعلها جمع كند وهو تعريب Conte . انظر: العبر: جـ ٥ ، ص ١٩٦ هامش رقم ١ .

(٢) زبدة الفكرة : جـ٩ ، ص ١٦٥ .

(٣) تردد هذا المعنى أيضا في قول محيي الدين بن عبد الظاهر في المعركة نفسها :

وهناك خالد قد أجار نزيلـــه ... ونزيل خالد ليس ممن يُزعـج

زبدة الفكرة : جـ٩ ، ص ١٦٢ .

(٤) السناجق : رايات صفر صغار . انظر: صبح الاعشى : جـ٤ ، ص٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سير ذلك الجيش والكوسات[1] يتردد صداها في الآفاق كأنه الرعد ، وفي ذلك إشارة لحماسة الجنود ، وإذكاء لعزائمهم . ومع الكوسات كانت عدة الجيش أسياف بتّارة تقطع العظام مع الجلود . وفي هذا الموقف الذي ارتفعت فيه كلمة الاسلام ، ونكست رايات المغول ، تذكر الشاعر ، هولاكو الذي خرّب ديار المسلمين وتمنى لو كان حاضرا في تلك المعركة ليذوق الوبال على يد قائد المسلمين قلاوون . وكأنه يقول : لقد دخل المغول ديار المسلمين على حين غفلة من أهلها ، واليوم قد أفاقوا من غفلتهم ، ولن يكون لهم فيها مجال .

وكان أعظم الانتصارات التي حققها المسلمون في حربهم مع المغول ، ما تمّ لهم في مرج الصفّر سنة ٧٠٢ هـ . وذلك أن المغول بقيادة ملكهم غازان محمود ، كانوا قد احتلوا بلاد الشام سنة ٦٦٩ هـ ، بعد أن هزموا جيش المسلمين في وادي الخزندار ، إلاّ أن السلطة فيها ما لبثت أن عادت في العام نفسه لدولة المماليك[2] . ثم توجه غازان إلى بلاد الشام مرة أخرى سنة ٧٠٠ هـ ، فنهب وسبى ، ثم رجع إلى بلاده[3] ، وتملك الخوف أهل الشام لكثرة الإرجاف بقدوم التتار وعودتهم بعد ذهابهم ونزح كثير منهم إلى مصر[4] . وجرت مراسلات بين غازان والسلطان الناصر محمد ما بين سنة ٧٠١-٧٠٢ هـ . ولكنها لم تسفر عن اتفاق[5] . فصمم غازان على

---

(١) صنوجات من نحاس يدق بأحدها على الآخر بايقاع مخصوص ، انظر : صبح الاعشى : جـ٤ ، ص ٩٠

(٢) انظر : أخبار هذه الوقعة : ابن كثير : جـ١٤ ، ص٦ ، المقريزي : جـ١ : ق٣ ، ص ٩٣٠ ، النجوم الزاهرة : جـ٨ ، ص ١٥٧ .

(٣) انظر : ابن كثير : جـ١٤ ، ص ١٤-١٦ .

(٤) انظر : المقريزي : جـ١ ، ق٣ ، ص ٩٠٨ .

(٥) انظر : ابن كثير : جـ١٤ ، ص ١٧ ، المقريزي : جـ١ ، ق٣ ، ص ٩١٥ ، ٩١٨ ، ٩٢٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحركة إلى الشام ، ووصل الخبر الى السلطان ، فجهز عساكره للقائه . ووصل غازان إلى الرحبة وأناب قطلوشاه على قيادة عساكره التي بلغت ثمانين ألفا ، ثم رجع إلى بلاده[١] . وحدثت مناوشة بين طائفة من المغول ، وبين عسكر المسلمين بقيادة نائب طرابلس ، فهزم المغول ، بعد أن قتل منهم وأسر . ورجع المنهزمون الى قطلوشاه ، فأخبروه أن عساكر السلطان الناصر لم تصل الى الشام بعد ، فجدّ في المسير الى حماة قاصدا دمشق[٢] .

وخاف أهل الشام خوفا شديدا ، ورحل أهل حلب وحماة إلى دمشق ، وأراد أهل دمشق الفرار لولا المناداة فيها بأن من خرج حلّ ماله ودمه[٣] . وكان للقضاة والفقهاء دور في تهدئة خواطر الناس وحضهم على الجهاد[٤] ، ورحلت عساكر المسلمين التي في حماة إلى دمشق ، فتلقاهم شيخ الاسلام ابن تيمية ، وبيّن لهم أن أهل دمشق قد تحالفوا على لقاء العدو . " وكان الشيخ تقي الدين ابن تيمية يحلف للأمراء والناس إنكم في هذه الكرة منصورون ، فيقول له الأمراء : قل إن شاء الله . فيقول : إن شاء الله ، تحقيقا لا تعليقا . وكان يؤوّل في ذلك أشياء من كتاب الله ، منها قوله تعالى (ومن بغي عليه ليصرنّه الله)"[٥] .

وكان اضطراب الناس في دمشق بسبب تأخر العساكر المصرية بقيادة السلطان الناصر عن الوصول ، وبقي الناس في خوف وقلق ، حتى جاءهم البشير بوصولها[٦] .

---

(١) المقريزي : جـ١ ، ق٣ ، ص ٩٣٠ .

(٢) المصدر نفسه : جـ١ ، ق٣ ، ص ٩٣١ .

(٣) المصدر نفسه : جـ١ ، ق٣ ، ص ٩٣٠ - ٩٣١ .

(٤) ابن كثير : جـ١٤ ، ص ٢٣ .

(٥) المصدر نفسه : جـ١٤ ، ص ٢٣ .

(٦) المصدر نفسه : جـ١٤ ، ص ٢٤ - ٢٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولجأ أهل دمشق إلى الدعاء في المساجد والبلد ، وأخذ النساء والأطفال يتضرعون إلى الله بطلب النصر[١] . وفي يوم السبت ، ثاني رمضان من سنة ٧٠٢ هـ، التقى الجمعان عند العصر[٢] ، وافتى ابن تيمية الناس بالفطر ، وأفطر هو ، ليكون العسكر أقدر على ملاقاة العدو[٣] ، وكان الخليفة المستكفي بالله يحثّ الناس على الجهاد ويقول : " يا مجاهدون ، لا تنظروا لسلطانكم ، وقاتلوا من حريمكم وعلى دين نبيكم "[٤] والقراء يتلون القرآن ، ويشوّقون إلى الجنة . وفي بداية المعركة تضعضعت ميمنة جيش المسلمين ، ومال قطلوشاه بمن معه إلى جبل قريب ، وفي نفسه أنه انتصر ، وأن جيشه في إثر المنهزمين . فلما صعد الجبل نظر السهل والوعر كله عساكر ، والميسرة السلطانية ثابتة ، وأعلامها تخفق ، فبهت وتحيّر ، واستمر بموضعه حتى كمل معه جمعه ، وأتاه من كان خلف المنهزمين من الميمنة السلطانية ، ومعهم عدة من المسلمين قد أسروهم[٥] . وعلم من الأسرى أن جيش السلطان في المعركة ، وكان يظن أنه يقاتل عسكر الشام وحدهم . وتشاور مع أصحابه ، وسمع " كوسات السلطان والأمراء والبوقات قد رجفت بحسها الأرض ، وأزعجت القلوب ، فلم يثبت بولاي[٦] ، أحد مقدمي التتر ، وخرج من تجاه قطلوشاه ، في نحو العشرين ألفا ، ونزل من الجبل بعد المغرب ، ومرّ هاربا "[٧] وقد اتخذ العسكر السلطاني من ضرب البوقات والكوسات وسيلة لإيقاع الرعب في نفوس التتر ، ومضى المسلمون يلاحقون المنهزمين ، وأحاطوا بالجبل الذي عليه قطلوشاه ، وجيشه ، فلما طلعت شمس يوم الأحد ، اقتتل الفريقان

---

(١) ابن كثير : جـ١٤ ، ص ٢٢ ، ٢٥ .

(٢) المصدر نفسه : جـ١٤ ، ص ٢٥ ، المقريزي : جـ١ ، ق٣ ، ص ٩٣٣ .

(٣) ابن كثير : جـ١٤ ، ص ٢٦ .

(٤) المقريزي : جـ١ ، ق٣ ، ص ٩٣٣ .

(٥) المصدر نفسه : جـ١ ، ق٣ ، ص ٩٣٤ - ٩٣٥ .

(٦) وكان جزاؤه أن غازان ضربه وأهانه . انظر: المقريزي : جـ١ ، ق٣ ، ص ٩٣٨ .

(٧) المصدر نفسه : جـ١ ، ق٣ ، ص ٩٣٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتراشقوا بالسهام ، وتضاربوا بالسيوف ، ثم رجع قطلوشاه بمن معه إلى الجبل ، وقد أخذ منهم العطش كل مأخذ[١] . وفي صبيحة يوم الاثنين نزل التتار من الجبل يقصدون الماء ، " وعند ذلك ركبهم بلاء الله من المسلمين ، وأيدهم بنصره ، حتى حصدوا رؤوس التتار عن أبدانهم ، ومرّوا في إثرهم إلى وقت العصر "[٢] ، وأطلقت البشائر بنصر المسلمين ، واستمر المسلمون يلاحقون التتار الذين ألقوا أسلحتهم " واستسلموا للقتل ، والعساكر تقتلهم بغير مدافعه ، حتى إن أراذل العامة والغلمان قتلوا منهم خلقا كثيرا ، وغنموا عدة غنائم ، وقتل الواحد من العسكر العشرين من التتر فما فوقها ، وأدركت عربان البلاد التتار ، وأخذوا في كيدهم ، فيجيء منهم الاثنان والثلاثة الى العدة الكثيرة من التتار ، كأنهم يسيرون بهم في البر من طريق قريبة ، إلى الليل ، ثم يدعونهم وينصرفون ، فتتحيّر التتر في البريّة ، وتصبح فتموت عطشا . ومنهم من فرّ إلى غوطة دمشق ، فتتبعهم الناس ، وقتلوا منهم خلقا كثيرا "[٣]

وهكذا دارت الدائرة على المغول ، وقتل أكثر من كان في جيشهم ، وكان لهذه الكسرة صدى عظيم في نفوس التتار ، فقد بقي النواح في بلادهم شهرين ، يندبون قتلاهم ، " وبلغ الخبر غازان ، فاغتمّ غمّا عظيما ، وخرج من منخريه دم كثير حتى أشفى على الموت "[٤] ، وانزل العقوبة بقادة جيشه المنهزمين[٥] .

---

(١) انظر: المقريزي : جـ١ ، ق٣ ، ص ٩٣٥ .

(٢) المصدر نفسه : جـ١ ، ق٣ ، ص ٩٣٦ .

(٣) المصدر نفسه : جـ١ ، ق٣ ، ص٩٣٦- ٩٣٧ .

(٤) المصدر نفسه : جـ١ ، ق٣ ، ص ٩٣٧ .

(٥) المصدر نفسه : جـ١ ، ق٣ ، ص ٩٣٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكان النصر الذى تحقق للمسلمين في هذه الموقعة ، مصدر إلهام لكثير من الشعراء الذين تغنوا به ، ووصفوا المعركة وأحداثها[١] .

قال علي بن أبي سوادة[٢] :

ألا من مبلغ قازان قولا ... يحقق عنده الخبر اليقينا
لقينا جيشهم في يوم سبت ... وكنا عند ذلك لا بسينا
كسرنا عزمهم لما التقينا ... وأردينا الجحافل والكمينا
رميناهم إلى جبل فباتوا ... يعضّون الانامل نادمينا
فلما لاح ضوء الصبح أضحوا ... على روس الثنايا حائرينا
زحفنا نحوهم بالجيش نبغي ... قتالهم فولوا هاربينا
وملنا عن طريقهم فما جوا ... وعادوا للهزيمة طالبينا
... وسقنا خلفهم في كل واد ... نذيقهم من البلوى فنونا
وأفنينا جيوش المغل قهرا ... وعدنا بالسلامة غانمينا
وكان الذل والخذلان فيهم ... وكان الناصر المنصور فينا[٣]

وجه الشاعر في هذه القصيدة رسالة إلى غازان ، ملك التتار ، وصف فيها ما حلّ بجيشه في المعركة ، فعلى الرغم من كثرته ، ألجأته الهزيمة إلى الجبل ، وشعر قادته بالندم لدخولهم بلاد الشام ، ولقائهم جيش السلطان ، ولما زحف المسلمون نحوهم ولوا هاربين ، ثم فتحوا لهم الطريق ، ليقعوا تحت أيديهم ، وساقوا خلفهم يذيقونهم ألوان العذاب . والطريف في تصوير هذا الشاعر للمغول ، هو جعله

---

(١) انظر: كنز الدرر : جـ٩ ، ص ٨٦ ، الوافي بالوفيات : جـ٤ ، ص٣٦٢ ، المقريزى : جـ١ ، ق٣ ، ص ٩٣٨ .

(٢) علي بن علي بن أبي سوادة ، كاتب السر بحلب ، وله في واقعة غازان قصائد جليلة . مات سنة ٧٢٤هـ ، وقد جاوز السبعين . انظر: الدرر الكامنة : جـ٣ ، ص١٥٠ .

(٣) إعلام النبلاء : جـ٤ ، ص ٥٤٨ ، درة الاسلاك : جـ١ ، ص ٢٤٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إياهم لعبة بين أيدي المسلمين ، الذين أمسكوا بزمام المعركة ، وأخذوا يتفننون في الايقاع بالمغول .

وقال القاضي جمال الدين أبو بكر يصف المعركة ، وما تحقق فيها من نصر:

الله أكبر جاء النصر والظفر ... والحمد لله هذا كنت انتظر
وأبرز القدر المختوم بارئه ... سبحانه بيديه النفع والضرر
وهوّن الصعب بالفتح المبين لكم ... رب يهون عليه المقفل العسر
ولم تزل شرعة الإسلام ظاهرة ... اجزم به فبهذا صحح الخبر (١)

إن النصر الذي تحقق في مرج الصفر نعمة من الله يحمد عليها ، لأن التغلب على المغول أمر صعب ، لولا أن الله هونه . والنصر في تلك المعركة نصر لدين الله ، الذي صحّ الخبر عن رسول الله ، ببقائه ظاهرا . وفي هذا إشارة الى قول الرسول صلى الله عليه وسلم " لا تزال طائفة من امتي ، على الحقّ ظاهرين ، لا يضرّهم من يخذلهم ، حتى يأتي أمر الله "(٢) . ثم وصف القاضي جمال الدين مقدمات المعركة ، وإقبال الجيش الاسلامي إلى الشام لحماية دين الله ، وأرض الاسلام فقال :

وأقبل العسكر المنصور يقدمه ... من الملائك جند ليس ينحصر
وقد أحفّوا به والأرض من زجل ... ترتجّ إن سبّحوا الله أو ذكروا
كتائب الله مصر جندها ثبت ... لا ريب فيه وجند الله تنتصر
ثاروا سراعا إلى إدراك ثأرهم ... وهجروا في طلاب المجد وابتكروا
واسهروا أعينا في الله ما رقدت ... أكرم بقوم إذا نام الورى سهروا
لله كم دينوا في نصر دينهم ... وأنفقوا في سبيل الله ما ادّخروا
صانوا الجياد وسنوا كل ذي شطب ... وجددت للقسي النبل والوتر

---

(١) كنز الدرر : جـ٩ ، ص ٩٣-٩٤ .

(٢) رواه الترمذي وابو داود ومسلم . انظر: التاج الجامع : جـ ٥ ، ص ٣٤٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حماهم الله كم حاموا وكم منعـــــوا ... وكم أغاثوا وكم آووا وكم نصـــــروا
وخلّفوا خلفهم لذات أنفســـــهم ... وهاجروا ولذيذ العيش قد هجـــروا
وأوجفوا نُفّرا بالخيل جامحـــــة ... وبالركاب ولا ملّوا ولا فتـــــروا
حتى أتوا جلقا في يوم ملحمـــــة ... فيها الأسود أسود الغاب تهتصـــر (١)

لم يكن تحقق النصر بلا أسباب أو مقدمات ، وأهم أسبابه اتصاف الجيـــش الإسلامي بما جعله أهلا لكي تتنزل عليه الملائكة بالعون والتأييد . فأفراده يكثـــرون من ذكر الله وتسبيحه ، وجعلوا أنفسهم جندا لله ، يقاتلون في سبيله ، وثاروا لأخـذ ثأر الاسلام والمسلمين ، من المغول الذين هزموهم سنة ٦٦٦ هـ ، في نوبة غـــازان . وهم يكثرون من قيام الليل ، والسهر في طاعته ، ويبذلون أموالهم في سبيله ، وقـــد أعدوا للعدو ما استطاعوا من قوة ، فصانوا جيادهم ، وأحسنوا رعايتها ، وأحـــدّوا سيوفهم ، وأصلحوا أقواسهم ، فجددوا أوتارها وسهامها ، واتصفوا بمكارم الأخلاق ، من النجدة والنخوة والإغاثة ، واطّرحوا شهوات أنفسهم جانبا ، وهاجروا في ســـبيل مرضاة الله ، فتركوا لـــذيذ العيش ، وذلك استعدادا للقاء العدو . فلما سمعوا بمقدمه إلى الشام ، أسرعوا اليها ، والتقوا به في معركة لو شهدتها أسود الغـــاب ، لسقطت من شدة الاعياء .

وقد كان إعجاب القاضي جمال الدين بحسن الصفات التي تخلّق بها الجند المسلمون باعثا له على العودة في نهاية قصيدته ، للدعاء لهم ، وبيان أنهم باعـــوا أنفسهم لله ، وبذلوها في سبيله ، فكان انتصارهم انتصارا لدينه ، وقد عانوا فـــي سبيل ذلك ، في المعركة الشدائد ، وفرجوا عن المسلمين المآزق . قال في ســـياق مدح الملك الناصر محمد :

وافاكم بعزيز النصر في نفـــــر ... وقاهم الله ما أوفاهم نفـــــر
قد أبطنوا أنهم جادوا بأنفســـهم ... من أجل ذا ظهر الإسلام إذ ظهروا

---

(١) كنز الدرر : جـ٩ ، ص ٦٤-٦٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كم فرّجوا مأزقا ضنكاً بمعتـــــراك ... وكابدوا في مجال الموت واصطبروا
فبيّض الله منهم أوجهـا كُرُمـــــت ... فإنهم بالأيادي البيض قد غَمَـــروا
وحاطهم أينما كانوا ولا برحـــوا ... في ذمة الله إن غابوا وإن حضـروا (١)

ووصف القاضي جمال الدين مشاهد من المعركة ، تبيّن ما فعل المســـلمون بالمغول فقال :

حتى إذا عبّ مثل البحر جحفلنـــا ... ومدّ فيضا على أعدائنا جُـــزروا
أصلوهم جاحما يشوي الوجوه وقـــد ... حمي الوطيس ونار الحرب تستعـر
وأحرقتهم سراعا كل صاعقـــــة ... من السيوف بنيران لها شـــــرر
لاذوا بشمّ شماريخ الجبال فمـــا ... حمتهم قلل منه ولا صـــــور
ومُزّقوا شُرَّدا بين الزحام فكـــم ... شلوا تنازع فيه الذئب والنمـــر
أين المفر وقد حام الحمام بهـــم ... هيهات لا ملجأ يُرجـــى ولا وَزَر (٢)

إنه أسلوب المبالغة المحببة إلى النفس في مثل هذه المواقف . فجيش المسلمين كالبحر ، غمر الأعداء فقضى عليهم . وأصلاهم جنوده نارا حامية شوت وجوههم ، ونزلت عليهم صواعق السيوف فأبادتهم ، فولوا الأدبار الى الجبال يعتصمون بها ، فلـــم يجدوا فيها ما أمّلوا ، وشتت شملهم ، وكثر فيهم القتل ، وضاقت بهم السبل .

وأشار القاضي جمال الدين إلى أن النصر في مرج الصفّر بلغ من العظمـــة والروعة ، ما يغفر للدهر ما أوقعه بالمسلمين من الهزائم فيما مضى . وفي هذا إشارة إلى هزيمة المسلمين أمام جيش غازان سنة ٦٩٩ هـ . قال :

فكل ذنب جناه الدهر معتمـــدا ... في جنب ما أبقت الأيام مُغتفَـــر (٣)

---

(١) كنز الدرر : جـ٩ ، ص ١٠٠ .
(٢) المصدر نفسه : جـ٩ ، ص ٩٥ .
(٣) المصدر نفسه : جـ٩ ، ص ٩٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتردد قريب من هذا المعنى في قول شرف الدين بن الوحيد في وصف معركة مرج الصفّر :

ولما غزا غازان عقر ديارنا ... وأعطاه من يعطي ومن يمنع النصرا
تمرّد طغيانا ، وتاه تجبّرا ... ولم يرتفق سعيا ولم يستفق سكرا
وجاءت ملوك المغل كالرمل كثرة ... وقد ملأت سهل البسيطة والوعرا
فأنصفت الأيام في الحكم بيننا ... فكانت له الأولى وكانت لنا الأخرى (١)

فقد انتصر غازان سنة ٦٩٩ هـ ، وطمع في النصر مرة أخرى ، وكان جيش المسلمين له بالمرصاد . فانصفت الأيام في الحكم بين المسلمين والتتار . فكان النصر لهؤلاء مرة ، ولهؤلاء أخرى .

وقال محمد المنبجي البزاز ، في المعنى نفسه ، في مطلع قصيدة له في مرج الصفر :

وافى على قدر يختاره القدر ... وجاء عما جناه الدهر معتذر (٢)
وإن أساءت لياليه التي سلفت ... ظلما ، فقد أحسنت أيامه الأخر
وبعد إدراكك الثارات منتصرا ... فكل ذنب جناه الدهر مغتفر (٣)

فعظمة النصر في هذه الموقعة كانت كفيلة بمسح جراح المسلمين التي أصابتهم فيما مضى ، من وقائعهم مع التتار .

وقال المنبجي ، في وصف ذلك النصر وآثاره على الاسلام والمسلمين :

بشائر طار بالاقبال طائرها ... لمثلها كانت الأيام تنتظر
فتح على جبهة الإسلام أسعده ... بالجد والسعد، والتأييدُ منتظر

---

(١) كنز الدرر : جـ٩ ، ص ٨٩ .
(٢) لعلها : يعتذر ، تجنبا للاقواء .
(٣) المصدر نفسه : جـ٩ ، ص ٩١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ما شاهد الناس فتحا مثله أبـــدا ... إلاّ فتوحا تولى أمرها عمـــــر
سارت بأخبارها الركبان واقعـــة ... لم تحو أمثالها الأخبار والســير
وفي الليالي إذا عُدّت محاســنها ... أسمار في كل ناد ذكرها ســمر
عمّ السرور بها كلّ النفوس فمـــا ... للناس في لذّة من بعدها وطـــر (١)

ان الشاعر يتغنى بالنصر الذى طارت بشائره ، وطال انتظاره ، وكان فتحـــا للاسلام ونصرا ، لم ير الناس شبيها له الاّ ما كان على عهد عمر بن الخطاب مـــن الفتوح الاسلامية ، وما تناقله الناس من أخباره لم يرد مثله فيما يروى في الأخبار والسير ، وستظل أخبار هذه الموقعة ، حديثا للسامرين في كل ناد . ويصل الشعور بعظمـــة النصر فـــي نفس الشاعر مداه ، عندما يقول :إن ما ذاقه الناس من حلاوة النصـــر جعلهم يستغنون عن التطلع من بعده إلـــى لذة !

وصور الشاعر دخول التتار بـلاد الشام بجيش كثيف ، وقد امتلأت نفوســـهم بطرا وطغيانا ، وغرهم ما تحقق لهم من النصر سنة ٦٩٩ هـ ، فأملوا أن ينالوه فـــي هذه المرة . ولكن خاب فألهم بتأييد الله للمسلمين ، ثم بما لقيهم به السلطان الناصر من جيوش لا قبل لهم بها ، وهم وإن كانوا كثيرى العدد ، فإنهم حين تنزل بهـــم الهزيمة ، تنقلب كثرتهم إلى قلة . قال :

إن البغاة بني خاقان أقدمهـــم ... على هلاكهم الطغيان والأشـــر
راموا وقد حشدوا غلبا فما غلبـــوا ... وهاولوا النصر تضليلا فما نصـــروا
أتوا وقد مكر الله العزيز بهـــم ... فردّ طغيانهم بالغيظ إذ مكـــروا
وضيّقوا الارض من سهل ومن جبـــل ... كأنما هم جراد فيـه منتشـــر
داسوا بلاد لك لا يثني أعنّتهـــم ... عن قصدها جهلهم والتيه والبطـــر
غرتهم فتنة في الدهر عن غلـــط ... منها ، فحلت بهم من بعدها العبـر

---

(١) كنز الدرر : جـ٩ ، ص ٩١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأمّلوا أنها مثل التي ذهبت ... فعودوا[1] ود ما هم في الفلا غُدُرُ
قابلتهم بجيوش ما لهم قِبَلٌ ... بيأسها فلقد قلوا وإن كثروا
أفنيتهم بليوث منك باسلة ... وهل تقاوم آساد الشرى الحمر[2] ؟

ووصف جيش السلطان بأنه من العصابة التي قال الرسول صلى الله عليه وسلم انها ستظل ظاهرة في الأرض حتى يأتي أمر الله[3] ، ولذلك فإن هذا الجيش موعود بالنصر من رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال :

عصابة لم تزل بالحق ظاهرة ... في الحرب بالله والأملاك تنتصر
من سيّد الرُّسْلِ بالتأييد قد وُعِدت ... فالنصر يخدمها ما زال والظفر[4]

ووقف الشاعر يناجي موقعة مرج الصفّر ، ذاكرا ما كان لها من الأثر على الاسلام والمسلمين ، رافعا من شأنها فوق الوقائع التي تحققت للمسلمين عبر العصور ، فقال :

يا وقعة المرج مرج الصُّفّر افتخرت ... بك الوقايع في الآفاق والعصر
رفعتِ بالنصر أعلام الهدى ولقد ... جرّدتِ للشرك كسرا ليس ينجبر
يوم تدارك جمع المسلمين به ... من لم يزل في يديه النفع والضرر[5]

وقد كان عند كل من القاضي جمال الدين ، والشاعر محمد المنبجي شعور بالأمان بعد الانتصار في هذه المعركة . وبأنه لن تقوم للتتار بعدها قائمة . قال القاضي جمال الدين مخاطبا أهل دمشق وبينا ما كان يعمهم من الخوف قبلها :

---

(١) لعلها : فقودروا ، فهي أنسب للسياق .
(٢) كنز الدرر : جـ٩ ، ص ٩٢ .
(٣) انظر: ص ١١٠ من هذه الرسالة .
(٤) كنز الدرر : جـ٩ ، ص ٩٢ .
(٥) المصدر نفسه : جـ٩ ، ص ٩٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كم قد سهرتم دجىً من خوفهم حذرا فالآن ناموا فلاخوفٌ ولا حـــذر (١)

وقال محمد المنبجي :

وبعدها قد أمنّا كل حادثـــة فما لنا بيـة ناب ولا ظفـــر (٢)

ولقـــد صدق حدس هذين الشاعرين ، فكانت معركة مرج الصفّر فاصلـــة في تاريـــخ العلاقات الحربيّـــة بين المغول والمســـلمين . فلم تحدث بعدها معركة تستحق الذكر ، الاّ ما كان بعد ذلك بقرن من الزمـــان عندما غزا تيمورلنـــك الشام وأوقع بها .

---

(١) كنـــز الدرر : جـ٩ ، ص ٩٥ .

(٢) المصدر نفسه : جـ٩ ، ص ٩٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(٥) مدح القادة المسلمين

وقف في مواجهة الغزو المغولي قادة من المسلمين ، أحسوا بالدور الملقى على كواهلهم في ردّ ذلك الخطر الداهم الذى أراد الاستحواذ على بلاد المسلمين في الشام ومصر ، بالإضافة إلى العراق وما وراءها من ديار الاسلام . وكان مع أولئك القادة شعراء سجلوا مواقفهم ، وخلدوا بطولاتهم ، ومدحوهم ، وجسدوا في ذلك المدح المثل الأعلى الذى كان المسلمون يتطلعون إلى تجسّده فيمن يحكمهم . وكأنهم بذلك يستحثون القائد على التمسك بما عنده من الصفات التي مدحوه بها ، والتخلق بما لم يكن عنده منها .

وقد كان من صفات القائد المسلم ، إعتباره سيف الإسلام الذى يحامي عنه ، ويجدد عزّه ، قال شاعر دمشقي في مدح الملك المظفر قطز ، بعد وقعة عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ :

هلك الكفر في الشآم جميعا ... واستجدّ الاسلام بعد دُحوضه
بالمليك المظفر الأروع سيف الاسلام عند نهوضه (١)

وفي إطلاق هذه الصفة على القائد المسلم بيان لما كان يحتاج إليه الاسلام في ذلك العهد ، من سيف قاطع يذود عنه ويحميه.

---

(١) اليونيني : جـ٣ ، ص ١٨٠ ، النجوم الزاهرة : جـ٧ ، ص ٨١-٨٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والقائد المسلم ، ناصر الدين ، الذى يستحق على هذا النصر ، الحمد والمدح . قال شرف الدين الأنصارى في الملك المنصور صاحب حماة ، بعد عين جالوت :

يا ناصر الدين يا محمد ما أولى بحمدٍ من ينصر الدينا (١)

وقال محمد المنبجي في الناصر محمد بن قلاوون :

يا ناصر الدين يا من حسن دولته أمست على دول الماضين تفتخر (٢)

ومن مستلزمات حفظ الدين وحمايته ونصره ، الدفاع عن أرضه ومعتنقيه ، ولذلك وصف القائد المسلم بأنه حامي ديار الاسلام وأهلها ، يحفظ الناس وأموالهم وأعراضهم من أن يمسهم أو يمسها أذى . قال شرف الدين الانصارى في مدح المنصور الثاني صاحب حماة :

يا ملكا لم تزل عزائمه تكفُّ عنا الأذى وتكفينا (٣)

وقال مبينا ما كان لجهاده في عين جالوت من أثر في حفظ البلاد والعباد :

وطويتَ عن مصرٍ فسيح مراحل ما بين بركتها وبين عريشها (٤)
حتى حفظت على العباد بلادها من رومها الأقصى إلى أحبوشها
... شمل الرعايا منك برٌّ زائدٌ إفراطُه ، فأزال من تشويشها (٥)

---

(١) ديوان الصاحب شرف الدين : ص ٤٧٤ .
(٢) كنز الدرر : جـ٩ ، ص ٩٣ .
(٣) ديوان الصاحب شرف الدين : ص ٤٧٤ .
(٤) توجه الملك المنصور الثاني عند سقوط الشام بيد المغول الى مصر، وأحسن قطز استقباله ، ثم خرج مع عساكر مصر وشارك في موقعة عين جالوت . انظر: ابوالفداء: جـ٣ ، ص ٢٠٢ ، ٢٠٥ .
(٥) ديوان الصاحب شرف الدين : ص ٤٧٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكرر الصاحب شرف الدين هذه المعاني في مدائحه للمنصور الثاني ، فقال :

فلقد أنمت المحصنات أوامنـــا ... ولقد أقمت شعائر النســـاك
سلّمتَ مُهجة كل بَرٍّ مســـلم ... وهزمت كلّ معاند أفّـــاك(١)

فما قام به من جهاد للمغول ، أشاع الأمن في نفوس المسلمات ، ورفع منار الدين وأتاح للعبّاد الفرصة لإقامة الشعائر في أمن وطمأنينة .

وقال ناصر الدين بن المسقلاني ، يمدح قلاوون بعد معركة حمص ســـنة ٦٨٠ هـ :

لخير أراد الله ملك قـــلاون ... فأحيا به الإسلام والملة الغـــرّا
وصان حريم المسلمين بســـيفه ... فلا أيّمٌ تُسبى ولا تُوطأ العـــذرا
فسكان مصر كلهم عتقـــاؤه ... ولا غرو أن يستعبد العبد والحُـــرّا
كذلك سكان الشآم جميعهـــم ... فكلهم في الرق يجرون ذا المجرى
وما هو الا الملك الصالح الـــذى ... أمِنّا به الاعداء والدهـــر والفقـــرا(٢)

فقيادة قلاوون الحكيمة أدت إلى إعزاز الاسلام ، وإحياء مجده ، وصيانـــة أعراض المسلمين ، وتخليص سكان مصر والشـــام من الوقوع في أسر المغول أرقاء . وفـــي البيت الأخير إشارة الى أن سكان مصر والشام لم يمانوا من الاعداء فقط ، بل كانـــت هناك حوادث الدهر ، وسوء الوضع الاقتصادى . وقد يكون الشطر الثاني من البيت الأخير تطلعا إلى الخلاص وتنبيها لقلاوون لما يعاني منه الناس .

ومـــن صفات القائد المسلم الذى واجه الغزو المغولى ، القوة والقـــدرة في ميدان القتال ، وتدبير أمور الحرب ، فهو يثبت حين يفر الناس ، ويصمد حتى يفرّج

(١) ديوان الصاحب شرف الدين : ص ٥٥٧ ، اليونيني : جـ٣ ، ص ١١٥ .
(٢) زبدة الفكرة : جـ٩ ، ص ١٦٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كربة المعركة ، ويجد للدين مخرجا من الضيق الذى وقع فيه . قال محيي الدين بن عبد الظاهر :

لله في حمص مقاما قامه ... والنار من بين الأسنة توهج
والناس قد فروا فلا مترتب ... والناس قد هربوا فليس مفرج
فثنى العنان وما انثنى حتى بدا ... للدين من أمر الأعادى مخرج (١)

وقال شرف الدين الانصارى يصف موقف الملك المنصور الثاني في عين جالوت:

صادم جيش التتار مقتحما ... ما جشأت نفسه ولم تجش
لما طغى كبشه تمدده ... فصيّر الرأس منه في الكرش (٢)

فهو لا يخاف ولا يهاب ، ويقصد في المعركة مواطن الخطر ، ويقابل قائد جيش المغول الذى يفترض فيه أن يكون من أقدرهم على القتال ، فيجعله عبرة لجنده ، عندما يصير رأسه في كرشه !!

ومن مظاهر القدرة العسكرية للقائد المسلم الحنكة العسكرية ، التي تبدو في حسن الاستعداد وبراعة التنظيم ، والتخطيط السليم للمعركة . قال شرف الدين الانصارى يمدح صاحب حماة ، ويذكر حسن تخطيطه قبيل وقعة عين جالوت :

جردت يوم الأربعاء عزيمة ... خفيت عواقبها عن الادراك
وأقمت في يوم الخميس مبالغا ... في الجمع بين طوائف الأتراك
ووقفت في يوم العروبة (٣) موقفا ... أوسعت فيه الفتك بالفتاك (٤)

---

(١) زبدة الفكرة : جـ٩ ، ص ١٦١ - ١٦٢ .
(٢) ديوان الصاحب شرف الدين : ص ٢٦٨ .
(٣) يوم العروبة : هو يوم الجمعة في الجاهلية . انظر : اللسان : جـ١ ، ص ٣٨ .
(٤) ديوان الصاحب شرف الدين : ص ٥٥٧ ، اليونيني : جـ٢ ، ص ١١٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومع الحنكة العسكرية شدة الصولة على الأعداء ، والبطش بهم ، فأبطال التتار بين يديه كالصيد في الشرك ، يذيقهم البأس لما أرادوا من السوء بالمسلمين ، قال شرف الدين الأنصاري :

قيّدت أبطال التتار بصولة ... تركتهم كالصيد في الأشراك
وأطرت منهم هام كل مدجّج ... لله ، كل موحد سفاك[1]

وقال في ممدوحه الملك المنصور ، مبيّناً قوته وشدة بأسه :

رعت العدى فضمنت ثلّ عروشها ... ولقيتها فأخذت فلّ جيوشها
لله درُّ كتيبة ملمومة ... تبغيك حين حملت في جاليشها[2]
نازلت أملاك التتار فأنزلت ... عن فعلها قسرا وعن إكديشها[3]
رويت أكباد القنا بدمائهم ... لما أطال سواك في تعطيشها
فتشت غلّ قلوبهم عن حقدها ... عمري لقد بالغت في تفتيشها
أقدمت مقتحما على نُشّابها ... تكسو الجياد رياشها من ريشها[4]

فهو مقاتل قدير يصمد لكتيبة من المغول ، وينازل ملوكهم ، ويروي الرماح من دمائهم ، ويوجه الطعنات إلى قلوبهم ، ليستأصل ما فيها من الحقد على المسلمين ، ذلك الحقد الذي يدفعهم إلى قصد بلادهم ، وإيقاع الأذى بهم . وهو لا يهاب السهام التي يطلقها المغول ، بل يتخذ من ريشها كسوة لجياده .

---

(١) ديوان الصاحب شرف الدين : ص ٥٥٧ ، اليونيني : جـ٢ ، ص ١١٥ .
(٢) الجاليش : راية عظيمة في رأسها خصلة من الشعر . انظر : صبح الاعشى : جـ٤ ، ص٨ . وهي هنا تعني مقدمة الجيش كما يظهر من السياق .
(٣) الإكديش : الكديش هو من الخيل خلاف الجواد . وهي لفظة عاميّة : انظر : المنجد : ص ٦٧٦ .
(٤) ديوان الصاحب شرف الدين : ص ٢٧٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ووصف القاضي ناصر الدين بن المسقلاني قلاوون في معركة حمص سنة ٦٨٠ هـ بالإقدام والهيبة ، التي تملأ قلوب أبطال المغول رعبا ، فهو أسد يبطش بهم ، ويعدو على نفوسهم . قال :

هو المُقدِم الكرّار في هوة الوغى ... إذا أحجم الابطال وامتلأوا ذعرا
هو الأسد العادي على أنفُس العدى ... هو القمر الهادي إذا أظلم السرى (١)

ولا يقف أمام القائد المسلم عائق يحول بينه وبين نصرة الاسلام وردّ أعدائه عن الديار . قال الأمير ناصر الدين بن النقيب يمدح الظاهر بيبرس ، ويذكر إيقاعه بالتتر سنة ٦٧١ هـ ، على نهر الفرات :

نهضتَ لها ولم تخش العِثارا ... ولا خفت الثلوج ولا القِطارا (٢)
وواصلت السُرى بالسّير حتى ... قطعت لها المفاور (٣) والقفارا
وأوردت الفرات مضمّرات ... وأسقيت السيوف دما مُدارا (٤)

فلم يعقه ثلج ولا مطر ، ولم يقف أمامه بعد الشقّة ، فتخطى كل ذلك ، حتى وصل إلى الفرات ، وأوقع بالمغول .

ومن مظاهر قوة القائد المسلم اعتياد سيفه سفك الدماء ، فإن لم يجد الأعداء أمامه ، اشتغل عنهم بالصيد . قال القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر في مدح بيبرس :

---

(١) زبدة الفكرة : جـ ٦ ، ص ١٦٢ .
(٢) القِطار : جمع قَطر ، وهو المطر . انظر: اللسان : جـ ٥ ، ص ١٠٥ .
(٣) لعلها المفاوز ، حرفت في الطباعة . فهي أقرب الى السياق .
(٤) الروض الزاهر: ص ٤٠٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إن السيوف تركتها ... لا يستقر لها قرارُ
عودتها سفك الدما ... ء فما لها عنه اصطبار
لم يبق في الدنيا فرنج ... لا ولا بقيت تتار
فالوحش عن مهج العدى ... لما تفانت تستعار (١)

وما دام القائد المسلم بهذه الشجاعة ، وهذا الإقدام ، فإن ظهوره على المغول يثير في نفوسهم الرعب ، مما يجعلهم يولون الأدبار . قال الأمير ناصر الدين بن النقيب مصورا فرار المغول أمام الظاهر بيبرس في وقعة الفرات :

طلعت عليهم كالصبح يجلو ... بطلعته من الظلم اعتكارا
فلمّا أن رأوك فما استطاعوا ... ثباتا ، لا ولا ملكوا اصطبارا
وولّوا هاربين بلا عقول ... وباتوا خائفين وهم حيارى
فهذا قد رَقي جبلا وهذا ... لشدة بأس (عزمك) (٢) حازعارا
فكنت الليث أبصره ابن آوى ... وكنت الصقر شاهده الحُبارى (٣)

طلع بيبرس على المغول ، فطاشت عقولهم ، وملكهم الخوف ، واستولت عليهم الحيرة فلاذ بعضهم بالجبال ، ووقع بعضهم في الأسر ، فكان حالهم معه ، كحال ابن آوى مع الأسد ، أو الحبارى (٤) مع الصقر .

وقال محيي الدين بن عبد الظاهر يصف فرار ملك الأرمن وحلفائه التتار من مواجهة الظاهر بيبرس ، عندما فتح عاصمة الأرمن ، سيس سنة ٦٧٣ هـ :

وتولى ليغون منه حسيرا ... خائباً خائفاً لميناً مهينا

---

(١) الروض الزاهر : ص ٢٦٥ .
(٢) زيادة لا بد منها ليستقيم الوزن .
(٣) المصدر نفسه : ص ٤١٠ .
(٤) الحبارى : طائر . انظر : اللسان : جـ٤ ، ص ١٦٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكذاك التتار خوفا ورعـــــبا قد تولوا من بأسه هاربينـــــا[1]

وقال محيي الدين بن عبد الظاهر يمدح قلاوون ، ويبيّن خوف ملوك المغـــول منه ، وقهره لهم . ويبدو أنه قد تعمّد حشد أسـماء ملوك المغول في هذه الأبيات :

يا هازم التاتار يا من لـــــه قالوا وهم يبكـون للنّـــدّب
قلاون المنصور كـم مـــرةٍ هلاونُ[2] المقهور منه سُـــبي
في مَثَلٍ أبغا[3] ومنكو[4] وفـــي أحمد[5] في أرغون[6] في جُشْـــكَب[7]
من مات منهم مات من خوفـــه ومن بقي من رعبه مختبـــي[8]

وصوّر شهاب الدين محمود سرور المغـــول بانشغال الملك الأشرف خليـــل ابن قلاوون[9] عنهم بفتح قلعة الروم[10] سنة ٦٩١ هـ ، وكان أهلها من النصارى المتحالفين مع المغول فقال :

---

(١) ابن الفرات : جـ٧ ، ص ٣٢ .

(٢) هولاكو. انظر: جامع التواريخ : م٢ ، جـ١ ، ص ٢١٨ - ٣٣٧ .

(٣) انظر: المصدر نفسه : م٢ ، جـ٢ ، ص ٣ - ٨٦ وفيه بلفظ : آباقا .

(٤) انظر: المصدر نفسه : م٢ ، جـ٢ ، ص ٨٢ ، ١١٨ .

(٥) انظر: المصدر نفسه : م٢ ، جـ٢ ، ص ٨٧ - ١٢٢ .

(٦) انظر: المصدر نفسه : م٢ ، جـ٢ ، ص ١٢٣ - ١٦٧ .

(٧) ورد بلفظ جوشكاب وهو حفيد هولاكو خان . انظر: المصدر نفسه : م٢ ، جـ٢ ، ص ١٦ ، ٧٢ ، ٩١ ، ٩٩ .

(٨) تشريف الايام: ص ٨٢ .

(٩) تسلم السلطنة بعد والده سنة ٦٨٩ ، وكانت له فتوحات من أبرزها فتح عكا وصور وقلعة الروم . قتل سنة ٦٩١ . انظر: فوات الوفيات: جـ١ ، ص ٤١٣ .

(١٠) تقع غربي الفرات مقابل البيرة ، انظر: مراصد الاطلاع: جـ٣ ، ص ١١١٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قصدت حمىً من قلعة الروم لم يُتَح ... لغيرك إذ غرّتهم المُغْلُ فاغترّوا
ووالَوْهُمُ سِرّاً ليُخفوا أذاهم ... وفي آخر الأمر استوى السر والجهر
... وما كَرِهَ المُغْل اشتغالك عنهم ... بها عندما فروا ولكنهم سُرّوا (١)

ويظهر من هذا الشعر أنه كان للمغول حامية مقيمة في قلعة الروم ، فرت عندما قدم جيش المسلمين .

وصوّر القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر خوف المغول من المنصور قلاوون ، وقد بلغ مداه ، فتمنوا العقم لكيلا يقع أولادهم في أسره . قال :

ملك به ودّ الأعادي أنّهم ... مما سَبَى أولادهم لم (ينتجوا) (٢)

ومن الشعراء من سلك مع القائد المسلم أسلوب وضع هدف أمامه ، ثم دعوته إلى تحقيقه . قال القاضي جمال الدين أبو بكر في مدح الملك الناصر محمد بعد مرج الصفر :

إنا لنرجوه من بغداد يُنْهِلُها* ... بماء دجلة يرويها فتصطدر
ويجمع الشمل في دار السلام بمن ... يودّها ويودون الذي نذروا
يؤمها وإمامُ المسلمين معا ... ثقوا بقولي فهذا منه منتظر (٣)

فالشاعر يثير الهمّة والحماسة في نفس الملك الناصر محمد بن قلاوون ليتابع الجهاد ، ويواصل تحرير البلاد التي اغتصبها المغول ، فليست مهمة السلطان وجيشه ، مقصورة على الدفاع عما في أيديهم من البلاد فحسب . والشطر الثاني من البيت الأخير يبدو كأنه جواب عن تساؤل ، أورّد على شك . وفي هذا مزيد من الاثارة للسلطان

---

(١) ابن كثير : جـ١٣ ، ص ٣٢٨ - ٣٢٩ .
(٢) زبدة الفكرة : جـ٩ ، ص ١٦٢ ، والكلمة بين القوسين غير واضحة قدرتها هكذا .
(٣) كنز الدرر : جـ٩ ، ص ٩٩ - ١٠٠ .
(*) الضمير يعود على الخيول التي ورد ذكرها في السياق .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لينهض بالمسؤولية ، ويتحمل العبء الذي ارتضاه لنفسه ، سيفا للاسلام ، وحاميا لحماه ولا يرى القاضي جمال الدين ذلك الأمر بعيدا على من يصفه بقوله :

فالشام وافاه مع بغداد في قَرَن ... ومصر في ملكه والبر والبحر
والعُرب والعُجْم في ميمون قبضته ... ومن سطى بأسه قد حارت التتر
تنشروا في الفلا سود الوجوه وقد ... طوى بأبيضه البتار ما نشروا (١)

ولا يقتصر الأمل في القائد المسلم على تحرير بغداد ، بل يتعداه إلى ما وراء ذلك من أرض الاسلام ، التي وقعت في قبضة المغول ، فأمل الشاعر محمد المنبجي ، هو أن يقود قلاوون جيشه إلى مقر سلطان المغول في موغان (٢) ، ويقاتله في أرضه . قال :

هو القائد الجيش العرمرم خلفه ... إلى القان في موغانَ يطلبه جهرا
عساكر مَلْك الارض من كل وجهة ... تجمعن حتى فاتت المدّ والحصرا
بخيل رأى منها القيامة مُثّلت ... لعينيه في دنياه والعرض والحشرا
فلم ينج منه الوحش عند إيابه ... ولا الطير في جوّ السماء إذا سرا (٣)

قال شهاب الدين محمود في بائيته الشهيرة التي سمع بها الأشرف خليل في فتح عكا :

من كان مبدأه عكا وصور معا ... فالصين أدنى إلى كفيه من حلب (٤)

---

(١) كنز الدرر : جـ٩ ، ص ١٠٠ .
(٢) موقان : مدينة من عمل أردبيل ، وبها يشتّي أردو التتر في غالب السنين . انظر : تقويم البلدان : ص ٤٠٠ - ٤٠١ .
(٣) زبدة الفكرة : جـ٩ ، ص ١٦٢ .
(٤) فوات الوفيات : جـ١ ، ص ٤١٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هذا التحريض الذى تكرر عند أكثر من شاعر ، لتحريك همة القائد المسلم للسير الى بلاد المغول واستئصال خطرهم ، ورفع أيديهم عما احتلوا من بلاد الإسلام[1] يكشف عما كان يؤمن به اولئك الشعراء من وحدة دار الإسلام ، ومسؤولية الحاكم المسلم القادر في الذود عنها وفي تحريرها .

وقد بيّن القاضي محي الدين بن عبد الظاهر الدور الذى قام به القائد المسلم في مواجهة الغزاة الكفار . فقد كان يدافع عن الوجود الاسلامي ، الذى استهدفوه . قال في مدح بيبرس :

يا مالك الدنيا الذى	أضحى بعون الله غالب
يا من به الكفار قد	نهبوا بأنياب النوائب
يا ذا الذى لولاه قد	كان البقاء من العجائب
لولا سيوفك لم يكن	بالثأر للاسلام طالب[2]

فقد كان للقائد هدفان : الأول المحافظة على وجود الاسلام والمسلمين ، والثاني : الأخذ بالثأر للاسلام[3] الذى قوّض الغزاة خلافته ، وجاسوا خلال دياره .

ولم يقتصر الشعراء في وصف القائد المسلم على الجانب العسكرى ، بل تعدوا ذلك إلى جوانب أخرى . فالقائد المسلم مصدر خير ويمن وعطاء لرعيته في الوقت الذى هو فيه مصدر شدة وبأس على الاعداء . قال شرف الدين الانصارى في مدح المنصور الثاني :

---

(١) ذكر ابن كثير ان الاشرف خليل : كان قد عزم على غزو العراق واسترجاع تلك البلاد من أيدى التتار ، واستعد لذلك ونادى به في بلاده ، لكن حال بينه وبين ذلك الموت . ابن كثير : جـ١٣ ، ص ٣٣٥ .

(٢) العيون الزاهرة : ص ٢٤٦ .

(٣) سبق الحديث عن هذه الفكرة في قسم (تصوير الشعر لطبيعة الصراع) انظر : ص ٦٨ من هذه الرسالة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تغني الأعادي قتلا وتسعف مـــنوا ... لا لك من جودك الأفانينـــــا
تهنّ ما شئت من مدائحنـــــا ... كما لنا من نداك ما شـــــينا (١)

وقال القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر يمدح بيبرس سنة ٦٦٠هـ عنـــد قدوم طائفة من التتار استأمنـــت ، ودخلت في الاسلام ، وشاهد أفرادها رؤوس قتادة المغول الذين قتلوا في موقعة عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ :

يا مليكـــا له الحســـام المبيـــد ... وكريما له العطـــاء المفيـــد
لك ســـيف به الغـــوى شـــقي ... ونوال بـــه الولـــي ســـعيد (٢)

وقد بالغ القاضي محيي الدين في مدح المنصور قلاوون بعد انتصاره في موقعة حمص سنة ٦٨٠ هـ ، فجعل مقاليد الطبيعة بين يديه ، تستمد منه النفع للمسلمين والنصـــر لاعدائهم ، فقال :

البحر لولا أنه من كفّـــــه ... ما كان منه جوهـــر يُســـتخرج
والصبح لولا أنه من شـــبهـــه (٣) ... ما فات ركض البرق منـــه مُهَمْلِـــج (٤)
والليل لولا أنه من دهمـــــه ... ما كان بالشهب الثواقب يســـرج
والنصر لولا أنه مـــن ســـيفه ... ما كان كرب في الوجود يفـــرّج
والروض لولا أنه من كُمّـــــه ... ما هبّ في الآفاق منـــه تـــأرج (٥)
والسحب لولا أنها مـــن جـــوده ... ما كان منها كلّ صـــدر يُثلـــج
والنار لولا أنها من سُـــخطه ... ما أحرق الأعداء منه تـــأرج (٦)

---

(١) ديوان الصاحب شرف الدين : ص ٤٧٤ .
(٢) الروض الزاهـــر : ص ١٧٩ .
(٣) لعلها من شُهْبه .
(٤) مهملج : الدابة المنقادة . انظر : اللسان : جـ٢ ، ص ٣٩٣-٣٩٤ .
(٥) في الأصل : ماهب منه في الآفاق تأرج . ولا يستقيم وزنه هكذا .
(٦) زبدة الفكرة : جـ٩ ، ص ١٦٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقال شهاب الدين محمود ، في مدح السلطان لاجين :

قد جمّع الله فيه كل مفتـــــرق ... في غيره فهو دون الناس مكتمـــلُ
فمن ندى يده حدّث ولا حـــرَجٌ ... أليمٌ ثمّ وثمّ العارض الهطِـــل
... أحاط بالناس سور من حمايتـــه ... ظلّ لهم وعلى أعدائهم ظُلَـــل
أضحَوا به في مهاد الأرض يكلؤهـــم ... من رأفة بهم يقظان إن غفلـــوا
يحنو عليهم ويعفو عن مسيئهم ... حلما ويصفح عنهم إن هم جهلوا
وأعدل الناس أياما فلا شـــططٌ ... في الحكم منه ولا حيف ولا ملـــل
أطاع خالقه فيمـــا تقلّـــده ... فما عن الدين بالدنيا له شـــغل (١)

لقد جمع شهاب الدين لمحمد وحده أقصى ما تتمنى أمة في حاكمها ، من توفيـــر الأمن وردّ كيد الاعداء ، والرعاية والسهر الدائم في شؤون الرعية ، والعفو والاحسان ، والعدل ، وطاعة الله . ولئن كان في هذا المدح مبالغة ، فإنها من المبالغة الـــتي يراد بها من الممدوح أن يرتفع إلى مستواها .

وقال ابراهيم بن علي بن خليل ، الشهير بعين البصل الحوراني ، في مـــدح الملك الناصر محمد :

أتى كاملا في وصفه وهو عـــادل ... وفي الحرب منصور وللكفر قاهـــر
فإن حطّ حطّ السعد طوعاً لأمـــره ... وإن سار بالفرسان فالسعد سائـــر (٢)

فهو كامل في صفاته . ومن أبرز ما لفت نظر الشاعر في تلك الصفات : العـــدل ، والانتصار في الحرب ، والقهر للكفر ، ومواكبة السعد لحله وترحاله . ويبدو أن الشاعر قد أبرز هذه الصفات ، لاحساسه بأنها الصفات المطلوبة في ذلك الوقت .

---

(١) الوافي بالوفيات : جـ٢٤ ، ص ١٨٣-١٨٤ .
(٢) درة الاســـلاك : جـ١ ، ص ٢٤٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقال علاء الدين بن عبد الظاهر[1] في الناصر نفسه :

أنت غيثٌ إذا وردت إلى الشـ ـام ونيلٌ إذا تيممت مصـ ـرا
أطلع الله من جبينك شمسا ليس تخفى ومن محياك بدرا
كان أمر التتار مستصعب الحا ل فصيّرت عسر ذلك يسرا[2]

بلاد الشام تعتمد في زراعتها وحياتها على الغيث ، فالملك الناصر لأهلها كالغيث ، والنيل مصدر الحياة في مصر ، والناصر لأهلها نيل ثان ! وهذا يدل على أن ما كانت تواجهه بلاد الشام ومصر قضية مصيرية ، تضعهما بين الموت والحياة . وقد ترجح جانب الحياة بحسن قيادة هذا السلطان . الذي هو مصدر خير وعطاء ، كالشمس في النهار ، ومصدر هدى واسترشاد ، كالقمر في الليل . وقد ظهرت آثار كل تلك الصفات في انتصاره على التتار ، الذين كان أمرهم مستفحلا صعبا ، فصيّره سهلا يسيرا ، بما أذاقهم في معركة مرج الصفّر سنة ٧٠٢ هـ .

ونجد عند شهاب الدين محمود صورة طريفة للظاهر بيبرس ، حيث يبيّن عموم فضله ، الذي لم يقتصر شكره على الناس ، بل شكرته أيضا ، القلاع والحصون والتراب ، ووحوش الأرض وجوارح السماء ، وذلك لانتصاره على التتار في موقعة الفرات سنة ٦٧١ هـ ، قال :

شكرت مساعيك المعاقل والـورى والترب والآساد والأطيـارُ
هذي منعت وهؤلاء حميتهم وسقيت تلك وعمّ ذي الايثـار[3]

---

(١) حفيد القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر . كان من كبار المنشئين وأعلامهم في زمانه . انظر: المقريزي : جـ٢ ، ق١ ، ص ١٧٩ ، شذرات الذهب: جـ٦ ، ص٤٦ .

(٢) درة الاسلاك: جـ١ ، ص ٢٤٧ ، المقريزي : جـ١ ، ق٣ ، ملحق رقم١٦ ، ص١٠٢٧ .

(٣) اليونيني : جـ٣ ، ص٤ ، الغيث المسجم: جـ٢ ، ص٧٠ ، فوات الوفيات: جـ١ ، ص٢٤٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومثل هذه الصورة في طرافتها قول القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر، في بيبرس بعد فتح مدينة سيس عاصمة الأرمن حلفاء المغول، سنة ٦٧٣ هـ :

وترامت كلُّ البلاد وقالت ... ليتنا مثل سيسَ كنّا غزينا
ليت جيش السلطان وافى إلينا ... ليرانا في حكمه طائعينا

وقد التفت الشعراء إلى تميّز القائد المسلم الذى تصدى للغزو المغولى عن سواه من قادة المسلمين، فسجلوا له هذه الفضيلة، قال شرف الدين الأنصارى في مدح المنصور الثاني، صاحب حماة :

لك في الندى وردى ذوي الإشراك ... شِيَمٌ تفوق بها على الأملاك(١)

فقد تفوق الملك المنصور الثاني بصفتين، جعلتاه فوق الملوك، هما : الكرم وإبادة أهل الشرك. ومثله قول شمس الدين الطيبي في الناصر محمد :

محمد ناصر الدين الذي طفقت ... له السلاطين بالتقديم تعترف(٢)

وصورة الطيبي أبلغ، لأنه صور سلاطين الأرض يعترفون للناصر بالتقديم، بينما التفوق عند الأنصارى صفة أسبغها الشاعر على السلطان.

وقال شرف الدين بن الوحيد في الناصر نفسه :

فحمدٌ لسلطان الزمان محمد ... وشكرٌ لمولى قد أباد العدى قهرا
أجلُّ ملوك الأرض والناصر الذي ... أذاق العدى ضيقا وأوسعنا نصرا(٣)

* * *

---

(١) ديوان الصاحب شرف الدين : ص ٥٥٦، اليونيني : جـ٣، ص ١١٥.

(٢) درة الاسلاك : جـ١، ص ٢٤٧.

(٣) كنز الدرر : جـ٩، ص ٨٩-٩٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد تمثلت في الشعر الذى واكب احداث الغزو المغولى صورة للقائد المسلم الذى حمل على عاتقه عبء التصدى له . وهي صورة الحاكم الذى يسعى للدفاع عن الدين الذى آمن به ، فهو سيفه وناصره ، وحاميه ومفرّج كروبه . وهو يدافع عن المسلمين والمسلمات حتى لا يقعوا في أسر الكفار ، أو ينالهم السبي والأذى . فتنتهك الاعراض ، وتسفك الدماء .

وهو قائد عسكرى محنك ، يحسن الإعداد للمعركة ، واذا خاضها فهو الفارس الذى لا يشق له غبار . ولا يقف أمامه صناديد الاعداء . وهو ملاذ المسلمين عند اشتداد المعركة . وقد أصبح اسم القائد المسلم ، مثيرا للرعب في نفوس المغول لكثرة ماذاقوا على يده من الشدائد . فتراهم يتحاشون لقاءه ، ويهربون من مواجهته ، ولم تكن مسؤولية ، في نظر اولئك الشعراء ، مقتصرة على الدفاع عن الارض التي يحكمها ، بل عليه مسؤولية اكبر ، تتمثل في تحرير ما وقع في ايدى المغول من بلاد المسلمين وعليه كذلك مسؤولية التوجه الى بلادهم ، واستئصال وجودهم ، الذى كان مصدر أذى للمسلمين .

والقائد المسلم مصدر خير وعطاء للمسلمين . فهم في ظله في عدل وأمن ورخاء . وقرّ لهم الحماية من أعدائهم ، وتولى قطع دابرهم .

وكما قلنا من قبل ، فإن لم تكن هذه الصورة ، محققة في مجملها في واقع الأمر ، فإنها كانت تمثل أمل المسلمين وتطلعهم الى وجودها فيمن يحكمهم ويتولى رعاية أمرهم .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رثـــاء المـــــــدن
خـــلال الغـــــــزو المغولـــي

اجتاح المغول في زحفهم الذي بدأ سنة ٦١٧ هـ ، كثيرا من المدن الاسلامية الكبرى ، في شرق العالم الاسلامي ، وأعملوا فيها أسباب التخريب والتدمير . وكـــان لما فعلوه فيها ، صدى عميق من الحزن ، في نفوس المسلمين ، عبّر عنه ابن الأثيـــر في حديثه عن الغزو المغولي . فقد بيّن أنه أعرض عن تسجيل أحداث ذلك الغـــزو عدة سنين ، لأن في ذلك التسجيل نعيا للإسلام والمسلمين . وتمنى لو لم تلـــده أمه ! أو لو مـــات قبل ذلك الحدث الذي لم تعرف البشرية له مثيلا[1] .

ولئن لم نظفر بوصف شعري ، يسجل ما حلّ بتلك الديار من آثار التدميـــر والتخريب ، فإن فيما ذكره ابن الأثير بيانا واضحا[2] . ومن ذلك ما حدث في بخـــارى[3] . التي أمر المغول أهلها " بالخروج من البلد ، فخرجوا مجردين من أموالهم ، ليـــس مع أحد منهم غير ثيابه التي عليه ، ودخل الكفار البلد فنهبوه ، وقتلوا من وجدوا فيه ، وأحاط[4] بالمسلمين ، فأمر أصحابه أن يقتسموهم ، فاقتسموهم وكان يوما عظيما مـــن

---

(١) انظر: ابن الأثير : جـ١٢ ، ص ٣٥٨ .

(٢) انظر وصف ياقوت لما شاهد من أحداث الغزو المغولي وآثاره التدميرية في رسالة الى القفطي ، في : ابن خلكان : جـ٦ ، ص ١٢٩ - ١٣٧ .

(٣) من اعظم مدن ما وراء النهر . وهي مدينة قديمة . انظر : مراصد الاطلاع : جـ١ ، ص١٦٩ .

(٤) الضمير عائد الى جنكز خان الذي ورد اسمه في السياق .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كثرة البكاء ، من الرجال والنساء أيضا ، وأصبحت بخارى خاوية على عروشها ، كأن لم تغن بالأمس ، وارتكبوا من النساء العظيم ، والناس ينظرون ويبكون ، ولا يستطيعون أن يدفعوا عن أنفسهم شيئا مما نزل بهم ، فمنهم من لم يرض بذلك ، واختار الموت على ذلك . . . "[١] . ولم يكتف المغول بهذا ، بل انهم " ألقوا النار في البلد والمدارس والمساجد ، وعذبوا الناس بأنواع العذاب "[٢] وفعلوا مثل ذلك مع أهل سمرقند "[٣] من القتل والسبي والفساد ، ودخلوا البلد فنهبوا ما فيه ، وأحرقوا الجامع ، وتركوا باقي البلد على حاله ، وافتضوا الأبكار ، وعذبوا الناس بأنواع العذاب في طلب المال ، وقتلوا من لم يصلح للسبي "[٤] .

وعندما امتد الغزو المغولي فشمل العراق ثم بلاد الشام ، ووقعت بين أيدي المغول مدن إسلامية جديدة ، ساروا فيها مثل سيرتهم في مدن الشرق الاسلامي . وأول هذه المدن بغداد . ولم تكن أهمية بغداد في كونها مدينة إسلامية كبيرة فحسب ، بل لأنها كانت عاصمة الخلافة الإسلامية ، ولذلك لم يكن غريبا أن يكتب كثير من الشعر في رثائها ، ووصف ما حل بأهلها . " وقد عمل الشعراء والعلماء ، قصائد في مراثي بغداد وأهلها "[٥] .

ويبدو أن كثيرا مما قيل في هذه الحادثة لم يصلنا ، بل ضاع في مسيرته عبر القرون . ومما قيل في رثاء بغداد ، قصيدة الشيخ تقي الدين اسماعيل ابن إبراهيم بن أبي اليسر ، شاكر بن عبد الله التنوخي ، وهي لم تصلنا كاملة ، فعدد أبياتها ستة وستون[٦] ، والذي بين أيدينا منها ، اثنان وعشرون وقد استهلها الشاعر بقوله :

---

(١) ابن الاثير : جـ١٢ ، ص ٣٦٦ - ٣٦٧ .

(٢) المصدر نفسه : جـ١٢ ، ص ٣٦٨ .

(٣) بلد معروف مشهور ، بما وراء النهر ، وهو قصبة الصغد . انظر : مراصد الاطلاع : جـ٢ ، ص ٧٣٦ .

(٤) ابن الاثير : جـ١٢ ، ص ٣٦٨ .

(٥) النجوم الزاهرة : جـ٧ ، ص ٥١ .

(٦) انظر : المصدر نفسه : جـ٧ ، ص ٥٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لسائل الدمع عن بغداد إخبارُ ... فما وقوفك والأحباب قد ساروا
يازائرين إلى الزوراء لا تفدوا ... فما بذاك الحمى والدار ديّار
تاج الخلافة والربع الذى شرُفت ... به المعالم قد عفّاه إقفار
أضحى لعطف البلى في ربعه أثر ... وللدموع على الآثار آثار
تسفي السوافي عليه بعد ساكنه ... نجلُ الغلايف من يُخشى ويُختار (١)

يتحدث الشاعر عن بغداد ، وكأنها طلل بال ، عفت آثاره ، ورحل سكانه . فقد استباحها التتار أربعين يوما ، وأنزلوا بأهلها أنواع الشدائد لاستخراج الاموال منهم " وقتلوا الرجال والنساء والصبيان والأطفال ، فلم يبق من أهل البلد ، ومن التجأ إليهم من أهل السواد إلاّ القليل "(٢) . قال ابن كثير : " وقد اختلف الناس في كمية من قتل ببغداد من المسلمين في هذه الواقعة ، فقيل ثمانمائة ألف ، وقيل ألف ألف وثمانمائة ألف ، وقيل بلغت القتلى ألفي ألف نسمة "(٣) . ولم ينس التتار بغداد من الحريق ، فأحرق معظم البلد ، وجامع الخليفة وما يجاوره ، واستولى الخراب على البلد(٤) ، " وأحرقت كتب العلم التي كانت بها من سائر العلوم والفنون ، والتي ما كانت في الدنيا "(٥) . كل هذا دفع الشاعر الى التفجع على بغداد ، ووصف ما حلّ بأهلها من ألوان العذاب ، قال :

---

(١) تاريخ الاسلام : احداث سنة ٦٥٦ ، ص ٢٤٦ ، درة الاسلاك : جـ١ ، ص ٢٥ ، والفرد بالبيت الاخير ، النجوم الزاهرة : جـ٧ ، ص٥١-٥٢ ، تاريخ الخلفاء : ص٤٧٣ ، شذرات الذهب : جـ ٥ ، ص٢٧١ ، ونشر القصيدة عن تاريخ الذهبي المستشرق سوموغي ، في مجلة D.S.O.S مجلة : ٧ ، ص ٤٣-٤٤ .

(٢) الحوادث الجامعة : ص ٣٢٦ ، وانظر : ص ٣٣١ .

(٣) ابن كثير : جـ١٣ ، ص ٢٠٢ .

(٤) الحوادث الجامعة : ص ٣٣٠ .

(٥) النجوم الزاهرة : جـ٧ ، ص ٥١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يا نار قلبي من نار لحرب وغـــى ... شُبّت عليه ، ووافى الربع إعصـــار
علا الصليب على أعلى منابرهـــا ... وقام بالأمر من يحويه زنـــار
وكم حريم سبته الترك غاصبـــة ... وكان من دون ذاك الستر أستار
وكم بدور على البدرية(١) انخسفت ... ولم يعد لبدور منه إبـــدار
وكم ذخائر أضحت وهي شائعـــة ... من النهاب وقد حازته كفـــار
وكم حدود أقيمت من سيوفهـــم ... على الرقاب وحُطّت فيـــه أوزار(٢)

لقد كان للغزو المغولي عنف الاعصار وشدته ، فأحرق بغداد ، وأحرق معها قلب الشاعر حزنا وأسى . وقد عدد الشاعر ألوان العذاب التي حلّت ببغداد ، وهي : سبي النساء اللواتي لم يعرفن الاّ الستر والصون ، وقتل العلماء الذين كانوا كالبدور ، يهدون الناس الى الخير ، ونهب الأموال واستخراجها من الناس ، والقتل الذي رأى فيه الشاعر إقامة للحد على أهل بغداد ، وفي هذا إشارة الى ما كانوا فيه من معصية الله ، فجاءهم القتل كفارة عن ذنوبهم ! ولا يملك الشاعر نفسه ، وقد تراءت له مواكب المسلمات سبايا بين أيدي الكفار ، فيصرخ بأعلى صوته قائلا :

نادبت والسبي مهتوك(٣) يجرّهـــم ... إلى السّفاح من الأعداء دُعّـــار
وهم يساقون للموت الذي شهدوا ... النار يا رب (من هذا) ولا العار(٤)

فكأنما كان الشاعر يتمنى لو أحرقت تلك النساء ، وقضين قبل أن يمسهن الأذى ، ويقعن في الأسر .

---

(١) مجلة في الجانب الشرقي من بغداد . انظر : الحوادث الجامعة : ص٢ ، حاشية رقم ١ .
(٢) تاريخ الاسلام : احداث سنة ٦٥٦ ص ٢٤٩ ، النجوم الزاهرة : جـ٧ ، ص ٥٢ .
(٣) في B.S.O.S ، ص ٤٤ : صهتوك . وهو خطأ مطبعي أو خطأ في التحقيق .
(٤) تاريخ الاسلام : احداث سنة ٦٥٦ ص ٢٤٩ ، النجوم الزاهرة : جـ٧ ، ص ٥٢ . وما بين القوسين فيه بياض ، وتتمته من تاريخ الاسلام .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثم يقف الشاعر موقف المتفكر في أسباب هذا البلاء الذى نزل ببغداد ، فيرى أن الترف الذى غرق فيه أهلها ، ولعله يقصد أكابر القوم فيها ، أدى بهم إلى الغفلة عن حقوق الله ، وإهمال جانبه ، فجاءهم الانتقام على يد جبابرة المغول[1] . وما حل ببغداد ، إن هو إلاّ انذار لغيرها من البلاد . قال :

والله يعلم أن القوم أغفلهم ... ما كان من نعم فيهن إكثار
فأهملوا جانب الجبار إذ غفلوا ... فجاءهم من جنود الكفر جبار
يا للرجال لأحداث تحدثنا ... بما غدا فيه إعذار وإنذار[2]

ويبلغ الحزن بالشاعر مداه ، عندما يصور القيامة وقد حدثت في بغداد ، ومظهرها أسر بني العباس ، وسبي آل النبي وأهل العلم ، وكأنه بذلك يلتمس لنفسه العذر في أن تسودّ الدنيا في عينيه ، ويفقد الأمل في الحياة والرغبة في البقاء بعد ذهابهم . قال :

من بعد أسر بني العباس كلهم ... فلا أنار لوجه الصبح إسفار
لم يبق للدين والدنيا وقد ذهبوا ... شوق[3] لمجد وقد بانوا وقد باروا
إن القيامة في بغداد قد وجدت ... وحدها حين للإقبال إدبار
آل النبي وأهل العلم قد سبيوا[1] ... فمن ترى بعدهم تحويه أمصار
ما كنت آمل أن أبقى وقد ذهبوا ... لكن أنت دون ما أختار أقدار[4]

* * *

---

(١) انظر رسالة هولاكو الى قطز : المقريزى : جـ١ ، ق٢ ، ص ٤٢٧ .

(٢) تاريخ الاسلام : احداث سنة ٦٥٦ ، ص ٢٤٩ ، وانظر: النجوم الزاهرة : جـ٧ ، ص ٥٢ .

(٣) في B.S.O.S ص ٤٤ : سوق .

(٤) تاريخ الاسلام: احداث سنة ٦٥٦ ، ص ٢٤٩ - ٢٥٠ ، وانظر: النجوم الزاهرة : جـ٧ ، ص ٥٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إن مما يلفت النظر في هذه القصيدة ، خلوّها من الاستنجاد وطلب النصرة ، أو الدعوة الى الجهاد ، وربما كان ما قاله ابن الأثير ، قبل سقوط بغداد بسنوات ، في وصف حال المسلمين ، منطبقا على حالهم عند سقوطها . فبعد أن وصف تكالب الفرنجة الصليبيين ، والمغول عليهم ، بين أن الذى سلم من المسلمين من أذى هذين العدوين ، " فالسيف بينهم مسلول ، والفتنة قائمة على ساق ، فانا لله وانا اليه راجعون ، فان الناصر والمعين والذاب عن الاسلام معدوم "(١) . ويبدو أن الشاعر كان على وعي بهذه الحقيقة ، فلم يكلف نفسه عناء إطلاق صرخة استنجاد ، أو طلب عون .

ومن الشعراء الذين وصفوا نكبة بغداد ، ورثوا الخلافة الاسلامية ، الشاعر شمس الدين الهاشمي الكوفي . وله في المصادر التي اطلع عليها الباحث ثلاث قصائد ، وأبيات متفرقة . وقد نهج الشاعر الكوفي في قصائده أسلوبا رمزيا ، فلم يتحدث حديثا مباشرا عن بغداد وما حلّ بها ، والخلافة وما أصابها ، كابن أبي اليسر التنوخي ، وانما صوّر نفسه في صورة عاشق فارق أحبابه ، فوقف على ديارهم يناجيها ، ويسألها عن ساكنيها ، ويبثها أحزان قلبه . قال :

عندى لأجل فراقكم آلام ... فلإلام أُعذَل فيكم وأُلام
من كان مثلي للحبيب مفارقا ... لا تعذلوه فالكَلام كِلام
نعم المساعد دمعيَ الجارى على ... خدّي إلاّ أنه نمّام
ويُذيب روحي نوْح كل حمامة ... فكأنما نوح الحَمام حِمام
إن كنتَ مثلي للأحبّة فاقدا ... أو في فؤادك لوعة وغرام
قف في ديار الظاعنين وناد ها ... "يا دار ما فعلت بك الأيام"
أعرضت عنك لأنهم مذ أعرضوا ... " لم يبق فيك بشاشة تستام "(٢)

---

(١) ابن الاثير : جـ١٢ ، ص ٣٦٠ - ٣٦١ .

(٢) فوات الوفيات : جـ٢ ، ص ٢٣٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهو في هذه الأبيات يصف حزنه ودموعه ، ويستثير من كان على شاكلته ممن فقد الأحبة ، ويستوقف على أطلالهم ، ويبين كيف غدت ديارهم بعد الرحيل مصدرا للهم والحزن ، بعد أن كانت مبعث سرور ، ثم يخاطب الديار متسائلا عمن كان فيها من السكان ، وعمّا كانوا فيه من العز والنعيم وبهنا ما كان لفقدانهم من أثر في الاسلام . وهذه الإشارة تكشف حقيقة ما رمى إليه الشاعر من التفجع على الخلافة وزوال سلطانها . قال :

يا دار أين الساكنون وأين ذيّا ك البهاء ، وذلك الإعظام ؟
يا دار أين زمان ربعك مونقا وشمارك الإجلال والإكرام ؟
يا دار مذ أفلت نجومك عنّنا والله من بعد الضياء ظلام
فلبعدهم قَرُبَ الردى ، ولفقدهم فُقد الهدى ، وتزلزل الاسلام
فمتى قبلت من الأعادي ساكنا بعد الأحبّة لا سقاك غمام (١)

وهنا في البيت الأخير يكاد الشاعر يصرّح بما يريد ، ويكاد يعلن حزنه صراحة ، على ما حلّ بالإسلام ، بانهيار صرح الخلافة ، ومقتل كثير من العلماء ، وآل البيت ، وربما حال بين الشاعر والتصريح برثاء الخلافة ، أنه كان يعيش في بغداد تحت ظلّ الحكم المغولي ، مما قد يعرضه للأذى .

ويتابع الشاعر قصيدته بمخاطبة من رحل عن بغداد ، ومن قتل فيها ، بأسلوب عاطفي حزين ، معبرا عن الولاء الدائم لدولة الخلافة المنقضية ، وتمني الموت بعد زوالها ، والضيق بحوادث الأيام التي نزلت ببغداد ، فتشتت شمل أهلها ، وانقطعت أخبار بعضهم عن بعض . قال :

يا سادتي أما الفؤاد فشيّق قلق وأما أدمعي فسجام
والدار مذ عدمت جمال وجوهكم لم يبق في ذاك المَقام مُقام
لا حَظّ فيها للعيون وليس للأقدام في عرصاتها إقدام

---

(١) فوات الوفيات : جـ٢ ، ص ٢٣٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وحياتكم إني على عهد الهوى ... باق ولم يخفر لدى ذمام
قدمي حلال إن أردت سواكم ... والعيش بعدكم علي حرام
يا غائبين وفي الفؤاد لبعدهم ... نار لها بين الضلوع ضرام
لا كتبكم تأتي ولا أخباركم ... تروى ولا تدنيكم الأحلام
أقصتكم الدنيا عليّ وكلما ... جدّ النوى لعبت بي الأسقام
ولقيت من صرف الزمان وجوره ... ما لم تخيله لي الأوهام
يا ليت شعري كيف حال أحبّتي ... وبأيّ أرض خيّموا وأقاموا
ما لي أنيس غير بيت قاله ... صب رمته من الفراق سهام
"والله ما اخترت الفراق وإنما ... حكمت عليّ بذلك الأيام"(١)

يلفت النظر في هذه القصيدة ، ما فيها من الحزن العارم ، واليأس المطبق ، الذي سيطر على الشاعر ، فهو لا يختمها بطلب النصرة ، أو الحض على الجهاد ، أو استثارة الحمية ، وكأن الدنيا قد انتهت ، وتوقف الزمن عند سقوط بغداد .

والقصيدة الثانية التي وصف فيها الشاعر الكوفي نكبة بغداد ، ورثاها فيها ، تجرى على المنوال نفسه ، باتباع الأسلوب الرمزي ، والوقوف على الأطلال ، والشكوى من الزمان . قال :

إن لم تقرّح أدمعي أجفاني ... من بَعْد بُعْدكم فما أجفاني
إنسان عيني مذ تناءت داركم ... ما سرّه نظر إلى إنسان
ياليتني قدْ مِتُّ قبل فراقكم ... ولساعة التوديع لا أحياني
ما لي وللأيام شتت صرفها ... حالي وخلاني بلا خِلّان
ما للمنازل أصبحت لا أهلها ... أهلي ولا جيرانها جيراني
وحياتكم ما حلّها من بعدكم ... غير البلى والهدم والنيران
ولقد قصدت الدار بعد رحيلكم ... ووقفت فيها وقفة الحيران

---

(١) فوات الوفيات : جـ٢ ، ص ٢٣٢ - ٢٣٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وسألتها لكن بغير تكلّم ... فتكلمت لكن بغير لسان
ناديتها يا دار ما صنع الألى ... كانوا هم الأوطار في الأوطان
أين الذين عهدتهم ولمزّهم ... ذلاً تخر مماقد التيجان
كانوا نجوم من اقتدى فعليهم ... يبكي الهدى وشعائر الإيمان (١)

إنّ الذى يملكه الشاعر في مواجهة نكبة بغداد ، هو البكاء الذى يقرّح الأجفان ، والإعراض عن الابتهاج برؤية البشر بعد الخليفة وآله . وتمني الموت قبل حدوث النكبة ، ثم الشكوى من حال الزمان ، والاحساس بالغربة . فقد أنكر الدار وأهلها ، لما حل فيها من الخراب ، بوقوعها في قبضة المغول ، ويسأل الشاعر الديار عن أهلها الذين كان لهم العز فيها . ويكاد يصرّح بذكرهم في البيتين الأخيرين ، حيث من الواضح أنه يتحدث عن الخليفة . ويبيّن في البيت الأخير الثلمة التي أصابت الإسلام بسقوط الخلافة ، مما أثار بكاء الهدى وشعائر الإيمان .

ويتابع الشاعر حديثه عن نكبة بغداد ، فيستنطق الديار لتخبر عما حلّ بأهلها ، من تبدد الشمل ، والفناء والهوان ، وتلك هي سنة الله في خلقه فقبلهم فني صاحب الإيوان ، وزالت دولة الأكاسرة ، قال مبينا جواب الدار على سؤاله عن أهلها :

قالت غدوا لما تبدد شملهم ... وتبدلوا من عزّهم بهوان
كَم الفصاد يراق أرذل موضع ... أبداً ، ويخرج من أعز مكان
أفنتهمُ غِيَر الحوادث مثلما ... أفنت قديما صاحب الإيوان (٢)

ويبدو أن الشاعر قد نبا به الذوق ، حين استساغ تشبيه الخليفة وآله ، ومن قتل من أهل بغداد ، بدم الفصاد .

---

(١) فوات الوفيات : جـ٢ ، ص ٢٣٤ .
(٢) المصدر نفسه : جـ٢ ، ص ٢٣٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولا يملّ الشاعر من الوقوف على الديار ، والتجول في جنباتها ، ولثم ما تهدم من أركانها ، شوقا إلى من رحل عنها . وهو في ذلك يبكي بكاء جعل كلّ من رآه يرثي له :

لما رأيت الدار بعد فراقهم ... أضحت معطلة من السكان
ما زلت أبكيهم وأندم وحشة ... لجمالهم مستهدم الأركان
حتى رثى لي كل من ما وجده ... وجدى ، ولا أشجانه أشجاني (١)

ويتمنى الشاعر للحظات أن يعود ما مضى من الزمان ، ولكنه يفيق من سنة الحلم ، ويعلن أن ذلك الأمر بعيد المنال ، فيغرق في التفجع والبكاء ، والسؤال الحائر الذى لا يجد جوابا ، عن المصير الذى آل إليه الراحلون عن بغداد . قال :

أترى تعود الدار تجمعنا كما ... كنّا بكل مسرة وتهان ؟
إذ نحن نغتنم الزمان ونجتني ... بيد الأمان قطوف كل أمان
والدهر تخدمنا جميع صروفه ... والوقت يمدينا على العدوان
والعيش غض ، والدنو ممزق ... بيد الوصال ملابس الهجران
هيهات قد عز اللقاء ولا أرى الأحباب بين جماعة الإخوان
والهفتي ، وواحدتي ، واحيرتي ... واوحشتي ، واحرّ قلبي العاني
سرتم فلا سرت النسيم ولا زها ... زهر ، ولا ماست غصون البان
مالي أنيس بعدكم غير البكى ... والنوح والحسرات والأحزان
يا ليت شعرى أين سارت عيسكم ... أم أين موطنكم من البلدان ؟ (٢)

---

(١) فوات الوفيات : جـ٢ ، ص ٢٣٤ .

(٢) المصدر نفسه : جـ٢ ، ص ٢٣٤ - ٢٣٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويبدو أن الحزن والدموع ، والذهول والحيرة ، التي تمثلت بكثرة استعمال الشاعر لأساليب الاستفهام والتمني والنداء ، سيطرت على ذهن الشاعر وقلبه ، وارتبطت ببغداد التي عظمت نكبتها في نفسه ، بحيث خيل إليه أنها لم تغادر أحدا من الناس ، لم يصبه طرف منها ، قال في قصيدته الثالثة في رثاء بغداد :

بانوا ولي أدمع في الخدّ تشتبكُ ... ولوعة في مجال الصدر تعتركُ
بالرغم لا بالرضا مني فراقهم ... ساروا ولم أدر أيَّ الأرض قد سلكوا
يا صاحبي ما احتيالي بَعْد بُعْدهم ... أشر عليّ فإن الرأي مشترك
عزّ اللقاء وضاقت دونهم حيلي ... فالقلب في أمره حيران مرتبك
يعوقني عن مرادي ما بُليت به ... كما يعيق جناحي طائر شرك
أروم صبرا وقلبي لا يطاوعني ... وكيف ينهض من قد خانه الوَرِك
إن كنت فاقد إلف نُحّ عليه معي ... فإننا كلّنا في ذاك نشترك
يا نكبة ما نجا من صرفها أحد ... من الورى فاستوى المملوك والملك
تمكنت بعد عزٍّ في أحبتنا ... أيدي الأعادي فما أبقوا ولا تركوا
لو أن ما نالهم يفدى فديتهم ... بمهجتي وبما أصبحت أمتلك (١)

لقد عبر الشاعر في هذه الأبيات عن العجز الذي كان يحسه في نفسه ، والعجز الذي كان يراه في المسلمين من حوله ، وأحس بأنه كان يجد في نفسه الرغبة في الانتقام من المغول ، ولكنه مقيد كالطائر الذي وقع في الشرك . وبيّن كذلك فظاعة النكبة التي حلّت ببغداد ، على يد المغول الذين كنى عنهم بلفظ الأعادي الذين لم يبقوا ولم يتركوا أحدا من أهلها سالما من أذاهم .

وبيّن الشاعر ما حل بالاسلام بعد زوال الخلافة ، من سفك دماء المسلمين ، وإقفار بغداد ، وغيرها من المدن التي سقطت في أيديهم ، من الهدى . ويبدو أن الفجيعة بزوال الخليفة ، كانت أعظم من قدرة الشاعر على التحمل ، ولذلك

---

(١) الحوادث الجامعة : ص ٣٣٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لا يمل من تكرار السؤال عن الخليفة ومن قتل معه . وهو بلا شك يعلم الجواب، إلاّ أن مشاعره وأحاسيسه ، لم تكن لتتقبله . فنراه يسأل ويسأل ، وكأنه يجد العزاء في هذا الأسلوب . قال :

ربع الهداية أضحى بَعْد بُعْدهم ... معطلا ودمُ الاسلام منسفك
أين الذين على كل الورى حكموا ... أين الذين اقتنوا أين الألى ملكوا
وقفت من بعدهم في الدار أسألها ... عنهم وعما حووا فيها وما ملكوا
أجابني الطلل البالي ، وربعهم الخالي ، نعم ها هنا كانوا وقد هلكوا
لا تحسبوا الدمع ماءً في الخدود جرى ... وإنما هو روح الصبِّ تنسبك (١)

* * *

ان مما يلفت النظر في قصائد الشاعر الكوفي ، هو احساسه بأنه قد نزلت بالإسلام ضربة قاصمة ، لم يكن يرجو منها خلاصا ، ولذلك سيطرت على شعره الصور ذات الايحاءات اليائسة : مثل : الطلل البالي ، الربع الخالي ، والقوم الراحلين الذين لم تعرف اخبارهم ، وهذا ينبيء عن هول الصدمة التي نزلت بالمسلمين ، بسقوط الخلافة ، من جهة ، وبالضعف الذى كان يستشرى فيهم من جهة أخرى .

وقد صور الشاعر الكوفي ما أصاب أهل بغداد أحياء وأمواتا من الأذى ، فالاحياء قتلوا ، والأموات نبشت قبورهم ، وأحرقت عظامهم . قال :

إن ترد عِبرة فتلك بنو العبّاس حلّت عليهم الآفات
استبيح الحريم إذ قُتل الأحياء منهم ، وأُحرق الأموات (٢)

---

(١) الحوادث الجامعة : ص ٣٣٤-٣٣٥ .

(٢) المصدر نفسه : ص ٣٣٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأشار في بيتين آخرين إلى تآمر الوزير ابن العلقمي[١] ، على الخلافة الاسلامية ، ومكاتبته للمغول من أجل القدوم إلى بغداد ، وكيف كانت صيرورة الوزارة إليه امرا عجيبا أدى الى هلاك الخليفة . قال :

يا عصبة الإسلام نوحوا واندبوا ... حزنا على ما حل بالمستعصم
دست الوزارة كان قبل زمانه ... لابن الفرات[٢] ، فصار لابن العلقمي[٣]

* * *

وقد أسهم في رثاء بغداد ، وتسجيل نكبتها شعراء مسلمون من مختلف ديار الإسلام ، فبالإضافة إلى شمس الدين الكوفي ، العراقي ، رثاها الشاعر التنوخي ، الشامي ، والشاعر سعدى الشيرازى الفارسي . وقد فعل ذلك بالعربية والفارسية[٤] . وسيطر عليه ما سيطر على كل من التنوخي والكوفي من الذهول وعدم القدرة على استيعاب الأحداث ، ونراه يصف إحساسه وتأثره بنكبة بغداد ، فيقول :

حبست بجفني المدامع لا تجرى ... فلما طغى الماء استحلال على السّكر[٥]
نسيم صبا بغداد بعد خراجها ... تمنيت لو كانت تمرُّ على قبرى[٦]

---

(١) انظر : محنة الاسلام : ص ١٥٦ - ١٧٦ ، حيث ناقش الأقوال المختلفة في موقف ابن العلقمي من نكبة بغداد.

(٢) وزر للمقتدر بالله أكثر من مرة . ولد سنة ٢٤١ وتوفي سنة ٣١٢ . انظر : ابن خلكان : جـ٣ ، ص ٤٢١ .

(٣) الحوادث الجامعة : ص ٣٣٥ ، وورد ا غير منسوبين في : ابن كثير : ١٣ : ص ٢١٣ ، تاريخ الخلفاء : ص ٤٧٢ ، شذرات الذهب : جـ٥ ، ص ٢٧١ .

(٤) انظر : براون : ص ٤١ ، العزاوى : جـ١ ، ص ٣٠٤ .

(٥) السّكر : ما يسدّ به النهر : انظر اللسان : جـ٤ ، ص ٣٧٥ .

(٦) حسين محفوظ : ص ٧٣ ، وانظر : العزاوى : جـ١ ، ص ٣٠٤ . حيث يشير إلى أن القصيدة موجودة في ديوان سعدى باللغة العربية ، المخطوط ، الموجود عنده . ويذكر أن القصيدة نشرت بكاملها في مجلة اليقين : جـ١ ، ص ٤٩٣ - ٥٠٠ . وقد نشرها أيضا الدكتور حسين محفوظ ضمن بحث له بعنوان : سعدى الشيرازى خريج بغداد في العصر العباسي الأخير . في مجلة كلية الآداب ، جامعة بغداد . عدد : ٦ ، نيسان ، ١٩٦٣ ، ص ١٧٤ - ١٧٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهذا يظهر محاولة كف الشاعر لدموعه عن الجريان ، حزنا وأسى ، إلاّ أن ثقل النكبة ، وضخامة المصيبة ، أجرى تلك الدموع . والذى يلفت النظر في الشعر الذى وصل إلينا في رثاء بغداد ، هو تمني الشعراء الموت قبل وقوع الكارثة ، لا الموت دفاعا عن بغداد ، أو سعيا من أجل تخليصها من المعتلين . وفي هذا دلالة على العجز الذى قيّد عزائم المسلمين ، والضعف الذى استشرى في مجتمعهم ، وامتد الى نفوسهم .

ويصوّر الشاعر نفسه وقد أصابه المرض ، لشدة حزنه على بغداد ، وجاء طبيب يداويه ، فزجره ، وبين له أن ما به من العلة لا دواء له عند الطبيب ، ولا علاج له بالصبر . لأن ما حل بالخلافة داء لا برء له !! قال :

زجرت طبيباً جسّ نبضي مداويا ... إليك فما شكواى من مرض تُبرى
لزمت اصطباراً حيث كنتُ مفارقا ... وهذا فراقٌ لا يعالج بالصبر ! (١)

ووصف الشاعر بايجاز ما حل ببغداد وأهلها من العذاب ، وبيّن أن ذكر ما حدث يوم حصارها غير مستطاع ، واكتفى بايراد صورة موحية لذلك ، فقال إن رؤوس الموت أديرت فيها ، وتمايلت رؤوس أهلها ، تمايل رؤوس السكارى ، وكان لعموم الفناء فيها ، صدى في مكة التي أصبحت ثكلى بزوال الخلافة ، فسكبت الكعبة دموعها من الميزاب الذى يصب في حجر إسماعيل . وبكت على ما حل ببغداد المدرسة المستنصرية ، التي خلت من العلماء الراسخين ، كما بكت عليهم المحابر التي كانوا يستخدمونها في الكتابة . قال :

تسائلني عما جرى يوم حصرهم ... وذلك مما ليس يدخل في الحصر
أديرت كؤوس الموت حتى كأنه (!) ... رؤوس الأسارى (٢) ترجحن من السكر
لقد ثكلت أم القرى ، والكعبة ... مدامع في الميزاب تُسكب في الحجر
محابر تبكي بعدهم بسواد ما ... وبعض قلوب الناس أهلك من حبر (٣)

---

(١) حسين محفوظ : ص ٧٣ .

(٢) لعلها : السكارى . وترجحن : تهتز . انظر : اللسان : جـ١٣ ، ص٧٦ .

(٣) حسين محفوظ : ص ٧٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ووصف سعدى شدة حزنه على بغداد ، فشبه نفسه بالخنساء في بكائهـــا على أخيها صخر ، ويردُّ على من نصحه بالصبـــر ، بأنه لا موضع له والنار تشـــتعل في الأكباد ، لما حدث في بغداد . قال :

مررت بصمّ الراسيات أجوبهـــــا ... كخنساءَ من فرط البكاء على صخر
أيا ناصحي بالصبر دعني وزفرتـــي ... أموضع صبر والكُبود على الجمـــر؟ (١)

ووقف الشاعر عند عباد ان (٢) ، يرقب نهر دجلة ، فوجد مياهه مصبوغة بالدماء لكثرة ما قتل من المســلمين ، ويذكر ما حل بواسط (٣) من القتل والسبي والنهـــب ، فيزداد حزنا على حزن ، ولم يجده ذلك في تخفيف الألم واللوعة . قال :

وقفت بعبّاد ان أرقب دجلـــةً ... كمثل دمٍ قانٍ يسيل إلى البحـــر
وفائق دمعي في مصيبة واســـطٍ ... يزيد على مدّ البحيرة والجـــزْر!
فَجَرْتُ مياه العين فازدادت حرقـة ... كما احترقت جوف الدماميل بالفَجْر
ولا تسألنّي كيف قلبك والنـــوى ... جراحة قلبي لا تَبيّنُ بالسـبر (٤)

ويرى الشاعر أن نكبة بغداد خرق لا يرجى له صلاح . وجرم لا كفارة لـــه ، فلو عاد العمران إليها ، وزال عن الناس ما نزل بهم من السوء ، فإن المصيبـــة ببني العباس لا تعوض ، وهنا يلجأ الشاعر إلى تعزية نفسه بذكر بنوءة الرسول صلى الله عليه وسلم التي قال فيها : " بدأ الإسلام غريبا ، وسيعود غريبا كما بـــدأ " (٥) ويتساءل إن كان هناك غربة أشد ، وقد سيقت المسلمات سبايا الى ديار الكفـــر؟ قال :

---

(١) حسين محفوظ : ص ٧٣ .

(٢) جزيرة في فم دجلة البصرة ، وفيها بليدة . انظر : مراصد الاطلاع : جـ٢ ، ص٩١٢ .

(٣) مدينة بين البصرة والكوفة ، انظر : مراصد الاطلاع : جـ٣ ، ص١٤١٩ .

(٤) حسين محفوظ : ص ٧٣ .

(٥) صحيح مسلم : جـ١ ، ص١٣٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهب أن دار الملك ترجع عامرا ... ويغسل وجه العالمين من الغبر
فأين بنو العباس مفتخرو الورى ... ذوو الخلق المرضي والغرر الزهر
غدا سمرا بين الأنام حديثهم ... وذا سمر يدمي المسامع كالسمر (١)
وفي الخبر المروي دين محمد ... يعود غريبا مثل مبتدأ الأمر
أأغرب من هذا يعود كما بدا ... وسبي ديار المسلم في بلد الكفر؟ (٢)

ويعصف الحزن على الخليفة في نفس الشاعر ، فيتمنى أن يتوقف نهر دجلة عن الجريان ، وأن تجف الأعشاب الخضراء على ضفافه ، ثم يبيّن أن الحزن على ما حل ببغداد لم يقتصر على البشر ، فقد شارك في النواح عليها ما في الصحراء العربية من شجر السَّمُر والغضى ، ونبات الشّيح ، التي نقل إليها أخبار المأساة ، الغربان النائحة على بغداد . قال :

فلا انحدرت بعد الخلائف دجلة ... وحافاتها لا أعشبت ورق الخُضْر
بكت سمُرات البيد والشيحُ والغضى ... لكثرة ما ناحت أغاربه القفر (٣)

ويذكر الشاعر الخليفة المستعصم ، ثم يبيّن أنه لا يطيق سماع غلبة لا يكون فيها ذكره ، والدعاء له . ويورد صورة تدل على ما كان يحس به من الرغبة في الثورة على الواقع الذى انحدر إليه المسلمون ، فأعطى صورة لضفادع تلعب حول الماء فرحة بما هي فيه ، وقابل هذه الصورة بصورة النبي يونس الذى التقمه الحوت واستقر به في قعر البحر (٤) ، وقال : إن هذا أمر لا يمكن السكوت عليه . وربما كان يشير بهذا إلى أن الضفادع هم المغول أو أعداء الخليفة الذين أحسوا بالفرح لزوال دولته ، وأشار إلى الخليفة بيونس ، لتصوير شدة المحنة التي وقع فيها . ويورد صورة لبغداد وقد امتلأت بالغربان ، فلزمت العنقاء وكرها . والغربان هنا ، هم المغول ، والعنقاء هو الخليفة ، قال :

---

(١) السَّمْر : شدك شيئا بالمسمار . انظر : تاج العروس : جـ٣ ، ص ٢٧٨ .
(٢) حسين محفوظ : ص ٧٤ .
(٣) المصدر نفسه : ص ٧٤ .
(٤) انظر : قصة يونس : سورة الانبياء : آية ٨٧-٨٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أيذكر في أعلى المنابر خطبة ... ومستعصم بالله لم يك في الذكر؟
ضفادع حول الماء تلعب فرحة ... أصبر على هذا ويونس في القعر؟
تزاحمت الغربان حول رسومها ... فأصبحت الحنقاء لازمة الوكر (١)

ويخص الشاعر بالذكر ابن الخليفة ، أحمد (٢) ، الذى قتل في واقعة بغداد ، ويبشره بما أعد الله له من النعيم في الجنة ، ويُعزّيه عما أصابه من العذاب قبل الموت ثم يعمم تحيته وسلامه على كل من نال الشهادة في بغداد على يد التتار. قال :

أيا أحمد المحموم لست بخاسر ... وروحك والفردوس عسر مع اليسر
وجنات عَدْنٍ وُشّفت بمكاره ... فلا بد من شوك على فنن البسر (٣)
تهنأ بطيب العيش في مقعد الرضى ... ودع جيف الدنيا لطائفة النسر
ولا فرق ما بين القتيل وميّتٍ ... إذا قمت حيّا بعد رمسك والنضر
تحيةُ مشتاق وألفُ ترحّم ... على الشهداء الطاهرين من الوزر
هنيئا لهم كأس المنية مترعاً ... وما فيه عند الله من عِظَم الأجر
فلا تحسبنّ الله مخلف وعده ... بأن لهم دار الكرامة والبشر
عليهم سلام الله في كل ليلة ... بمقتل زوراءٍ (٤) إلى مطلع الفجر (٥)

ويورد سعدى الشيرازى بعض مشاهد المأساة التي حدثت ببغداد ، ليبين فظاعتها ويظهر انفعاله مع هذه المشاهد ، فيتمنى لو أصيب بالصمم قبل استماع نبأ سبي المسلمات ، وهتك أستارهن ، وقيام الساعة في بغداد ، يوم أسر أهلها ، وارتفعت الأصوات بالاستنجاد ، ولا مغيث إذ كان حال المسلمين

---

(١) حسين محفوظ : ص ٧٤ .
(٢) انظر : الحوادث الجامعة : ص ٣٢٧ .
(٣) البسر : التمر قبل أن يرطب . انظر : اللسان : جـ٤ ، ص ٥٨ .
(٤) اسم لدجلة ببغداد ، ومدينة المنصور ببغداد . انظر : المشترك : ص ٢٣٥ .
(٥) حسين محفوظ : ص ٧٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مع المغول كحال عصفور بين يدى صقر لا نجاة له . ويصف ما حل بأبناء السادة ، الذين كان لهم العز فيما مضى ، من الأسر حيث باعهم المغول رقيقا . قال :

فليت صماخي صمّ قبل استماعه ... بهتك أستار المحارم في الأسر
عدون سبايا سبسباً بعد سبسبٍ ... رخائمُ لا يسطعن مشياً على الحَبْر
لعمرك لو عاينت ليلة نفرهم ... كأن العذارى في الدجى شهب تسرى
وإن صياح الأسر يوم قيامة ... على أم شُعثٍ تساق إلى الحشر
ومستصرخ يا للمروءة فانصروا ... ومن يصرخ العصفور بين يدى صقر ؟
يساقون سوق المَعْزِ في كبد الفلا ... عزائزُ قومٍ لا تعوّدنَ بالزجر
جُلبن سبايا سافرات وجوههـا (!) ... كواعب لا يبرزن من خَلَل الخدر
وعترة قنطوراء(١) في كل منزل ... تصيح بأولاد البرامك(٢) من يشري ؟
تقوم وتجثو في المحاجر واللوى ... وهل يختفي مشي النواعم في الوعر(٣) ؟

ويكشف الشاعر عما أصابه من الذهول والحيرة ، وتعطل القدرة على التمييز بين الأمور لشدة وقع النكبة على نفسه ، ويصور فتنة المغول بأنها فتنة عامة ، كالنار التي تتأجج وتنتقل من قطر إلى قطر ، وكأن أولئك المغول من مردة الشياطين ، الذين قيدهم سليمان بن داود عليه السلام(٤) ، انطلقوا وأسالوا على بغداد عينا من النحاس المذاب فأحرقها . وقد كان لجحافلهم غبار ارتفع حتى جعل على وجه البدر ركاما لا يزول ، فأصيب بالخسوف الدائم . قال :

لقد كان فكري قبل ذلك عائزا ... فأُحدث أمرٌ لا يحيط به فكري
وبين يدَيْ صرف الزمان وحكمه ... مضلّلةٌ أيدي الكياسة والخبر
نعوذ بعفو الله من نار فتنةٍ ... تأجّجُ من قطر البلاد إلى قطر

(١) بنو قنطوراء هم الترك والصين . انظر : اللسان : جـ ٥ ، ص ١١٩ .
(٢) هم ابناء برمك ، الذى كان من سلالته يحيى بن خالد البرمكي . انظر : تاج العروس : جـ ٧ ، ص ١٠٩ .
(٣) حسين محفوظ : ص ٧٤- ٧٥ .
(٤) انظر : سورة ص : آية ٣٧- ٣٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كأن شياطين القيود تفلتت ... فسال على بغداد عين من القطر
بدا وتعالى من خراسان قسطل ... فعاد ركاماً لا يزول عن البدر (١)

ويقف الشاعر بعد ذلك متبرما بأحداث الزمان التي قست على المسلمين، ثم بين أن سبب البلاء الذى نزل بهم هو ما اكتسبوه من الإثم، قال :

إلام تصاريف الزمان وجوره ... تكلفنا ما لا نطيق من الإصر
عفا الله عنّا ما مضى من جريمة ... ومنّ علينا بالجميل من الصبر (٢)

لقد تجلى في قصيدة سعدى الشيرازى ما حلّ بالخلافة الاسلامية من الزوال، وخلو دور العلم من العلماء، وكثرة القتلى والسبايا. بحيث أنها تعتبر ذات قيمة تاريخية بالاضافة الى قيمتها الأدبية (٣).

وسجل مأساة بغداد، ووصف ما حلّ بأهلها في ايجاز، أبو شامة المقدسي، في أبيات له ذكر فيها مجموعة من المصائب التي حلت بالمسلمين في ذلك الزمان فقال :

بعد ست من المئين وخمسينَ لدى أربع جرى في العام
نار أرض الحجاز (٤) مع حرق المسجد (٥) معه تخريق دار السلام (٦)
ثم أخذ التتار بغداد في أولّ عام من بعد ذاك بعام
لم يُمَنْ أهلها وللكفر أعوانٌ عليهم يا ضيعة الإسلام
وانقضت دولة الخلافة فيها ... صار مستعصم بغير اعتصام

---

(١) حسين محفوظ: ص ٧٥.

(٢) المصدر نفسه : ص ٧٥- ٧٦.

(٣) انظر رأى عبد الوهاب عزام: مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة: م٨، سنة ١٩٤٦، ص ٧.

(٤) هي نار ظهرت بالقرب من المدينة سنة ٦٥٤. انظر: الذيل على الروضتين: ص ١٩٠- ١٩٣.

(٥) اشارة الى احتراق المسجد النبوى سنة ٦٥٤. انظر: المصدر نفسه: ص ١٩٤.

(٦) اشارة الى فيضان افرق بغداد سنة ٦٥٤. انظر الحوادث الجامعة : ص ٣١٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رب سلم وصن وعـــــاف بقايـــا المـــدن يا ذا الجلال والإكـــــرام
فحنانـــا على الحجـــاز ومصـــــر ، وســـلام على بلاد الشـــــام[1]

ويظهر في أبيات أبي شامة تحسّر على واقع المسلمين ، حيث لم يمدّوا يـــد العون لأهل بغداد ليدفعوا عنهم البلاء الذى وجد فيه التتار أعواناً مـــن أحلافهم[2] ، ويظهر فيها كذلك الخوف من امتداد الغزو المغولي إلى بلاد الشـــام والحجاز ومصـــر . ولا يملك الشاعر الا الدعاء بأن يحفـــظ الله البـــلاد من هـــذا الشرّ الداهم .

* * *

ومن المدن التي تعرضت للأذى المغولي ، ونزلت بها نكبتهم ، مدينـــة حلب . فقد غزتها جيوشهم سنة ٦٥٨ هـ ، وفتحوهـــا بالأمان " ثم غـــــدروا بأهلها ، وقتلوا منهم خلقا لا يعلمهم الا الله عز وجل ، ونهبوا الأموال ، وســـبوا النساء والأطفال ، وجرى عليهم قريب مما جرى على أهل بغداد ، فجاســـــوا خلال الديار ، وجعلوا أعزة أهلها أذلة . . . وامتنعت عليهم القلعة شـــــهرا ، ثم استلموها بالأمان ، وخرب أسوار البلد ، وأسوار القلعة ، وبقيت حلب كأنهـــا حمار أجرب[3] !!!

وقد رثى حلب ووصف ما حل بها الصاحب كمـــال الدين بن العديـــم ، بقصيدة بقي بين أيدينا منها أبيات قليلة[4] ، لا تحمل تفصيلا ، ولكنها تومئ وتشـــير إشارات ذات دلالة . قال :

---

(١) الذيل على الروضتين : ص ١٩٤ .

(٢) انظر : ص ٨٣ مـــن هذه الرسالة .

(٣) ابن كثير : جـ١٣ ، ص٢١٨ ، وانظر : النجوم الزاهرة : جـ٧ ، ص ٧٦ .

(٤) انظر : إعلام النبلاء : جـ٢ ، ص٣١٤ حيث يذكر أنه بحث عن هذه القصيدة كثيرا فلم يجد أكثر مما رواه أبو الفداء .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هو الدهر ما تبنيه كفاك يهدم ... ولئن رمت إنصافا لديه فتظلم
أباد ملوك الفرس جمعا وقيصرا ... وأصمت لدى فرسانها منه أسهم
وأفنى بني أيوب مع كثر جمعهم ... وما منهمُ الا مليك معظم
وملك بني العباس زال ولم يدع ... لهم أثرا من بعدهم ، وهمُ همُ
وأعتابهم أضحت تداس وعهدها ... تباس بأفواه الملوك وتُلثم (١)

لقد كان ما حل بحلب من الضخامة بحيث ذكر الشاعر بما حل بالفرس والروم ، من زوال الملك ، وتحول الحال . ولئن كان القياصرة والأكاسرة من أصحاب الدول التي فنيت من قديم ، فقد رأى الشاعر بنفسه زوال ملك بني أيوب من بلاد الشام مع كثرة عددهم وعظمتهم ، كما عاصر زوال ملك بني العباس الذين انقرض أثرهم ، كما يرى الشاعر ، فلم يبق منهم أحدا . ونزل الذل والهوان بقصورهم التي كان الملوك يقبلون أعتابها . هذه الصور التي تداعت إلى ذهن الشاعر ، كانت مقدمة للحديث عما حل بحلب . قال :

رعن حلب ما شئت قل من عجائب ... أَحَلَّ بها يا صاح إن كنت تعلمُ
... فيا لك من يوم شديد لُخامه ... وقد أصبحت فيه المساجد تُهدم
وقد درست تلك المدارس وارتمت ... مصاحفها فوق الثرى وهي ضُخَّم
... ولكنّما لله في ذا مشيئة ... فيفعل فينا ما يشاء ويحكم (٢)

قدّم ابن العديم لذكر ما حلّ بحلب تعميما يفتح لذهن السامع والقارئ مجالا واسعا من التخيّل ، فقد حلّ بها كل ما يتوقعه الانسان من العجائب. وبقي لنا نماذج من هذا الخراب ، فقد هدمت المساجد ، وخربت المدارس ، وعبث الغزاة بكتبها وألقوا بها إلى الأرض . ويختم الشاعر قصيدته بالرضى بقضاء الله ، الذي له حكمة في كل ما يفعل .

---

(١) ابو الفداء : جـ٣ ، ص ٢١٥ ، ابن الوردي : جـ٢ ، ص ٣٠٨ .

(٢) ابو الفداء : جـ٣ ، ٢١٥-٢١٦ ، ابن الوردي : جـ٢ ، ص ٣٠٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويلقي ضوءا على ما حل بحلب من الخراب ، مقامة للشيخ جمال الدين عمر بن ابراهيم بن الحسين الوسعني[1] ، ذكر فيها ما فعل المغول فقال : " حلبت العيون ماءها على حلب ، وسكبت الجفون دماءها من الصبب ، والتف عليها الختل والاختتال ، واحتف بها القتل والوبال ، .. وتخريب الدور والقصور ... وسما العدوان في عش الإسلام ، ورفعت الصلبان على المساجد ، ووضعت الأديان والمعابد حتى بكى على الوجود الجلمد "[2] . وفي قول الوسعني ، " ورفعت الصلبان على المساجد " إشارة الى التعاون بين النصارى والمغول .

وقد كتب المؤرخ الشاعر ، ابن حبيب[3] ، أبياتا في وصف حال حلب عند سقوطها بيد المغول سنة ٦٥٨ هـ ، وذلك عند كتابته أحداث تلك السنة في تاريخه ، فقال :

حلب خلت من أهلها وتفرقت ... من جيشها بعد النظام جموعُهُ
والقلعة الشهباء أدهمَ حظُّها ... وأبى وتخت الملك حُطَّ رفيعه
وانقضَّ ركن مقامها وتساقطت ... أبراجها والجسر طال خضوعه
والجامع المعمور أصبح مفردا ... ونأى سجود حليفه وركوعه
ومحاسن الأسوار سارت وانطوت ... وذوت أصول بنائه وفروعه
نُثرت عقود الجوهريّ وللشقا ... نجم على السعديّ كان طلوعه
يا أهلها الباقين للبين اصبروا ... فالأمر لله العلي جميعه[4]

---

(١) لم أعثر على ترجمة له .

(٢) ابن الوردي : جـ٢ ، ص ٣٠٨ - ٣٠٩ .

(٣) هو الحسن بن عمر ، الملقب بدر الدين الدمشقي الحلبي ، ولد سنة ٧١٠هـ ، وكان مغرما بالأدب . وله في التاريخ : درة الاسلاك في دولة الاتراك . مات سنة ٧٧٩ . انظر : البدر الطالع : جـ١ ، ص ٢٠٥ .

(٤) درة الاسلاك : جـ١ ، ص ٣٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأبيات ابن حبيب تلقي ضوءا جديدا على نكبة حلب ، فتتمم بعض ما افتقدناه من قصيدة ابن العديم . فقد خلت حلب من أهلها ، وتفرق جيشها ، واصبحت القلعة والأسوار ، وخلا المسجد من عمّاره ، ويشبه ما حلّ بحلب بانقطاع عقد الجواهر، وانتثارها بعد انتظام .

وتعرضت حلب لغزو المغول سنة ٨٠٣ هـ[1] ، عندما أقبل تيمورلنك بجيوشه ، وعاث في بلاد الشام فسادا . فحاصر حلب وحدثت بينه وبين أهلها " حروب كثيرة ومناوشات بالنشاب والنفوط والمكاحل ، وركب أهل حلب أسوار المدينة ، وقاتلوا أشد قتال "[2] . ثم حدثت معركة بين المغول وعساكر نواب الشام ، من المماليك ، واقتتل الفريقان اقتتالا شديدا ، انتهى بانهزام عساكر المماليك ، فلجأوا مع كثير من أهل حلب الى القلعة ، واقتحم عساكر تيمور مدينة حلب " وأشعلوا فيها النار ، وأخذوا في الأسر والنهب والقتل . فهرب سائر نساء البلد والأطفال إلى جامع حلب ، وبقية المساجد ، فمال أصحاب تيمور عليهن ، وربطوهن بالحبال أسرى ، ثم وضعوا السيف في الأطفال ، فقتلوهم بأسرهم ، وشرعوا في تلك الأفعال القبيحة على عادتهم ، وصار الأبكار تفتض من غير تستر ، والمخدرات يفسق فيهن من غير احتشام . يأخذ التترى الواحدة ويملوها في المسجد والجامع ، بحضرة الجم الغفير من أصحابه ومن أهل حلب ، فيراها أبوها وأخوها ، وزوجها وولدها ، ولا يقدر أن يدفع عنها لقلة مقدرته ، ولشغله بنفسه ، بما هو فيه من العقوبة والعذاب . ثم ينزل عنها الواحد ، فيقوم لها آخر ، وهي مكشوفة العورة ، ثم بذلوا السيف في عامة حلب وأجنادها حتى امتلأت الجوامع والطرقات بالقتلى وجافت حلب ، واستمر هذا من ضحوة نهار السبت إلى أثناء يوم الثلاثاء ، رابع عشر ربيع الأول . هذا والقلعة في أشد ما يكون من

---

(١) وقد تعرضت حلب قبل ذلك لغزوات عديدة ، لكن الباحث لم يجد لها صدى في الشعر الذى اطلع عليه ، انظر: ص ٩، ١١ من هذه الرسالة .

(٢) النجوم الزاهرة : جـ١٢ ، ص ٢٢٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحصار والقتال ، وقد نقبها عسكر تيمور من عدة أماكن ، وردم خندقها ، ولم يبق إلاّ أن توخذ "[١] . ثم أخذوها بالأمان وسيقت نساء حلب الى تيمور ، وقدمت له أموالها وجواهرها وما غنم جنده منها ، " ففرقها على أمرائه واخصّائه ، واستمر النهب والسبي والقتل بحلب في كل يوم ، مع قطع الأشجار ، وهدم البيوت واحراق المساجد ، وجافت حلب وظواهرها من القتلى ، بحيث صارت الأرض منهم فراشا ، لا يجد الشخص مكانا يمشي عليه ، الا وتحت رجله رمّة قتيل ، وعمل تيمور من رؤوس المسلمين منائر عدة مرتفعة من الأرض نحو عشرة أذرع ، في دَوْر عشرين ذراعا ، حسب ما فيها من رؤوس بني آدم فكان زيادة على عشرين ألف رأس . ولما بنيت جعلت الوجوه بارزة يراها من يمر بها "[٢] .

هذا ما فعله تيمورلنك وجيشه بحلب وأهلها . فأصبحت " خالية من سكانها وأنيسها ، قد خربت وتعطلت من الأذان والصلوات ، وأصبحت خرابا يبابا ، مظلمة بالحريق ، موحشة قفرا ، لا يأويها الا البوم والرخم "[٣] .

هذه الحال التي صارت إليها حلب ، لا شك أنها أثارت قرائح الشعراء ، وحركت عواطفهم بالبكاء والرثاء[٤] ، ولكن الباحث لم يظفر الا بقصيدة واحدة لشاعر مجهول ، سجل فيها كثيرا مما ورد في الخبر التاريخي السالف الذكر ، وبكاها ، ورثى أهلها . قال :

---

(١) النجوم الزاهرة : جـ١٢ ، ص٢٢٣ - ٢٢٤ ، وانظر : المقريزي : جـ٣ ، ق٣ ، ص١٠٣٣ ، ابن الشحنة على هامش ابن الأثير : جـ٩ ، ص ٢٢٠ - ٢٢١ ، الصيرفي : جـ٢ ، ص ٧٥ - ٧٦ .

(٢) النجوم الزاهرة : جـ١٢ ، ص ٢٢٤ - ٢٢٥ ، انظر : ابن الشحنة على هامش ابن الاثير : جـ٩ ، ص ٢٢٥ - ٢٢٧ .

(٣) النجوم الزاهرة : جـ١٢ ، ص ٢٢٥ .

(٤) انظر : نهر الذهب : جـ٣ ، ص ٢١٥ ، الصيرفي : جـ٢ ، ص ٩٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يا عين جودى بدمع منك منسكب ... طول الزمان على ما حل في حلب
من العدو الذى قد أمّ ساحتها ... ناح الغراب على ذاك الحمى الخرب
ويلاه ويلاه يا شهبا عليك وقد ... كسوتني ثوب حزن غير منسلب
من بعد ذاك العلا والعز قد حكمت ... بالذل فيك يد الأغيار والنوب (١)

فهو يستدر دمع العين ، لتبكي حلب زمانا طويلا ، لما حلّ بها من تخريب المغول الذى جعل الغراب يعمرها بالنواح الدائم ، وبعد أن كانت في عز ومتعة نزلت بها الحوادث والخطوب .

ثم يصف كيف انهارت قوة الجيش الذي كان يدافع عن حلب ، لأن ما نزل بها قضاء من الله لا ردّ له ، فأصبحت في قبضة المغول ، الذين لم يراعوا حرمة ، ولم يحفظوا حقا ، فتفرق أهلها في البلاد ، فرارا من بطشهم ، وآلت أموال أهلها إلى أيدى المحتلين ، وعاثوا فيها فسادا وتخريبا ، فهدموا بيوت الله ، وحرقوا الكتب ، وعمّ حلب الخوف والرعب . قال :

وحين جاء قضاء الله ما دفعت ... عنك الجيوش ولا الشجعان بالقضب
فأصبح المغل حكاما عليك ولم ... يرعَوا لجارك ذي القربى ولا الجُنُب
وفرّقوا أهلك السادات وانتشروا ... في كل قطر من الأقطار بالهرب
وبُدّلوا من لباس اللين ذا خشنٍ ... نعمْ ، ومن راحة الأبدان بالتعب
وكلُّ ما كان من مال لديك غدا ... في قبضة المغل بعد الوَرْق والذهَبِ
وخربوا ربعك المعمور حين غدوا ... يسعون في كل نحو منك بالنَّكَب
وخرّقوا من بيوت الله معظمها ... وحرّقوا ما بها من أشرف الكتب
كذا بلادك أمست وهي خالية ... وأصبحت أهلها بالخوف والرعب (٢)

---

(١) نهر الذهب : جـ٣ ، ص ٢١٥ .

(٢) المصدر نفسه : جـ٣ ، ص ٢١٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبعد ذلك يصف الشاعر مشاهد مما أصاب أعراض أهلها ، من الأذى بالسبي ، والاعتداء أمام أعين الناظرين . وبيّن الشاعر أن هذه هي المصيبة الكبرى التي يهون ما عداها . قال :

لكنْ مصيبتنا الكبرى التي عظمت ... سبيُ الحريم ذوات الستر والحجب
من كل آنسة لا شمسَ تنظرها ... ولا يراها سوى أم لها وأب
يأتي إليها عدوّ الدين يفضحها ... ويجتليها على لاهٍ ومرتقب
غُلّت يمينك يا من مدّها لسنا ... ذاك الجمال وشُلّت منك بالعطب (١)

ويحس القارئ أن الشاعر وقد وصل إلى وصف إتيان المغولي للمرأة المسلمة على مرأى من الناس ، ثارت في عروقه دماء الحمية ، فانطلق لسانه بالدعاء على ذلك المعتدي بشلل اليد والهلاك .

ويختم قصيدته بأبيات يظهر فيها الرضى بقضاء الله ، ويتوجه إليه بالدعاء أن يحفظ المسلمين من عدوّ لا يرحم ، ويتوسل في ذلك بالنبي صلى الله عليه وسلم ، فيقول :

ولا نقول سوى سبحان من نفذت ... أحكامه في الورى حقا بلا كذب
قضى وقدر هذا الأمر من قدم ... بحكم عدل جرى في اللوح والكتب
فنسأل اللهَ بالمختار سيدنا ... محمد ذي التقى والطهر والحسب
أن لا يرينا عدوّاً ليس يرحمنا ... ولا يعاملنا بالمقت والغضب
صلّى عليه إله العرش خالقنا ... والآل والصحب سادات الورى النجب (٢)

إن قارئ هذه القصيدة ، يحس بصدق العاطفة ، في أبياتها ، ويشعر بالحزن الحقيقي وقد غمر نفس الشاعر ، ولكن موقفه موقف سلبي ، مستسلم ، اكتفى بعرض أحزانه ، ومشاهد من المأساة التي أثارتها .

---

(١) نهر الذهب : جـ٣ ، ص ٢١٦ .

(٢) المصدر نفسه : جـ٣ ، ص ٢١٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ووصف نكبة حلب بتيمورلنك ، الشاعر علاء الدين الغزولي ، وذلك في قصيدة نظمها في رثاء دمشق ، وبيان ما أصابها من الخراب على يد تيمورلنك وجيشه ، وأشار فيها إلى سبق النكبة الى حلب ، قال :

حزني على الشهباء قبل حماتنا ... هو أول وهي المحل الثاني
لا تدّعي الاحزان يا شقراءنا ... السبق للشهباء في الأحزان
رتعت كلاب المغل في غزلانها ... وتحكّمت في الحور والولدان
لهفي على تلك الشعور وطولها ... جُرّت بها الأعناق كالأرسان
لهفي عليك منازلا ومنازهاً ... ومقام فردوس وباب جنان (١)

يحس القارئ بفتور العاطفة في حديث الشاعر عن حلب ، وذلك لما أورده من مفارقات عقلية ، ضاع الحزن في متاهاتها ! فقد كنى عن حلب الشهباء وذكر اسم مدينة حماة ، بلفظ حماتنا ، ليوهم أنه يتحدث عن أم الزوج أو الزوجة ! ثم كنى عن دمشق بلفظ الشقراء ، ليناسب ذكر حلب الشهباء ! ثم أخذ يوزع أولوية الحزن ، فجعلها لحلب ! وكأنه قاض يوزع الحق في البكاء على من أصيب أولا ! ثم نراه يظهر حزنه ، فإذا هو حزن على الحور والولدان ، والغزلان التي رتعت فيها الكلاب ، والشعور التي تحولت الى أرسان ! وعلى المنازل والمنازه ، ومواطن الجمال بحلب ! وهنا يشعر القارئ بأن تفاعل الشاعر مع الأحداث تفاعل سطحي ، لم يتجاوز ظواهرها ، ولم يتعمق في أسبابها .

* * *

---

(١) مطالع البدور : جـ٢ ، ص ٣٠١-٣٠٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد أصاب دمشق نصيب من أذى المغول ، عندما وقعت بأيديهم سنة ٦٥٨ هـ ، وذلك بعد استيلائهم على حلب . " فأخذوها سريعا من غير ممانعة ولا مدافع ، بل تلقاهم كبارها بالرهب والسمعة ، وقد كتب هولاكو أمانا لأهل البلد ، فقرئ بالميدان الأخضر ، ونودي به في البلد ، فأمن الناس على وجل من الغدر ، كما فعل بأهل حلب ، هذا والقلعة ممتنعة مستورة ، وفي أعاليها المجانيق منصوبة ، والحال شديدة "[1] وقد انتهى أمر القلعة إلى التسليم ، فخربوها ، وهدموا بروجها ، " وجرى على أهل دمشق بسبب عصيان القلعة شدة عظيمة "[2] . ولم يظفر الباحث بشعر يسجل حال دمشق مع المغول في هذه الحادثة .

وفي سنة ٦٦٩ هـ ، استولى جيش المغول وحلفائهم على دمشق ، بعد انتصارهم على المسلمين في وادي الخزندار ، وامتنعت عليهم قلعتها ، وجرت في دمشق مصادرات ، وجمعت الأموال من أهلها ، وارتفعت الأسعار ، وعمّ الغلاء ، واحترق فيها كثير من المساجد والمدارس ، وعمّ النهب[3] ، وقد سجل علاء الدين علي الأوتاري الدمشقي[4] بعض ما جرى في دمشق ، وبكاها فقال :

أحسن الله يا دمشق عزاك ... في مغانيك يا عماد البلاد
وبرستاق[5] نيربيك[6] مع المزة[7] مع رونق بذاك الوادي

---

(١) ابن كثير : جـ١٣ ، ص ٢١٤ .
(٢) ابو الفداء : جـ٣ ، ص ٢٠٣ .
(٣) انظر : ابن كثير : جـ١٤ ، ص ٨ - ١٠ .
(٤) علي بن اسماعيل ، الدمشقي القواس ، كان حسن المجالسة ، حدّث ، وله نظم . توفي سنة ٧٣٦ هـ . انظر : الدرر الكامنة : جـ٣ ، ص ٩٧ .
(٥) كل موضع فيه مزدرع وقرى . وهو فارسي . انظر : تاج العروس : جـ٦ ، ص ٣٥ .
(٦) من قرى دمشق . وجاءت بلفظ النيرب . انظر : ياقوت : جـ ٥ ، ص ٣٣٠ .
(٧) من قرى دمشق . انظر : ياقوت : جـ ٥ ، ص ١٢٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبأنس بقاسيون ونـــــــــاس أصبحوا مغنما لأهل الفســـــاد
طرقتهم حوادث الدهـــر بالقتـــل ونهـــب الأمـــــوال والأولاد
وبنـــات محجبات عن الشمس تنـــاءت بهـــن أيـــدى الأعـــادي
وقصور مشيّدات تقضـــــــت في ذراها الأيام كالأعيـــــاد
وبيوت فيهـــا التلاوة والذكـــــر وعالـــــي الحديـــث والإســـناد
حرقوها وخرّبوها وبـــــادت بقضاء الإلـــه ربّ العبـــــاد
وكذا شارعُ المُقَيْبَةِ والقَصْـــــر وشـــاغورُها(١) وذاك النـــــادي(٢)

فالشاعر يعزى دمشق بما حلّ بمغانيها من البلاء ، في النيربين والمـــزة وقاسيون ، حيث فقد الأنس منها ، وصار أهلها مغنما للمغول . وحلّ بهم العذاب وبأموالهم النهب ، وبأولادهم القتل والأسر ، وبنسائهم السبي ، وبقصورهم الخراب ، بعـــد أن كانت أيامهـــا أعيادا . وهجرت المساجد بعد أن كانت عامرة بتـــلاوة القرآن وذكر الله ، ورواية الحديث ، فقد أصابها الحرق والتخريب ، وكذلك حـــرق شارع المقيبة ، والقصر والشاغور .

وسجل القاضي أبو بكر جمال الدين ، طرفا مما حلّ بدمشق سنة ٦٩٩ هـ ، على يد الأرمن حلفاء المغول ، وذلك في قصيدته التي نظمها سنة ٧٠٢ هـ ، بعـــد انتصار المسلمين في موقعة مرج الصفّر . وفيها تحريض على الانتقام من الأرمـــــن ، لما سلف من أذاهم في دمشق وضواحيها . قال :

أما رأيتم وعاينتم وقد فعلـــــوا في الصالحيّة ما لا تفعل التتـــــر
كم مـــن عجوز ومن شيخ ومكتهـــــل ومن فتاة نماها الحســـن والخفـــر
ومطفـــل أثكلوا وجداً بواحدهـــا وحامل أجهضت خوفا وقد ذُكِـــروا

---

(١) من ضواحي دمشق وقراها ، انظر: على التوالي : ياقوت : جـ١ ، ص ٣٧٨ ، جـ٤ ، ص ٣٥٥ ، جـ٣ ، ص ٣١٠ .

(٢) خطط الشام : جـ٦ ، ص ٣٧٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومربعٍ أقفرٍ من بعد ســـــاكنـــه ... وعقد شمل نظيم جامع نثـــــروا
وكم أراقوا وكم ساقوا وكم هتكـــوا ... وكم تملّوا بما نالوا وكم فخـــروا
وحرّقوا في نواحيها فوا حربـــا ... وخرّبوا الشامخ العالي وكم دثـــروا
وجامع التوبة المحروق مهجتـــه ... يشير لا توبـــةٌ للقوم إن ظُفـــروا (١)

فقد حلّ بالصالحية وأهلها ، الخراب والقتل والسبي ، والحرق ، واستغلى الأرمن ، حلفاء المغول ، على أهلها ، وحرقوا جامع التوبة في العقيبة .

وما ورد في أبيات علاء الدين الأوتـــاري ، والقاضي جمال الدين ، يتفـــق مع ما أورده ابن كثير في هذا الشأن . قال : " وفي يوم السبت النصف من ربيـــع الآخر ، شرعت التتار وصاحب سيس في نهب الصالحية ، ومسجد الأسدية ، ومسجد خاتون ، ودار الحديث الأشرفية بها . واحترق جامع التوبـــة بالعقيبة ، وكـــان هذا من جهة الكرج والأرمن من النصارى ، الذين هم مع التتار قبحهم اللـــــه ، وسبوا من أهلها خلقا كثيرا ، وجمّا غفيـــرا . . . ويقال ، إنهم قتلوا من أهـــل الصالحية قريبا من أربعمائة . وأسروا نحوا من أربعة آلاف أسير ، ونهبت كتـــب كثيرة من الرباط الناصري ، والضيائيّة ، وخزانة ابن البزوري ، وكانت تباع ، وهـــي مكتوب عليها الوقفية ، وفعلوا بالمزة مثل ما فعلوا بالصالحية "(٢) .

وتعرضت دمشق لغزو المغول مرة أخرى سنة ٨٠٣ هـ ، فبعد أن أخـــذ تيمورلنك حلب ، توجه إلى دمشق ، والتقى بعساكر الملك الناصر فرج بن برقـــوق(٣) ، عند قطنا(٤) ، وصمد العسكران ، وطلب تيمورلنك الصلح مرارا ، فرفض المماليك ذلك ، ثم حدث في صفوف المماليك اختلاف كلمة ، فانسحب عدد منهم إلى مصر ، " وتركـــوا أمر تيمور كأن لم يكن "(٥) . وكان تيمور في غايـــة الاجتهاد لأخذ دمشق وبخاصـــة

(١) كنز الدرر : جـ٩ ، ص ٩٦ - ٩٧ .
(٢) ابن كثير : ز جـ١٤ ، ص ٨ ، وانظر : المقريزي : جـ١ ، ق٣ ، ص٨٩٣ - ٨٩٥ .
(٣) ولد سنة ٧٩١هـ ، وقتل سنة ٨١٥ . انظر : شذرات الذهب : جـ٧ ، ص ١٠٨ .
(٤) من قرى دمشق . انظر : ياقوت : جـ٤ ، ص ٣٧٤ .
(٥) النجوم الزاهرة : جـ١٢ ، ص ٢٣٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عندما علم بحال أمراء المماليك ، وقد كان هذا الإختلاف سببا في ترك " دمشق أكلة لتيمور ، وكانت يوم ذاك أحسن بلاد الدنيا وأعمرها "[١]. ولما علم أهل دمشق ومن بها من العساكر والجافلين من حلب وحماة وحمص ، وغيرها ، باختلاف كلمة المماليك ، ورجوع السلطان إلى مصر لاحباط مؤامرة لقلب نظام حكمه[٢] ، " غلقوا أبواب دمشق ، وركبوا أسوار البلد ، ونادوا بالجهاد ، فتهيأ أهل دمشق للقتال ، وزحف عليهم تيمور بعساكره ، فقاتله الدمشقيون من أعلى السور أشد قتال ، وردوهم عن السور والخندق . "[٣] . فأسروا من جند تيمور من حاول اقتحام باب دمشق وأعيا أمرها تيمور ، فلجأ إلى المخادعة والحيلة ، وأعلن أنه يريد الصلح ، وطلب منهم إرسال رجل عاقل ليحادثه[٤] . فأرسلوا إليه قاضي القضاة تقي الدين ابراهيم بن محمد بن مفلح الحنبلي[٥] . فحادثه وخدعه ، وبلغه أنه يريد الرجوع عن دمشق ، وبأنه اعتقها لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، صدقة عنه وعن أولاده ، ولكن لا بدّ من أخذ ما اعتاد عليه من التقدمة ، " وكانت هذه عادته إذا أخذ مدينة صلحا ، يخرج إليه أهلها من كل نوع من أنواع المأكول والمشروب ، والدواب ، والملابس والتحف ، تسمى ، يسمّون ذلك طقزات . والطقز باللغة التركية تسعة "[٦] . ورجع ابن مفلح إلى أهل دمشق يخذّلهم عن القتال ، ويرغب في الصلح . وانقسم أهلها بين مؤيد ومعارض . وكانت الغلبة لرأي ابن مفلح . " ونادى في الناس أنه من خالف ذلك قتل ، وهدر دمه ، فكف الناس عن القتال "[٧] . وشرع أهل دمشق في تلبية طلب تيمور ، واعتزل عليهم نائب قلعة دمشق ، وهددهم بحرق المدينة عليهم ، ولكنهم لم يلتفتوا إلى رأيه[٨] .

---

(١) النجوم الزاهرة : جـ١٢ ، ص ٢٣٧ .
(٢) المصدر نفسه : جـ١٢ ، ص ٢٣٥ ، وانظر : ابن خلدون : م ٧ ، ص ١٢٠١ .
(٣) المصدر نفسه : جـ١٢ ، ص ٢٣٨ ، وانظر : المقريزي : جـ٣ ، ق٣ ، ص ١٠٤٦ .
(٤) المصدر نفسه : جـ١٢ ، ص ٢٣٨ .
(٥) ولد سنة ٧٤٩ ، وتوفي سنة ٨٠٣ هـ ، درس وأفتى وصنف . انظر : شذرات الذهب : جـ٧ ، ص ٢٢ .
(٦) المصدر نفسه : جـ١٢ ، ص ٢٣٩ ، وانظر : ابن خلدون : م٧ ، ١٢٠٤ وفيه خبر لقاء ابن خلدون لتيمور .
(٧) المصدر نفسه : جـ١٢ ، ص ٢٤٠ ، وانظر : المقريزي : جـ٣ ، ق٣ ، ص ١٠٤٦ .
(٨) المصدر نفسه : جـ١٢ ، ص ٢٤٠ ، وانظر : ابن خلدون : م٧ ، ص ١٢٠٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأخرجوا **الطقزات** ، وكتب تيمور أمانا لأهل دمشق على أنفسهم وأهليهم ، فقرئ على منبر جامع بني أمية ، ودخل دمشق أمير من أمرائه ، لحفظ البلد ، وجمع ابن مفلح لتيمور ما قرر على أهل دمشق من المال ، وهو ألف ألف دينار[(١)] ، وذهب مع وفد من أهلها إلى تيمور . فلما رآه غضب غضبا شديدا . وأخرج ابن مفلح ومن معه من مجلسه . وألزمهم أن يحملوا إليه عشرة آلاف ألف دينار . فرجعوا الى دمشق يجمعون المال مرة أخرى . " فنزل بالناس باستخراج هذا منهم ثانيا بلاء عظيم ، وعوقب كثير منهم ، بالضرب . فغلت الأسعار ، وعز وجود الأقوات ، وبلغ المد القمح - وهو أربعة أقداح - الى أربعين درهما فضة ، وتعطلت صلاة الجمعة من دمشق ، فلم تقم بها جمعة الا مرتين ."[(٢)] . وحاصر المغول القلعة حصارا شديدا ، وتسلموها بعد تسعة وعشرين يوما . وقد اتبع تيمور مع أهل دمشق أسلوبا من التعجيز ليذيقهم ألوان العذاب - فبعد أن جمع له ابن مفلح ما طلب في المرة الثانية ، وقدمه إليه قال : " هذا المال بحسابنا انما هو يسوى ثلاثة آلاف دينار . وقد بقي عليكم سبعة آلاف ألف دينار "[(٣)] . وألزم أهل دمشق بأن يدفعوا إليه ما تركته العساكر المصرية من السلاح والأموال . فلما فرغ من ذلك ، " قبض على ابن مفلح ورفقته ، وألزمهم ان يكتبوا إليه جميع خطط دمشق وحاراتها وسككها ، فكتبوا ذلك ودفعوه إليه . ففرقه على أمرائه ، وقسم البلد بينهم ، فساروا إليها بمماليكهم وحواشيهم . ونزل كل أمير في قسمه ، وطلب من فيه . وطالبهم بالأموال ، فحينئذ حلّ بأهل دمشق من البلاء ما لا يوصف . وأجرى عليهم أنواع العذاب من الضرب والعصر ، والإحراق بالنار ، والتعليق منكوسا ، وغم الأنف بخرقة فيها تراب ناعم ، كلما تنفس دخل في أنفه ، حتى تكاد نفسه تزهق . فكان الرجل إذا أشرف على الهلاك يخلّى عنه حتى يستريح ، ثم تعاد عليه العقوبة

---

(١) النجوم الزاهرة : جـ١٢ ، ص٢٤٠ . وانظر: ابن خلدون : م٧ ، ص ١٢٠٢ .

(٢) المصدر نفسه : جـ١٢ ، ص ٢٤٢ . وانظر: المقريزى : جـ٣ ، ق٣ ، ص ١٠٤٧-١٠٤٨ .

(٣) المصدر نفسه : جـ١٢ ، ص ٢٤٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أنواعا فكان المعاقَب يحسد رفيقه الذي هلك تحت العقوبة ، على الموت ، ويقول : يا ليتني أمسوت وأستريح مما أنا فيه . ومع هذا كله ، تؤخذ نساؤه وبناته وأولاده الذكور ، وتقسم جميعهم على أصحاب ذلك الأمير . فيشاهد الرجل المعذب أمرأته وابنته وهي توطأ ، وولده وهو يلاط به ، يصرخ هو من ألم العذاب والبنت والولد يصرخان من إزالة البكارة واللواط . وكل ذلك من غير تستر ، في النهار بحضرة الملأ من الناس . ورأى أهل دمشق أنواعا من العذاب لم يسمع بمثلها ، منها أنهم كانوا يأخذون الرجل فتشدّ رأسه بحبل ويلويه حتى يغوص في رأسه ، ومنهم من كان يضع الحبل بكتفي الرجل ، ويلويه بعصاه حتى تنخلع الكتفان ، ومنهم من كان يربط إبهام يدي المعذّب من وراء ظهره ، ثم يلقيه على ظهره ، ويذر في منخريه الرماد المسحوق ، فيقر على ما عنده شيئا بعد شيء ، حتى إذا فرغ ما عنده لا يصدقه صاحبه على ذلك ، فلا يزال يكرر عليه العذاب حتى يموت ، ويعاقب ميتا مخافة أن يتفاوت . ومنهم من كان يعلق المعذّب بإبهام يده في سقف الدار ، ويشعل النار تحته ، ويطول تعليقه ، فربما يسقط فيها ، فيسحب من النار ، ويلقوه على الأرض حتى يفيق ، ثم يعلقه ثانيا "[1] ، وقد بقي هذا العذاب نازلا بأهل دمشق تسعة عشر يوما ، هلك فيها كثير من أهلها بسبب ما تعرضوا له من العذاب والجوع .

وبعد أن استوفى أمراء تيمور من دمشق وأهلها ما يريدون . أنعم بها على أتباع الأمراء . فدخلوها " ومعهم سيوف مسلولة مشهورة ، وهم مشاة ، فنهبوا ما قدروا عليه من آلات الدور وغيرها . وسبوا نساء دمشق بأجمعهن . وساقوا الأولاد والرجال ، وتركوا من الصغار من عمره خمس سنين فما دونها . وساقوا الجميع مربوطين في الحبال ."[2] . ولم يشأ المغول أن يقصروا أذاهم على البشر فيها . فأشعلوا " النار في المنازل والدور والمساجد ، وكان يوم عاصف الريح ، فعمّ الحريق جميع البلد ، حتى صار لهيب النار يكاد يرتفع إلى السحاب ، وعملت النار في البلد ثلاثة أيام بلياليها "[3] .

---

(١) النجوم الزاهرة : جـ١٢ ، ص٢٤٤-٢٤٥ ، وانظر : المقريزي : جـ٣ ، ق٣ ، ص١٠٥٠ .
(٢) المصدر نفسه : جـ١٢ ، ص٢٤٥ ، وانظر : المقريزي : جـ٣ ، ق٣ ، ص١٠٥١ .
(٣) المصدر نفسه : جـ١٢ ، ص٢٤٥ ، وانظر : المقريزي : جـ٣ ، ق٣ ، ص١٠٥١ ، الصيرفي : جـ٢ ، ص٩٠-٩١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ورحل تيمور عن دمشق ، بعد أن أقام عليها ثمانين يوما " وقد احترقت كلها ، وسقطت سقوف جامع بني أمية من الحريق ، وزالت أبوابه ، وتفطر رخامه ، ولم يبق غير جدره قائمة ، وذهب مساجد دمشق ودورها وقياسرها (١) وحماماتها ، وصارت أطلالا بالية ، ورسوما خالية ، ولم يبق بها دابة تدب ، إلا أطفال يتجاوز عددهم (آلاف) ، فيهم من مات ، وفيهم من سيموت من الجوع "(٢) .

وقد سجّل شاعر دمشقي ما نزل بدمشق على يد تيمور وجيشه ، وربما لا تكون هذه القصيدة هي كل ما قيل في هذه النازلة ، الا أن الباحث لم يظفر بشيء سواها قال بهاء الدين علي بن عبد الله الخزولي " يرثي دمشق المظلومة !! "(٣)

أجريت جمر الدمع من أجفاني	حزنا على الشقراء(٤) والميدان(٥)
وتلاعبت أهدابها بمدامعي	لعب الكُماة بأرؤس الفرسان
وتوقّدت نيران حزني إذ رأت	تلك الربوع مواقد النيران
لهفي على تلك البروج وحسنها	حُرِقَت بهن طوارق الحدثان
لهفي على وادي دمشق ولطفه	وتبدّل الخزلان بالثيران
نزلوا ظلال الدوح (منه)(٦) فلا تسل	ما حلّ بالأغصان والكثبان
سقطت غصون البان من قاماتها	لما سمعن نواعق الغربان
وشكا الحريقَ فؤادُها لما رأت	نور المنازل أبدلت بدخان

---

(١) تطلق في الشام على الخانات والوكايل الكبيرة وفي مصر على الاسواق المسقوفة . انظر: النجوم الزاهرة : جـ١٢ ، ص٢٤٦ ، حاشية رقم ١ .

(٢) المصدر نفسه : جـ١٢ ، ص٢٤٥-٢٤٦ ، وانظر: المقريزي : جـ٣ ، ق٣ ، ص١٠٥ ، الصيرفي : جـ٢ ، ص ٦١-٦٢ .

(٣) مطالع البدور : جـ٢ ، ص ٣٠٠ .

(٤) من أسماء دمشق : انظر: نزهة الانام : ص ٧٣ ، غوطة دمشق : ص ٦٦ .

(٥) من أسماء دمشق : انظر: نزهة الانام : ص ٧٢-٧٣ .

(٦) زيادة لا بد منها ليستقيم الوزن .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جناتها في الماء منها أُضرمت ... فعجبت للجنات في النيران
كانت مصاصم نهرها فضيّة ... والآن صرن كذائب العقيان
ما ذاك إلاّ تُركهم ولجت بها ... فتخضّبت منها بأحمر قان
كرهت جداولها حوافر خيلهم ... فتسابقت هربا كخيل رهان
خافت خدود الأرض من أفعالهم ... فتلثمت بعوارض الريحان
أذكيت نار الصدر يا ورقاءها ... وتأثرت بلواعج الأشجان
واحسرتاه على دمشق وقولها ... سبحان من بالمغل قد أبلاني (١)

يعبر الشاعر عن أحزانه على ما حلّ بدمشق ، ويذكر منها موقعين : الشقراء والميدان ، وكأنهما ذاقا من الوبال أكثر مما ذاق سواهما من أحياء دمشق ، من الحريق الذي عمّ جوانبها ، والهدم الذي أصاب بروجها ، وهلاك أهلها . ويصوره صورا من تبدل الأحوال بدمشق . فأغصان أشجارها تكسرت لما سمعت نعيق الغربان ، يعلن خراب الديار ، واسودت المنازل من الدخان الذي تصاعد من الحريق . وتغير لون الماء في جداول دمشق ، لما خاضها المغول ، وفي هذا إشارة الى أحد أمرين : أولهما : لون المغول ، وهم من الجنس الاصفر ، وثانيهما : إراقة المغول للدماء ، التي لونت المياه . وصور الشاعر كراهية الأرض للمغول ، فالجداول تهرب من حوافر خيلهم ، والأرض خافت من أفعالهم فتلثمت بالريحان . وقد عمّ البكاء أرجاء دمشق ، وناحت الحمائم على ما حلّ بالأغصان ، ويتخذ الشاعر كلمة الغصن ، وسيلة لإظهار براعته اللفظية ، فيخاطب الحمامة قائلا : " بأنه يبكي على غصن ، وإن كان غصنه من البشر ! تشبيها للمرأة به . ويتحسر الشاعر على دمشق ، ويبيّن على لسانها ما ابتليت به من المغول من قبل ومن بعد . ويتمنى أن يأخذ الدهر بثأره منهم فيقول :

---

(١) مطالع البدور : جـ٢ ، ص ٣٠٠ - ٣٠١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عاداني الدهر الخؤون بمُغلبه ... والفُجْم منه وقبلهم غازان (١)
فمساك تأخذ ثأرها من مغلهم ... بالحل ثالث سبعة وثمان (٢)

وينقل الشاعر مشاهد من المأساة ، فيذكر ما حلّ ببعض معالم دمشق من الخراب ، فيقول :

لو عاينت عيناك جامع تنكز (٣) ... والبركتين بحسنها الفتان
وتمطّش المرجين (٤) من أورادها ... وتهدم المحراب والايوان
لأتت جفونك بالدموع ملوّناً ... دمعا حكى اللولو على المرجان
قطرات جفن ترجمت عن حرقتي ... فكأنهن قلائد العقيان (٥)

ويقف القارئ أمام هذه الأبيات ، فيعجب من تداعي صورة اللؤلؤ على المرجان ، وقلائد العقيان ، إلى ذهن الشاعر في أثناء حديثه عن نكبة دمشق ومأساتها . ويسأل ألم يكن الشاعر حزينا على دمشق ؟ وهل تتفق هذه الصورة مع حالة الحزن ؟ ولكن يبدو أن روح العصر غلبت على ذوقه ، فمال الى الصنعة والاتيان بالصور الطريفة ، التي اضعفت حرارة العاطفة ، والقت ظلالا من الشك على صدق الحزن .

ويستثير الشاعر أمجاد التاريخ الدمشقي ، فيلجأ إلى مخاطبة بني أمية ليروا ما حلّ بمسجدهم الذي بناه الوليد بن عبد الملك ، فقد امتلأت ساحاته بالمغول الذين شربوا فيها الخمر ، وفعلوا المنكر بالنساء ، وقتلوا الأطفال ،

---

(١) غازان : هو ملك المغول : غازان محمود الذى غزا دمشق سنة ٦٩٩ .
(٢) مطالع البدور : جـ٢ ، ص ٣٠١ . وفي هذا إشارة إلى وفاة تيمور لنك سنة ٨٠٧هـ، انظر: شذرات الذهب : جـ٧ ، ص ٦٢ .
(٣) انظر: نزهة الانام : ص ٧١ .
(٤) انظر: المصدر نفسه : ص ٧٣ .
(٥) مطالع البدور : جـ٢ ، ص ٣٠١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثم يتحدث الشاعر عن قص جناح النسر ، وهو بهذا يشير الى الحريق الذى أصاب قبة النسر في الجامع الأموى[1] ، بل أصاب المسجد كله ، مما أجرى دموع الشاعر حزنا عليه ، ويشير إلى إهانتهم لدين الله بحرق المصاحف ، ويجعل الشاهد في ذلك ، عثمان بن عفان ! في إشارة تحتاج الى كثير من ليّ المعنى ، والتأويل ، حتى يستقيم له ما أراد ! وحرقوا كذلك كتب العلوم المختلفة التي كانت في مساجد دمشق ومدارسها . قال :

أبني أمية أين عين وليدكم ... والمغل تفتل في ذرى الأركان
شربوا الخمور بصحنه حتى انتشوا ... ألقوا عرابدهم على النسوان
لم يرحموا طفلا بكى فقلوبهم ... في الفتك صخر لا أبو سفيان !
قصوا جناح النسر بعد نهوضه ... يا ليته لو فاز بالطيران
ألواحه أجرت دموعي أسطرا ... كُتبت على اللوحين من أجفاني
إن أنكروا يوم الحساب فعالهم ... فشهيدنا عثمان ذو القرآن
لهفي على كتب العلوم ودرسها ... صارت معانيها بغير بيان[2]

ويظهر في هذه الابيات غلبة الصنعة على ذوق الشاعر ، وميله إلى التقاط المعاني وتوليدها من بعض الكلمات . فقلوب المغول صخر ، وما دام الحديث قد سبق عن بني أمية ، والوليد بن عبد الملك ، فإن من المناسب ذكر أبي سفيان ، صخر بن حرب !! وفي جامع دمشق قبة النسر ، والنسر من الطيور ، وما حدث للقبة من حريق كقص جناحي النسر ! لا يطير بعده . والواح الرخام التي كانت على القبة تفطرت من الحريق[3] ، فجرت دموع الشاعر أسطرا على ألواح جفنيه . وهكذا تبهت العاطفة ، ويتلاشى الحزن في تضاعيف هذه الألاعيب اللغوية والعقلية !

---

(١) انظر: مسالك الابصار : جـ١ ، ص ١٩٥ .

(٢) مطالع البدور : جـ٢ ، ص ٣٠١ .

(٣) انظر: النجوم الزاهرة : جـ١٢ ، ص ٢٤٥-٢٤٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثم يبيّن الشاعر أن دمشق لم تكن وحيدة فيما أصابها على يد المغـــول ، وقد سبقتها في ذلك حلـب وحماة[1] . فيلجأ الى تلقيب دمشق بالعروس ، ليناسب ذكر " حماة " ، فإن تكن " العروس " قد ذاقت الويل فقد سبقتها في ذلك "الحماة" ولا يخفى أن الموقف الذى يصفه الشاعر لا يحتمل مثل هذا التفكه ، لكنـــه ضيق المصر ! قال :

أعروسنا لك أسوة بحماتنـــــا ... في ذا المصاب فأنتما أختـــان
غابت بدور الحسن عن هالاتهـــا ... فاستبدلت من عزها بهـــوان
ناحت نواعير الرياض لفقد هـــم ... فكأنها الأفلاك فـــي الدوران[2]

ثم يأخذ الشاعر بالتفجع على دمشق والبكاء عليها ، وعلى منازل الأحباب فيها ، سابقا في سكب الدموع الغمام . ويذكر بعض أحياء دمشق وضواحيهـــا ، التي أصيبت بالحريق أو الخراب . قال :

أدمشق آهاتي عليك كثيـــرة ... كالدمع في جفن الكئيب العانـــي
حسراتها لا تنقضي من خاطـــرى ... هي شغل أفكارى ونصب عيانـــي
لي أنة ، لي حرقة ، لي لهفـــة ... لي حسرة ، لي لوعة وكفانـــي
أمنازل الأحباب كيف تبدلـــت ... تلك الربى بمقاتل الفرســـان ؟
إن لم أسل ماء العيون مجاريـــا ... ماء الغمام بها فما أجفانـــي
لا تنه جفن الصبّ في جريانـــه ... دعني وشأنك يا غمام وشـــاني
العين والإنسان قد فقدا معـــا ... أبكيك يا عيني ويا إنســـاني
لم أدر من أبكي وأندب حسـرة ... للقصر ، للشرفين[3] ، للميـــدان[4]

---

(١) انظر: النجوم الزاهرة : جـ١٢ ، ص ٢٠٢-٢٠٦ .
(٢) مطالع البدور : جـ٢ : ص ٢٠٤ .
(٣) من أحياء دمشق : انظر: نزهة الانام : ص ٧٠ .
(٤) من أحياء دمشق : انظـــر : المصدر نفسه : ص ٧٢-٧٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

للجبهة الغراء أم خلخالها[1] ... للمِزّة الغيدا أم اللّوان[2]
لا يُحجَرُ المشتاق عن تذكارها ... يا هاجري بالظلم والعدوان
شوّق بها قلبي أقل لك منشدا ... لك إن تشوقني إلى الأوطان
وإذا أتيت بما جرى في ربعها ... فعليّ أن أبكي بدمع قان
ما كان أهنا العيش في ساحاتها ... والدار داري والزمان زماني
أسفي على أيامها لا ينقضي ... ما كان أهناها وما أهناني
أيام لا ماء السرور مكدّر ... أرعى نضير العيش ،بل يرعاني[3]

ثم يقف الشاعر على تلك الربوع التي غشيها الخراب سائلا عن أهلها الراحلين ، فيأتيه الجواب من ألسنة النيران التي دبّت فيها ، بأن حكم القضاء قد نزل بهم فشتتهم . قال :

ولقد وقفت على ربوع حبائبي ... فندبتهن نوادب الأحزان
ولقد وقفت على الديار منادياً ... بلسان مغترب وعبرة غان
يا دار أين حبائبي فأجابني ... عنها الحريق بألسن النيران
حكم القضا فيهم ونفذ حكمه ... فتشتتوا فرقا بكل مكان[4]

ثم يلجأ الشاعر في ختام القصيدة ، إلى الدعاء والتوسل الى الله عزّ وجلّ بالرسول صلى الله عليه وسلم ، ليلم شتات من تفرق من أهل دمشق ، كما يدعو بالتأييد للسلطان المملوكي ليرد البلاء عن المسلمين ، قال :

---

(١) من متنزهات دمشق : انظر: غوطة دمشق : ص ٧٢ .
(٢) من متنزهات دمشق : انظر : نزهة الانام : ص ١٨٧ ، ٢١٢ .
(٣) مطالع البدور : جـ٢ ، ص ٣٠٢ .
(٤) المصدر نفسه : جـ٢ ، ص ٣٠٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يا رب لم شتاتنا بمحمـــــــد ... سر الوجود وبهجة الأكـــــوان
إن لم نلذ في أمرنا بجنابـــــه ... فبمن يلوذ ويستجير الجانـــــي
أترى الإله مؤيـدا ســـلطاننا ... حتى أقول وعشت بالســـلطان (١)

وينهي القصيدة ببيان سبب البلاء الذى نزل بأهل دمشق ، وهو فعـــل الذنوب . ويدعو الله بالصفح والغفران ، ونشر الأمن في ربوع المسلمين الذيـــن غشيتهم المخاوف والأحزان . قال :

يا ربِّ فعلُ الذنب أصل بلائنـــا ... فاصفح وجد للذنب بالغفـــران
واغسل بماء الأمن وجه رجائنـــا ... واصرف بفضلك حاضر الطغيـــان
واجمع على جسماننا أرواحنـــا ... يا جامع الارواح بالجســـمان (٢)

---

(١) مطالع البدور : جـ٢ ، ص ٣٠٢ . والسلطان هو فرج بن برقوق الذى عاصـر هذه النكبة كما وضح من قبل .

(٢) المصدر نفسه : جـ٢ ، ص ٣٠٢ - ٣٠٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصـــــل الرابـــــــــع

* صورة المغول في الشعر العربـــــــــــــــي
* الأثر النفسي للغزو المغولي في الشعـــــــــر

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

صورة المغول في الشعر العربي

أول ما يطالع الباحث في الشعر الذي سجل أصداء الغزو المغولي ، تعدد الأسماء التي أطلقت على أولئك الغزاة . ومن ذلك ، تسميتهم بالمغل (١) ، قال موفق الدين عبد الله بن عمر في الظاهر بيبرس ، وخوضه نهر الفرات بجيشه لقتالهم سنة ٦٧١ هـ :

الملك الظاهر سلطاننا ... نفديه بالأموال والأهل
اقتحم الماء ليطفي به ... حرارة القلب من المُغْل (٢)

وقال القاضي فتح الدين بن عبد الظاهر يخاطب المنصور قلاوون بعد معركة حمص سنة ٦٨٠ هـ :

يا أيّها الملك المنصور قد كسرت ... جنودك المغل كسرا ماله جبر (٣)

وجاءت تسميتهم بالتتار . قال القاضي ناصر الدين بن العسقلاني :

فقل للتتار العادمين عقولهم ... نسيتم سيوف الترك (تهبركم) هبرا (٤)

وقال القاضي ابو بكر جمال الدين يخاطب أهل دمشق بعد وقعة من الصفر سنة ٧٠٢ .

ولا تخافوا من التتار مجلبة ... من بعد ما ارتفع التدليس والصور (٥)

وورد اسم التتار محذوف الألف. قال القاضي أبو بكر جمال الدين في القصيدة نفسها ، محرضا المسلمين على قتال الأمن، ومذكرا لهم بما فعلوه في دمشق سنة ٦٩٩ هـ ،

---

(١) في بدء هجوم المغول على الممالك الاسلامية كانوا يعرفون بالتتار، ثم غلبت عليهم كلمة المغول ، واشتهروا في التاريخ بهذين الاسمين . المغول في التاريخ : ص ٨

(٢) الغيث المسجم : جـ٢ ص٧٠ ، فوات الوفيات : جـ١ ص ٢٣٩ ، النجوم الزاهرة : جـ٧ ص١٦٠

(٣) الوافي بالوفيات : جـ٣ ص٣٦٨ . وورد : كلمة كسرا غير منونة .

(٤) زبدة الفكرة : جـ٩ ص١٦٢ ، والكلمة بين القوسين غير واضحة ، قدرتها هكذا .

(٥) كنز الدرر : جـ ٩ ص ٩٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عندما دخلوها في جيش المغـــول :

أما رأيتم وعاينتم وقد فعلـــوا في الصالحية ما لا تفعل التتر[١]

وقد أطلق القاضي ناصر الدين بن المسقلاني عليهم اسم " مغل التتار " ، وذلـك في سياق حديثه عن خلافات المماليك ، فقـــال :

ولا تعتقد مغل التتار بأنهم قد اختلفوا في الرأي أو أضمروا غدرا[٢]

وسماهم الناصر بن المعظم ، الترك ، وذلك في مدحه للمستعصم سنة ٦٤٣هـ ، عند لقائه لهم قرب بغداد ، قـــال :

لقيت ملوك الترك إذ جاء جمعها تجالد دين الله بالكبر والكفـــر[٣]

وقال ابن أبي اليسر في حديثه عن نكبة بغداد سنة ٦٥٦ هـ :

وكم حريم سبته الترك غاصبـــة وكان من دون ذاك الستر أستـــار[٤]

وإطلاق اسم الترك عليهم إشارة إلى اعتقاد المسلمين بأنهم من الجنس التركـــي[٥] . قال محمد المنهجي البزار ، مشيرا إلى ذلك ، ومبينا اشتراكهم في الجنس مع المماليك الذين تصدوا لهم ، وذلك بعد انتصار المسلمين بقيادة قلاوون ، في موقعـة حمص سنة ٦٨٠ هـ ،

وغزوت تركهم بترك مثلهـــــا فتقطعت ما بينها الأرحـــام[٦]

---

(١) كنز الدرر : جـ٩ ص ٩٦

(٢) زبدة الفكرة : جـ٩ ص ١٦٣

(٣) المصدر نفسه : جـ٩ ص ٣٧

(٤) تاريخ الاسلام : حوادث سنة ٦٥٦ ، ص ٢٤٩

(٥) انظر : صبح الأعشى : جـ١ ص ٣٦٦ ، المنهل في التاريخ : ص ٥ — ١٤ ، ابن خلدون : م٥ ص ١٠٩٨ .

(٦) زبدة الفكرة : جـ٩ ص ١٦٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وسماهم سعدى الشيرازى عترة قنطورا[1] ، فقال في قصيدته التي رثى بها بغداد :

وعترة قنطورا في كل منزل تصيح بأولاد البرامك من يشري[2]

وسمّاهم محمد المنبجي بني خاقان[3] ، قال

إن البغاة بني خاقان أقدمهم على هلاكهم الطغيان والأشر[4]

وقال الأمير ناصر الدين محمد بن الحلبي :

نروم بني خاقان جمعا لأنهم بغوا وطغوا عن قسوة وتجبر[5]

وقال شاعر في مدح الظاهر بيبرس ، لخوضه نهر الفرات لقتالهم سنة ٦٧١ هـ :

زعمت بنو خاقان أن خيولنا تخشى العبور إليهم في الماء[6]

وأكثر هذه الأسماء تكرارا في الشعر المغل والتتار ، وما سواهما ورد في نطاق محدود .

* * *

وقد تجلت في الشعر صورة المغول الغزاة بأطماعهم التي كانوا يسعون إلى تحقيقها في بلاد الإسلام . قال شرف الدين الأنصارى ، مصورا ذلك :-

---

(١) هم الترك ، ويقال : إن قنطورا كانت جارية لإبراهيم فولدت له أولاد ، والترك والصين من نسلها . انظر : اللسان : جـ٥ ص ١١٩

(٢) حسين محفوظ : ص ٧٥

(٣) خاقان : اسم لكل ملك من ملوك الترك . انظر : اللسان . جـ١٣ ص ١٤٢

(٤) كنز الدرر : جـ٩ ص ٩١

(٥) زبدة الفكرة : جـ٩ ص ١٣٦

(٦) المصدر نفسه : جـ٩ ص ١٣٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فأسلموا الشام بعدما طمعوا في ملك أرض الحجاز والجيش[1]

فلم يكن طمع المغول مقتصرا على الشام ، بل كانوا يريدون بالإضافة إليها الحجاز والحبشة . ولكن الذى قصّر من هذه الأطماع هزيمتهم في عين جالوت سنة ٦٥٨هـ ، التي نتج عنها حماية بلاد المسلمين من ديار سلاجقة الروم في شمال الشام إلى بلاد الحبشة في الجنوب . كما صوّر ذلك شرف الدين الانصارى ، الذى قال مخاطبا الملك المنصور الثاني ، ملك حماة ، ذاكرا ما كان لجهاده في عين جالوت من أثر في ذلك :

حتى حفظت على العباد بلادنا من رومها الأقصى إلى أحبوشها[2]

وتردد قريب من هذا المعنى ، الذى يدل على إدراك الشعراء لأطماع المغول ، في قول بدر الدين محمد المنهجي البزاز ، في قصيدة مدح بها قلاوون بعد انتصاره في معركة حمص سنة ٦٨٠ هـ :

لما سمعت بجحفل المغل الذى وطىء الشآم وهمه الأهرام[3]

فلم يكن هدفهم الإكتفاء بغزو بلاد الشام بل كانوا يطمعون في الانطلاق إلى مصر بعد الاستيلاء عليها[4] .

وظهرت في الشعر صورة جيش المغول بأخلاطه وأحلافه[5] ، ومن كان ينضم إليه من أعداء الإسلام ، أو من المسلمين الذين ضعفت نفوسهم ، أو انهارت قواهم . قال القاضي فتح الدين بن عبد الظاهر في وصف جيشهم الذى هزم في وقعة حمص سنة ٦٨٠ هـ :

وأجمع المغل والتكفور واتفقوا مع الفرنج ومن أردى به الكفر[6]

---

(١) ديوان الصاحب شرف الدين : ص ٢٦٩

(٢) المصدر نفسه : ص ٢٧١

(٣) زبدة الفكرة : جـ ٩ ص ١٦٤

(٤) انظر : جامع التواريخ : م٢ جـ١ ص٣٠٨

(٥) انظر : ص ٨٣ من هذه الرسالة .

(٦) الوافي بالوفيات : جـ ٣ ص ٣٦٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقال شهاب الدين محمود في وصف جيشهم الذي حاصر الرحبة سنة ٧١٢ هـ

أتوا كالدبا ما بين كرج وأرمن وفخل وأتراك وعُربٍ وأعجام (١)

وهذا يبيّن أن جيشهم لم يكن مغولياً خالصاً ، بل كان فيه أحلاف من الأرمن والفرنج والكرج والأتراك والعرب والعجم .

ونجد في الشعر وصفاً لجيش المغول وعدده . فهو من الكثرة بحيث يضيق به الفضاء . ويشبه البحر في سعته . قال بدر الدين محمد المنبجي البزاز ، في وصف جيشهم الذي هزم في حمص سنة ٦٨٠ هـ :

جيش يضيق به الفضاء عرمرم كالبحر زخّار العباب لُهام (٢)

وقال في حديثه عن جيشهم الذي هزم سنة ٧٠٢ هـ في مرج الصفر :

وضيقوا الأرض من سهل ومن جبل كأنما هم جراد فيه منتشر (٣)

لقد أقبل هذا الجيش فملأ السهل والجبل ، ولم يجد الشاعر صورة يشبهه بها أصدق من الجراد المنتشر . ولهذا التشبيه إيحاءان : الأول كثرة العدد . والثاني : الأثر الذي يخلفه الجراد وهذا الجيش متشابه ، فكلاهما يذر الأرض خرابا .

وقد حدد القاضي فتح الدين عبد الظاهر عدد أفراد جيش المغول في معركة حمص سنة ٦٨٠هـ . فذكر أنهم ثمانون ألفا . قال :

جاءت ثمانون ألفاً من بعوثهم لأرض حمص وكان البعث والنشر (٤)

ولم يقتصر الشعر على تصوير الجيش من حيث ضخامته أو عدد أفراده ، بل تعدى ذلك إلى وصف هزيمته . وقد كان هذا الميدان مجالا واسعا للشعراء

---

(١) درة الاسلاك : جـ ١ ص ٣٠١

(٢) زبدة الفكرة : جـ ٩ ص ١٦٤ . واللُّهام : الجيش الكثير لأنه يلتهم كل شيء انظر : اللسان : جـ ١٢ ص ٥٥٤ .

(٣) كنز الدرر : جـ ٩ ص ٩٢

(٤) الوافي بالوفيات : جـ ٣ ص ٣٦٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ليظهروا تشفيهم بالمغول . قال شرف الدين الأنصاري في وصف وقعة عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ ، في سياق مدح الملك المنصور الثاني ، صاحب حماة :

روّيت أكباد القنا بدمائهم ... لما أطال سواك في تعطيشها
دارت رحى الحرب الزبون عليهم ... فغدت رؤوسهم حطام جريشها (١)

فالمعركة رحى تدور ، وما تجرشه هو رؤوس المغول . ورماح المسلمين ارتوت من دمائهم . وفي هذا تصوير للمغول وقد حلّت بهم الهزيمة ، ودارت عليهم الدائرة . ويورد الشاعر نفسه صورة أخرى عن المعركة في قصيدة أخرى مدح بها الملك المنصور الثاني ، نفسه ، فقال :

قيدت أبطال التتار بصولة ... تركتهم كالصيد في الأشراك
وأطرت منهم هام كل مدجج ... لله ، كل موحد سفاك
فالطعن والطاعون أسلمهم إلى ... ضرب كأشداق المخاض دراك
بردت أكباد القنا بقواضب ... قذفت عليهم كالضرام الذاكي
غادرتهم صرعى كأن كماتهم ... في المرج صرعى من سلاف حُناك (٢)

فبعد أن كان أبطال التتار يصولون ولا يجدون من يقف أمامهم ، وقف الملك المنصور في وجههم . فصاروا أمامه كالصيد في الشرك ، وأعمل فيهم سيفه ، فطارت منهم رؤوس ، وحل بهم من الطعن ما أشبه الطاعون ، الذي يبيد من يصيب . وكانت سيوف المسلمين تنزل عليهم كاللهيب المحرق . ويعطينا الشاعر في النهاية صورة عامة لأرض المعركة وقد امتلأت بجثثهم ، فيشبههم بقوم شربوا فسكروا وصرعتهم الخمر .

- وقال يوسف المهمندار في وصف جيش المغول الذي لحقت به الهزيمة على نهر الفرات سنة ٦٧١ هـ :

---

(١) ديوان الصاحب شرف الدين : ص ٢٧٠ — ٢٧١

(٢) المصدر نفسه : ص ٥٥٧ ، وحناك : بالضم ، حصن كان بمغرة النعمان ، وشعراء المعرة يكثرون من ذكره في الغزل . انظر : ياقوت : جـ٢ ص ٣٠٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لم يفتحوا للرمي منهم أعينـــا حتى كحلن بكل لدن أسمـــــر
فتسابقوا هربا ولكن ردّهـــم دون الهزيمة رمح كل غضنفـــــز
ملأوا الفضاء فمن قريب لم تدع فوق البسيطة منهم من مخـــــبر
سدت علينا طرقنا قتلاهـــم حتى جنحنا للمكان الأوعـــــر
ما كان أجرى خيلنا في إثرهم لو أنها برؤوسهم لم تعثـــــر
وجرت دماؤهم على وجه الثـرى حتى جرت منها مجارى الأنهـــر (١)

في هذا الوصف تهوين من شأنه المغول ، فبعد أن كانت لهم صولة وطغيـــان ، ها هم جنودهم يتسابقون في الفرار من المعركة . وتتلقاهم رماح المسلمين لتسدّ عليهم سبيل الهروب . وبالرغم من كثرتهم وامتلاء الفضاء بهم ، فقد تكفل جيش المسلمين بإبادتهم جميعا . وركز الشاعر تصويره على أرض المعركة ، وقد امتلأت بجثث قتلاهم مما اضطر المسلمين إلى سلوك أماكن وعرة تجنبا للمشي فوق تلـــك الجثث. وخيول المسلمين تعثر برؤوس قتلاهم ، ولولا ذلك لم يفتها واحد منهـــم ، وارتوى التراب من دمائهم ، حتى امتلأت الوديان منهـــا .

ووصف ناصر الدين بن النقيب جيش المغول في الموقعة نفسها ، وقـــد أصاب أفراده الذعر ، وامتلأت قلوبهم بالخوف ، لما طلع عليهم الظاهر بيبرس بجيشه ، فولّوا هاربين ، ولاذوا بالجبال ، فكان مثلهم كمثل ابن آوى ، وقـــد أبصر أسدا ، أو الحبارى وقد رأى صقرا . قـــال :

طلعتَ عليهم كالصبح يجلـــو بطلعته من الظُلَم اعتكـــارا
فلما أن رأوك فما استطاعـوا ثباتا لا ولا ملكوا اصطبـــارا
وولّوا هاربين بلا عقـــــول وباتوا خائفين وهم حيـــارى
فهذا قد رَقي جبلاً وهـــذا لشدّة بأس عزمك حاز عـــارا (٢)
فكنت الليث أبصره ابن آوى وكنت الصقر شاهده الحبارى (٣)

---

(١) الوافي بالوفيات : جـ٢٦ ص ٩٨ ، الغيث المسجم : جـ٢ ص ٦٩ ، فوات الوفيات جـ ١ ص ٢٣٩
(٢) في الأصل : لشدة باسك حاز عارا ، ووزنه مختـــل
(٣) الروض الزاهر : ص ٤١٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وصور الشاعر محمد المنبجي البزاز قتلى المغول ، وقد امتلأت بهم أرض حمص في أعقاب هزيمتهم فيها سنة ٦٨٠هـ . فقال مخاطبا المنصور قلاوون قائد جيش المسلمين فيهـــا :

غادرتهم في أرض حمص وخيلهم لوحوش أرضك والطيور طعـــام (١)

وليس هذا فحسب ، فلم تكن جثث قتلى المغول طعاما للطيور الجارحة ووحـــوش الارض فقط . وإنما كان لها منفعة أخرى للطيور ، وهي التي يوضحها قول القاضي جمال الدين أبي بكر ، في وصف قتلاهم في موقعة مرج الصفر :

والطير ترعى نهارا لحمهم فإذا ما الليل جنّ ففي أقحافهم تكر (٢)

فإذا كانت أجسادهم طعاما لهذه الطيور ، فإن جماجمهم قد أصبحت أوكارا لها . وفي هذا إظهار لما كان يحس به الشعراء من نشوة النصر الذي ضاءل من حجم المغول . فبعد أن كانوا مبعث رعب ، ومصدر تدمير ، صاروا رمزا للذلة والضعف ، فها هي طيور الجو تتخذ من أجسادهم مطعما ومسكنـــا .

وصور الشاعر شمس الدين الطيبي كثرة قتلاهم في وقعة مرج الصفر ، بحيث ضاقت بهم الأرض ، وملت من لحومهم الوحوش والطيور الجارحة ، لكثرة ما أكلـــت منها ، حتى أصابها القرف قـــال :

وملّت الأرض قتلاهم بما قَذَفَتْ منهم ، وقد ضاق منها المهمه القَذَفُ (٣)

والطير والوحش قد عافت لحومهم ففي مزاج الضواري منهم قـرف (٤)

---

(١) زبدة الفكرة : جـ٩ ص ١٦٤

(٢) كنـز الـدرر : جـ ٩ ص ٩٦

(٣) المهمة : المفازة والبرية القفر : اللسان : جـ١٣ ص ٥٤٢ ، القَذَفُ : مفازة قذف : أي بعيده . اللسان : جـ ٩ ص ٢٧٧ .

(٤) الوافي بالوفيات : جـ٤ ص ٣٦٣ - ٣٦٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتردت صورة الجيش المغولي المهزوم عند الشعراء ، بعد كل انتصار حققه المسلمون . فبعد وقعة حمص سنة ٦٨٠هـ ، قال محمد المنجي العزاز :

طلبوا النجاة ولا نجاة لهارب ... من خوف بأسك لم يُجِرْهُ ذِمام
فقضوا عطاشاً لا يُبَلُّ لهم على الإعياء ... والجوع الشديد أوام (١)

فلا الهرب يفيدهم ، ولا الفرار ينجيهم . فإن أخطأتهم السيوف والرماح ، تلقاهم الجوع والعطش في طريق الهزيمة ، فقضى عليهم .

وقال علي بن أبي سوادة في وصف معركة مرج الصفر ، وما حلّ فيها بالمغول من الهزيمة ، كما يذكر التحركات العسكرية التي أجراها الجيشان ، وكانت نتيجتها حلول الهزيمة بالمغول :

كسرنا حزبهم لما التقينا ... وأردينا الجحافل والكمينا
رميناهم إلى جَبَلٍ فباتوا ... يعضّون الأنامل نادمينا
فلما لاح ضوء الصبح أضحوا ... على روس الثنايا حائرينا
زحفنا نحوهم بالجيش نبغي ... قتالهم فولوا هاربينا
وطنا عن طريقهم فماجوا ... وعادوا للهزيمة طالبينا
وسقنا خلفهم في كل واد ... نذيقهم من البلوى فنونا
وأفنينا جيوش المُغْلِ قهرا ... وعدنا بالسلامة آمنينا
وكان الذل والخذلان فيهم ... وكان الناصر المنصور فينا (٢)

لقد صورت هذه الأبيات بعض مجريات المعركة ، وركزت الحديث على جانب المغول الذين صدمهم الجيش الإسلامي صدمة ألجأتهم إلى الجبال ،

---

(١) زبدة الفكرة : جـ٩ ص ١٦٤

(٢) إعلام النبلاء : جـ٤ ص ٥٤٨ ، وانظر : درة الأسلاك : جـ١ ص ٢٤٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأمسوا بعدها بالندم على توغلهم في أرض المسلمين . وتملكتهم الحيرة ، وحاصرهم المسلمون ، وسدوا عليهم طريق النجاة ، ثم فتحوه لهم ليصبحوا في متناول اليد ، فولى المغول الأدبار ، وتبعهم المسلمون يذيقونهم العذاب جزاء ما قدموا لأنفسهم من إيقاع الأذى بالمسلمين من قبل . وحلّ بهم الفناء والذل ، وكانت السلامة والنصر في جانب المسلمين (١) .

وعرض صورة الهزيمة في المعركة نفسها القاضي جمال الدين أبو بكر فقال :

لاذوا بشمّ شماريخ (٢) الجبال فما ... حمتهم قُلَلٌ (٣) منها ولا صُوَرُ (٤)
ومزّقوا شُرّداً بين الزحام فكم ... شلو تنازع فيه الذئب والنمر
أين المفرّ وقد حام الحِمام بهم ... هيهات لا ملجأ يُرجى ولا وَزَرُ
نادى بهم صارخ أغرى الفناء بهم ... فإن سألتَ فلا خُبْر ولا خَبَر
جاءوا وقد حفروا من مكرهم قُلُباً ... ألقاهم الله قسرا في الذى حفروا
وشكّروا (٥) في أراضينا مباذرة ... والآن قد حصلوا أضعاف ما بذروا
وافى بهم أجل يمشي على مهل ... حتى محاهم فلا عين ولا أثر
أمّوا الفرات وقد راموا النجاة فكم ... حلت بهم عِبَرٌ فيها وما اعتبروا
مرائر القوم من خوف قد انفطرت ... والكلّ من قبل عيد الفطر قد نحروا
جميعهم قُتلوا صَبْراً وأعظمُهم ... جميعها بنواحي جِلّقٍ صُبُر
لم يُقبروا في نواويسٍ (٦) ولا جَدَثٍ ... وإنما في بطون الوحش قد قبروا (٧)

---

(١) انظر وصف المعركة في المقريزى : ج ١ ق ٣ ص ٩٣٥ — ٩٣٦
(٢) جمع شِمْراخ وهو رأس الجبل . القاموس : جـ ١ ص ٢٦٢ .
(٣) جمع قُلّة ، وهي أعلى الجبل . القاموس : جـ ٤ ص ٤٠ .
(٤) جمع صارة ، وهي أعلى الجبل . القاموس: جـ٢ ص ٧٣ .
(٥) الشَكير : هو ما ينبت حول الشجرة من أصلها . اللسان : جـ٤ ص ٤٢٦ ، ولم يرد الشاعر هذا المعنى ، وظاهر قوله أنه استعمل الكلمة للدلالة على زرع النبات ذى الساق الضعيفة كالقمح والشعير . وله في دلالة اللفظ متسع . انظر اللسان : جـ٤ ص ٤٢٥ — ٤٢٦ .
(٦) الناووس : مقبرة النصارى . اللسان : جـ٦ ص ٢٤٥ .
(٧) كنز الدرر : جـ٩ ص ٩٥ — ٩٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

صور الشاعر المغول في هذه الأبيات ، وقد بلغ بهم الخوف مداه ، وتراه يكرر في البيت الأول منها ثلاثة ألفاظ ، تدل كل واحدة منها على قمة الجبل : شماريخ ، قلل ، صور . فقد لجأوا إليها ، وبحثوا فيها عن ملاذ فلم يجدوه ، والذي لا تحميه قمة الجبل فلا نجاة له . وكان من نتيجة ذلك أن مزّقوا شر ممزق ، وانتثرت أشلاؤهم على الأرض ، تتنازعها الوحوش، ويظهر الشاعر في الأبيات في صورة الإنسان القوي الواثق من قدرته ، فقد حلت بالمغول عزيمة نكراء ، وحقق المسلمون نصرا عظيما ملأ نفوسهم بالنشوة والأمان . وفي ضوء هذا نقدر وصف الشاعر للمغول بأنهم لا مفرّ لهم من قدرهم ، ولا ملجأ لهم يحتمون فيه ، فقد أحاط بهم الفناء ، وأتاهم أجل محتوم من الوجود . وتظهر هنا أمنية الشاعر في زوال المغول ، لينقطع أذاهم عن المسلمين ، وقد ظهر هذا في قوله بأنه لم يبق لهم عين ولا أثر .

وما نزل بهم من العذاب إنما كان جزاء لما أرادوا من السوء بالمسلمين . وقد وقعوا في الحفرة التي أرادوا إيقاع المسلمين فيها . وتوجه من استطاع منهم الفرار إلى نهر الفرات ليقطعه ويولي هاربا تلقاء بلاده ، وهنا يذكر الشاعر المغول بما جرى لهم على نهر الفرات من قبل سنة ٦٧١هـ ، من الهزيمة التي كان عليهم أن يتذكروها كلما قاطعوا نهر الفرات ، فيمتنعوا عن دخول بلاد الشام . ويشير الى شدة الخوف الذي أصابهم ، مما جعل مرائرهم تنفطر . ويذكر الشاعر معنى طريفا وهو أن المسلمين قد ضحّوا بالمغول ولكن قبل عيد الفطر ، حيث أن المعركة وقعت في رمضان من سنة ٧٠٢ هـ .(١)

ويظهر الشاعر تشفّيه بالمغول واحتقاره لهم ، فيصور قتلاهم وقد حرموا من الدفن في القبور ، فصارت بطون الوحش مقابر لهم ، وبقيت عظامهم في ضواحي دمشق شاهدة على هزيمتهم .

---

(١) انظر : المقريزي : جـ١ ق ٣ ص ٩٢٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ووقف الشاعر شمس الدين الطيبي يناجي مرج الصفر الذي دارت فيه الدائرة على المغول ، ويسجل ما بقي في المرج من آثارهم ، فقال :

يا مرج صفّر بيضتَ الوجوه كما ... فعلتَ من قبل بالإسلام يؤتنف
أزهر روضكَ أزهى عند نفحته ... أم يانعات رؤوس فيكَ تقتطف
غدران أرضكَ قد أضحت لوارد ها ... ممزوجة بدماء المغل تُغترَف

والشاعر يربط هنا بين انتصار المسلمين على المغول في هذا المرج سنة ٧٠٢ هـ ، وانتصار أسلافهم فيه على الروم في حرب الفتوحات الاسلامية سنة ٤ هـ (١) ، فكأنما كان هذا المرج سعدا على المسلمين من قبل ومن بعد ، وانظر كيف يقارن بين اقتطاف زهور المرج وقطع رؤوس المغول ، فكلاهما في نظره جميل ، هذا لما فيه من بهجة وروعة ، وذاك لما فيه من حفظ لبلاد المسلمين من المفاسد والشرور ، وقد قتل من المغول اعداد كبيرة ، حتى امتزجت دماؤهم بغدران المرج

ثم يصف شمس الدين الطيبي ما حل بالمغول من الهزيمة ، فيقول :

أووا إلى جبل لو كان يعصمهم ... من موج فرج (٣) المنايا حين يختبط
دارت عليهم من الشجعان دائرة ... فما نجا سالم منهم وقد زحفوا
ونكّسوا منهم الأعلام فانهزموا ... ونكّسوهم على الأعقاب فانقصفوا
ففي جماجمهم بيض الظبا زُبَر ... وفي كلاكلهم سمر القنا قُصَف
فرّوا من السيف طعونين حيث سروا ... وقُتّلوا في البرايا حيثما ثُقفوا
فما استقام لهم في أعوج نهج (٤) ... ولا أجارهم من مانع كَنَف
... رُدّوا فكل طريق نحو أرضهم ... تدلّ جاهلها الأشلاء والجيف

---

(١) الوافي بالوفيات : جـ٤ ص ٣٦٣

(٢) انظر : البلاذري : ص ١٢٥

(٣) الفرج : الخلل بين الشيئين ، ومنه فرج الوادي : ما بين عدوتيه ، اللسان جـ٢ ص ٣٤١

(٤) النَّهْج : الطريق المستقيم ، اللسان : جـ٢ ص ٣٨٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سدت مسالكهم بالسيف فافترقوا مجدلين سدى من سوء ما اقترفوا[1]
وأدبروا فتولى قطع دابرهم والحمد لله قوم للبغي ألفوا
ساقوم فسقوا شط الفرات دما وطمهم بعباب السيل فانحرفوا
وأصبحوا بعد لا عين ولا أثر عن القُلاع[2] عليها منهم شَعَف[3]

فهم وقد حلت بهم الهزيمة ، لم يجدوا عاصما يحميهم من المسلمين ، ونكست أعلامهم ، وانجدل قتلاهم في ساحة المعركة ، بعد أن أعملت فيهم سيوف المسلمين ورماحهم ضربا وطعنا . ونقف عند صورة تدل على الإحساس بنشوة الإنتصار عند الشاعر ، وهي جعله الدليل إلى بلاد المغول أشلاء القتلى وجيف الخيول ، حيث تولى المسلمون قطع دابرهم عبر الطريق الذى انهزموا فيه ، وسقوا ضفاف الفرات من دمائهم . وذلك لأن طريقهم إلى بلادهم تكون بقطع نهر الفرات . ويصور جيش المغول وقد قضي عليه ، فلا عين له ولا أثر ، إلا ما بقي على وجه الأرض من الأشلاء ، وهنا نجد عند شمس الدين الطيبي ما وجدناه عند القاضي جمال الدين ، من تمني فناء المغول وزوال خطرهم . ويحسّ القارئ بأن الشاعر يلتذ وهو يعرض صورة المغول المهزومين ، لما لهذه الصورة من الأثر الإيجابي في نفوس المسلمين ، الذى أعياهم الخوف من المغول سنين طويلة .

وسلك القاضي جمال الدين أبو بكر سبيل السخرية من المغول ، فصورهم حمرا تنفر من أسود المسلمين . قال :

لم ينفروا خِيفةً من كل قَسورة وفَرّ جمعهم إلا وهم حمر[4]

---

(١) لم يرد هذا البيت في الوافي بالوفيات . وورد في درة الاسلاك : جـ١ ص ٢٤٧ ، في أبيات من القصيدة .

(٢) هو الطين يتشقق إذا نضب عنه الماء . القاموس ، جـ ٣ ص ٧٤ .

(٣) الوافي بالوفيات : جـ٤ ص ٣٦٤ . والشعف : جمع شعفه ، وهي الخصلة في الرأس . القاموس : جـ ٣ ص ١٥٤ .

(٤) كنز الدرر : جـ ٩ ص ٩٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وردت الصورة نفسها عند الشاعر محمد المنبجي بقوله :

أفنيتهم بليوث منك باسلة وهل تقاوم آساد الشرى الحمر (١)

ووصفهم المنبجي في صورة تنم عن الإزدراء والإستخفاف ، فشبههم بالحطب الذي تأكله نيران المسلمين الموقدة . قال :

أوقدت نيران حرب أصبحوا حطبا للجمر منها لها شوك القنا شرر (٢)

وبيّن كيف حلت الهزيمة بالمغول ، وحاصرهم الخوف ، فصار النفر القليل من المسلمين يأسر الألف منهم بيسر وسهولة ، بعد أن كانوا يخيفون المسلمين . قال :

وضاقت الأرض مذ ولّوا بما رحبت عليهم فهم بالخوف قد حصروا

وألبسوا الذل حتى إن أشجعهم يأتي إليك بألف منهم نفر (٣)

وبيّن القاضي ناصر الدين بن المستقلاني أن المغول قد عطلوا عقولهم ، ولم يأخذوا عبرة مما حلّ بهم على أيدي المسلمين مرة بعد مرة . قال :

فقل للتتار العادمين عقولهم نسيتم سيوف الترك (٤) (تهبركم) هبرا

وكم كسروكم مرة بعد مرة فما حصروا القتلى ولا استوعبوا الأسرى (٥)

وهم عند شمس الدين الطيبي قوم معتدون بغاة ، وما يحل بهم من البزائم هو جزاء البغي والتعدي على المسلمين . قال يخاطبهم :

ذوقوا وبال تعدّيكم وبَغْيَتكم في أمركم ولكأس الذل فارتشفوا (٦)

---

(١) كنز الدرر : جـ٩ ص ٩٦

(٢) المصدر نفسه : جـ٩ ص ٩٢

(٣) المصدر نفسه : جـ٩ ص ٩٣

(٤) الترك هنا تعني المماليك الذين كانوا ينتسبون إلى الجنس التركي ، وعندما أرخ ابن حبيب لدولتهم سمى كتابه : " درة الأسلاك في دولة الأتراك " .

(٥) زبدة الفكرة : جـ ٩ ص ١٦٢

(٦) الوافي بالوفيات : جـ٤ ص ٣٦٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتردد المعنى نفسه عند محمد المنبجي بقوله :

إن البغاة بني خاقان أقدمهم على هلاكهم الطغيان والأشر (١)

وأورد القاضي محي الدين بن عبد الظاهر صورة لطائفة من المغول لم يأتوا إلى بلاد المسلمين للغزو والاعتداء ، بل جاءوا مستأمنين ، وذلك في سنة ٦٦٠هـ، وكانوا من أصحاب بركة خان الملك المغولي (٢) الذي حدث خلاف بينه وبين هولاكو ، فانحاز هؤلاء إلى المسلمين بإشارة من ملكهم ، وطلبوا الأمان ، " ولما وصلوا أسلموا ، وطهّروا ، وقدّم أمراؤهم المذكورون ، وأقرّوا وعينت لهم الإقطاعات " ، فقال القاضي محي الدين بن عبد الظاهر مخاطبا الظاهر بيبرس بهذه المناسبة :

يا مالك الدنيا الذي أضحى صلاحا للأُمَم
يا من معا بالعدل ما للظُلْم فينا من ظُلَم
يا من تساق له التتار رغنيمة مثل الغنم
خافوا سيوفك أنها ستسوقهم نحو النقم
فأتوا لبابك كلُّهمْ يأوون منه إلى حَرَم
أمِنوا به مما يُخا فه من البلايا والسَقَم
جعلوا جنابك جُنّة وثرى خيولك مستلَم (٣)
بسطوا يمينا للهداية (٤) (م) طالما خضبت بدم
أعطيتهم ما للمؤلفة (م) القلوب من القِسَم (٥)

لقد جاء هؤلاء المغول إلى الظاهر مستسلمين ، كما تساق الغنم ! ، بلا مقاومة ولا مدافعة . والذي دفعهم إلى ذلك خوفهم من سيوف الظاهر بيبرس ، ورجاؤهم

---

(١) كنز الدرر : جـ٩ ص ٩١

(٢) هو ابن عم هولاكو ، وقد أسلم ، ومن أكبر حسناته كسره لهولاكو وتفريق جنده ، وكان يناصح الملك الظاهر ، ويعظمه ويكرم رسله ، وقد عارض في المساس بدولة الخلافة . انظر : ابن كثير : جـ١٣ ص ٢٤٩ ، صبح الأعشى : جـ٤ ص ٣٠٩-٣١٠

(٣) في زبدة الفكرة : ومرى خيولك مصطلم ، والمرى : التراب . القاموس: جـ٤ ص ٣٠٣

(٤) في زبدة الفكرة : للهدانة .

(٥) الروض الزاهر : ص ١٨٠-١٨١ ، زبد الفكرة : جـ٩ ص ٩٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في أن يأمنوا من المخاوف ، فتوقّوا من ذلك بجنابه ، وقبلوا ثرى خيله ، إعلانا منهم للاستسلام والخضوع . ومدوا أيديهم بطلب الهداية ، والدخول في الإسلام، بعد ما سفكوا بها كثيرا من دماء المسلمين . ويصف ما أعطاه الظاهر لهم بأنه من سهم المؤلفة قلوبهم في الزكاة ، وذلك ليتمكن الإسلام في قلوبهم .

وقال القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر فيهم أيضا ، وقد شاهدوا رؤوس قادة المغول الذين قتلوا في عين جالوت سنة ٦٥٨هـ ، معلقة على باب زويلة بالقاهرة ، وهو يخاطب الظاهر بيبرس :

فرؤوسٌ على الشراريف(١) قتلى ... ورؤوسٌ على التراب سجودُ
حين وافى التتار في خِلَعٍ (م) ... منك وكلّ صنائع(٢) وعبيد
ورأوا منهم رؤوسا على السور (م) ... بحكم الرماح أمست تميد
هذه قد عصت وهذى أطاعت ... هكذا هكذا تكون السُّعود(٣)

فهو يقارن بين فريقين من المغول ، فريق جاء غازيا معتديا على المسلمين وديارهم ، فكان مصير قادته القتل ، وقطع الرؤوس وتعليقها في مكان عام ليكون عبرة للمعتبرين . وفريق جاء مستأمنا فنال العطاء والأمان .

* * *

ولم يقتصر الشعر على وصف المغول القتلى والمهزومين والمستأمنين في صورة جماعية . وانما نجد فيه صورا لقادتهم . قال شرف الدين الأنصاري يصف إيقاع الملك المنصور الثاني صاحب حماة ، بقائد مغولي في عين جالوت، وذلك في صورة ساخرة :-

---

(١) الشراريف : لعلها الشواريف اجمع شاروف ، وهي المكنسة ، أي أن رؤوسهم وضعت على عِصيّ المكانس إهانة لهم . انظر اللسان : جـ٩ ص ١٧٥

(٢) صنائع: جمع صنيع ، وهو من يحسن الإنسان إليه . القاموس : جـ٣ ص ٥٢

(٣) الروض الزاهر : ص ١٧٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

صادم جيش التتار مقتحما ... ما جَشأتْ نفسُه ولم تَجِش
لما طغى كبشه تعمّده ... فصيّر الرأس منه في الكَرِش (١)

وتأمل إنسانا صار رأسه في كرشه !

وقال القاضي ناصر الدين بن المسقلاني يصف قادة المغول في معركة حمص سنة ٦٨٠هـ ، ويذكر ما حل بهم ، فمنهم القتيل ، ومنهم الجريح والمهزوم .

قال يصف المعركة :

هي الفتك بالأعداء والظفر الذي ... شفى الصدر من أبغا وقد أثلج الصدرا
وأمكن من صمغار حدّ سيوفنا ... فخرّ إلى الأذقان لا ساجدا شكرا
ونكّس أعلاما وفلّ كتائبا ... لمنكو تِمرْ كالأسد في الحرب أو أضرى
فلما رأوه قد تقطّر (٢) قاتلوا ... عليه قتالا قطّع البيض والسمرا
فلما نجا منه وأُركب طِرفه (٣) ... تولى وخلّى الأبَ والابن والصهرا
وراح شفينا بالجراح مصبّرا ... يئن ويشكو من مرارتها ضرّا (٤)

لقد شفت المعركة صدور المسلمين من أبغا ، ملك المغول ، الذى أرسل جيشه ليفسد في البلاد ، ولئن لم يحضر المعركة بنفسه (٥) ، فقد هزم جيشه ، وقتل منه أعداد كبيرة في ميدان القتال ، وفي الهزيمة ، وعلى ضفاف الفرات ، حيث أمر السلطان بحرق النباتات التي على تلك الضفاف ، فاحترق منهم عدد كبير (٦) ، وقتل في المعركة " صمغار " ، وهو من أكبر مقدميهم وعظمائهم ، وكانت له إلى الشام غارات عديدة (٧) ، وأوقع المسلمون بقائدهم ، منكوتمر ، الذى وقع عن فرسه (٨)

---

(١) ديوان الصاحب شرف الدين : ص ٢٦٨
(٢) رهى بنفه من علو . اللسان : جـ٥ ص ١٠٧
(٣) فرس كريم عتيق . اللسان : جـ٩ ص ٢١٤ .
(٤) زبدة الفكرة : جـ٩ ص ١٦٢
(٥) اتجه أبغا بفرقة من جيشه إلى الرحبة ، واتجه منكوتمر بالجيش إلى حلب وحماة ، ثم حمص ، حيث حلت بهم الهزيمة . انظر : المقريزى جـ١ ق ٣ ص ٦٩١ .
(٦) المقريزى : جـ١ ق ٣ ص ٦٩٥ .
(٧) المصدر نفسه : جـ١ ق ٣ ص ٦٩٦
(٨) المصدر نفسه : جـ١ ق ٣ ص ٦٩٤ — ٦٩٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وجرح في المعركة ثم ولّى هاربا لا يلوى على أحـــد .

ووصف الشاعر نفسه ما أصاب "أبغا" من الذهول والخوف عند سماعـة أخبار معركة حمص ، فولى هاربا الى عاصمته توريز[1] يتحصن بها ، ولكن الشاعـر يبيّن له أن لا نجاة له من الخوف الذى ملأ قلبه من المسلمين ، ولو تحصن فـي قصر غمدان[2] . ويذكر الشاعر المغول بان ملكهم أبغا قد زار مصارعهم في أكثر مـن موقع وأجرى على القتلى منهم دموعا غزيرة[3] . قـال :

وكم زاركم أبغاءُ من بعد قتلكـم ... فأجرى عليكم من مدامعه جمـرا

وأكبر مرأى هاله بسماعـه ... فَفَرَّ إلى توريز يجعلها ظهـرا

ولو حلّ في غُمدان يبغي تحصنا ... لما اسطاع فيها أن يقيم ولا قرّا[4]

وهذه الصورة مثيرة للسخرية من ملك المغول الذى أصابه الرعب فلم يقرّ له قـرار، وفيها دليل على ما انبثق في نفوس المسلمين من العزم القوى ، بعد انتصارهـم في موقعة حمص سنة ٦٨٠هـ . مما جعل الشاعر يهدد ملك المغـول .

ووصف علي بن أبي سواده ما حلّ بقادة المغول في معركة مرج الصفّر، فقال :

هزمنا قطلوشاه[5] يوم حـرب ... وأردينا بعزمتنا النّوينـا[6]

واتبعنا به بولاي[7] طـردا ... وجوبانا[8] وهيتوم[9] اللعينـا[10]

---

(١) أو تبريز، كان بها كرسي ملك بيت هولاكو ، وهي أشهر بلدة بأذربيجان . تقويم البلدان ، ص ٤٠٠ — ٤٠١

(٢) قصر مشهور باليمن . انظر : ياقوت : جـ٣ ص ٢١٠

(٣) عند ما كسر المغول في موقعة الأبلستين سنة ٦٧٥هـ. وبلغ خبرها ملكهم أبغا "جاء حتى وقف بنفسه وجيشه ، وشاهد مكان المعركة ومن فيها قتلى المغول" ابن كثير: جـ١٣ ص٢٧٢

(٤) زبدة الفكـرة : جـ٩ ص ١٦٢

(٥) هو قائد المغول الذى أنابه غازان ملك المغول ليقود الجيش إلى الشـام . انظـر : المقريزي : جـ١ ق٣ ص ٩٣٠

(٦) ورد في المقريزى اسم أحد قادة المغول وهو قرمجي بن الناق ، ولعل الشاعر أراده بلفظة النوين . انظر : المقريزى : جـ١ ق٣ ص٩٣٣ . وكلمة نوين : لفظـ فارسي معناه مقدم ألف . انظر: المقريزي : جـ١ ق٢ ص ٤٢٤ ، حاشية رقـم٣

(٧) هو أحد مقدمي التتار وقادتهم ، انظر : المقريزى : جـ١ ق٣ ص ٩٣٣

(٨) من تومين التتار ، والتومان : الفرقة التي يبلغ عددها عشرة آلاف مقاتل . هذا يعني أنه كان قائدا لعشرة آلاف مقاتل . انظر: المقريزى : جـ١ ق٣ ص ٩٣٣

(٩) هو ملك الأرمن وحليف المغول . انظر: تاريخ الأمة الأرمنية : ص ٢٣٦—٢٣٧

(١٠) درة الاسلاك : جـ١ ص ٢٤٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولم يكن ذكر القادة المغول مقتصرا على وصفما حلّ بهم من الهزيمة أو القتل . وإنما وجدنا من الشعراء من وجه الخطاب إليهم ليخبرهم بما حل بجنودهم بين يدى المسلمين . قال علاء الدين الوداعي مخاطبا غازان ، ومبلغا إياه ما حل بجيشه في مرج الصفر :

قولوا لغازان بأن جيوشه ... جاءوا ففرّجناهمُ بالشام
في سرحة المرج التي هاماتهم ... منثورها وشقائق الأجسام
ما كان أشأمها عليهم فرجةً ... عمت وأبركها على الإسلام (١)

هذا الخطاب ، فيه سخرية من غازان وجيشه ، الذى انتشرت رؤوس القتلى منه في مرج الصفّر إنتشار المنثور وشقائق النعمان . كما أن فيه دلالة على زوال مخافة المغول من نفوس المسلمين . فهذا شاعر منهم يتجرأ على ملك المغول ويسخر منه .

وسلك علي بن أبي سوادة الأسلوب نفسه ، نصدّر قصيدته التي وصف فيها معركة مرج الصفر بقوله :

ألا من مبلغٌ غازانَ قولا ... يحقق عنده الخبر اليقينا
لقينا جيشه في يوم سبت ... وكنا عند ذلك لا بسينا (٢) . . .

ولا يكتفي القاضي جمال الدين أبو بكر من مخاطبة غازان بنقل الأخبار العسكرية بل يلجأ إلى السخرية منه وتشبيهه بالبقر الذى لا مناص له من مخلب الأسد . قال

قولوا لغازان ياذا ما لملك إن ... تروغ من مخلب الرئبال يا بقر (٣)

ولم يشأ شمس الدين الطيبي أن يخاطب غازان بوساطة رسول من البشر ، فتوجه

---

(١) الوافي بالوفيات : جـ٤ ص ٣٦٢

(٢) إعلام النبلاء : جـ٤ ص ٥٤٨ ، وانظر : درة الاملاك : جـ١ ص ٢٤٩

(٣) كنز الدرر : جـ٩ ص ٩٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إلى البرق يحمّله رسالة توضح أخبار جيشه في من الصفّر . قـــال :

يا برقُ بلغ إلى غازان قصتهـــم وصف فقصتهم من فوق ما تصـف (١)

ويهوّن من شأن غازان ويعجب من إصراره على امتلاك دمشق ـ عروس الشـام ـ مع كونه ليس أهلا لها ، وهو في ذلك كآبائه الذين مضوا وكانوا حراصا على احتلالها ، دون جدوى ، فانقلبوا إلى النار وفي قلوبهم منها حسرة . قـــال :

ما أنت كفؤ عروس الشام تخطبها جهلا وأنت إليها الهائم الدنِفُ

قد مات قبلك آباءٌ بحسرتهـــا وكلهم مغرم مضرى بها كَلِـــف

إن الذي في جحيم النار سكنه لا تستباح له الجنات والغُـــرَف (١)

وينقل القاضي ناصر الدين بن العسقلاني الخطاب من ملوك المغول الأحياء إلـــى من مات منهم ، فيقـــول :

فمن مبلغٌ تحت التراب هَلاوُنـــاً وقائع ترك تقطع القلب والظهرا (٢)

فهو يتمنى أن تبلغ وقائع المماليك بالتتار هولاكو ، الذى فتك بكثير من المسلميـــن وأزال دولة خلافتهم ليعلم أنه ظهر في المسلمين من يوفر لهم الحماية والأمـــن .

ونال غازان من الشعر نصيبا فاق ما ناله غيره من ملوك المغول . وذلـــك لنجدة ما ذاقه المسلمون من الأذى على يد جيشه الذى غزا به الشام سنة ٦٩٩هـ ، حيث وقعت دمشق في قبضتهم ، وتفننوا في استخلاص الأموال من أهلهـــا . ولم تخرج تلك السنة " إلاّ وأهل دمشق في فقر فوقع " (٣) . وقد سجل ذلك عـــلاء الدين الوداعي فقـــال :

---

(١) الوافي بالوفيات : جـ٤ ص ٣٦٤

(٢) زبدة الفكـــرة : جـ١ ص ١٦٣

(٣) المقريـــزى : جـ١ ق ٣ ص ٩٠٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما دمشق فأهلها قد أصبحوا بكرية جعلوا التسنن مذهبا
سرّاً وجهراً أنفقوا أموالهم حتى تجلل كل شخص بالعبا (١)

ولعله يقصد بقوله "بكرية"، اقتداء أهل دمشق بأبي بكر الصديق، رضي الله عنه، الذي أنفق كل ما كان يملك، ولم يجد ما يلبس الاّ عباءة تجلل بها (٢) فقد استخلص غازان الأموال من أيديهم، حتى لم يجد أحدهم ما يستر به جسده الاّ عباءة.

ويبدو علاء الدين الوداعي بين ابتزاز غازان وجيشه أموال الناس، وبين التصوف، الذي من مظاهره التخلي عن الدنيا وزينتها، فجعل غازان شيخا صوفيّا يسلّك الناس في طريق الزهد. قال:

ما لبست الصوف من عبثٍ لا ولا الخُلقان مجّانا
إنه زيٌّ لمن هو مَنْ فقراءُ الشيخ غازانا (٣)

ويحظى نجم الدين علي بن داود القمفازي (٤) صورة ساخرة لغازان الذي غره انتصاره سنة ٦٩٩هـ، فجاء يرجّي النصر مرة أخرى سنة ٧٠٢هـ. ولكن الأمور سارت على غير ما اشتهى. قال:

لما غزا غازان فخّارا بما قد نال بالأمس وأغراه البطر
جاء يرجّي مثلها ثانية فانقلب الدست عليه وانكسر (٥)

---

(١) المقريزي: جـ١ ق ٢ ص ٩٠٣

(٢) الرياض النضرة: جـ١ ص ٨٧

(٣) المقريزي: جـ١ ق ٣ ص ٩٠٤

(٤) شيخ أهل دمشق في عصره في العربية، وله نظم ونثر. توفي سنة ٧٤٤. انظر: فوات الوفيات: جـ٢ ص ١٠٤.

(٥) الوافي بالوفيات: جـ٤ ص ٣٦٢، فوات الوفيات: جـ٢ ص ١٠٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد أشيع نبأ وفاة غازان بين المسلمين مرات عديدة . ويبدو أن إحساسا بالفرح كان يغمر قلوب المسلمين لتلك الشائعات، فموته إيذان بانتهاء أذاه . وكانت الخيبة تصيبهم عندما يظهر كذب الشائعة ، ثم تحقق لهم موته فقال علاء الدين الوداعي :

قد مات غازانُ بلا مِرْيَةٍ ... ولم يمت في المُدَدِ الماضيةْ
وكانت الأخبار ما أفصحت ... عنهُ فكانت هذه القاضيةْ (١)

فأجابه شهاب الدين محمود بقوله :

قد مات الرعب وإن لم تكن ... أسيافنا بموته راضيةْ
وإن يفتها فأخوه متى ... رأى لطباها كانت القاضيةْ (٢)

وعاد الوداعي هذا المعنى في أكثر من مقطوعة ، فقال :

قد مات غازان فويلك منافق ... يكابر فيه بالخديعة والمكر
ولم يبق إلاّ أن يجيء بنفسه ... ويحلف إني قد شبعت من القبر (٣)

وقال :

وكم جعل القُصّاد حيّاً وميّتاً ... قِرانَ وأوحته شياطينهم وحيا
إلى أن قضى نحبا وصار إلى لظى ... واصبح فيها لا يموت ولا يحيا (٤)

ولا يخفى ما في تصوير الوداعي من السخرية اللاذعة وبخاصة في قوله "ويحلف إني قد شبعت من القبر" ، ويظهر كذلك اعتقاد الوداعي كفر غازان وصيرورته إلى النار بموته .

---

(١) درة الاسلاك : جـ١ ص ٢٥٦ ، الدرر الكامنة : جـ٣ ص ٢٩٤
(٢) درة الاسلاك : جـ١ ص ٢٥٦
(٣) الوافي بالوفيات : جـ٢٥ ص ٦٥
(٤) المصدر نفسه : جـ٢٥ ص ٦٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن قادة المغول الذين ورد ذكرهم في الشعر ، تيمورلنك ، الذى غـــزا بلاد الشام سنة ٨٠٢ هـ[١] ، وكانت غزوته خاتمة الغزوات المغولية . وقد نظم ابـن عربشاه قصيدة بمناسبة موت تيمور سنة ٨٠٧ هـ[٢] ، سجل فيها الفظائع التي ارتكبها ، واعتبره فتنة من الفتن التي عانى منها أهل الأرض ، قـــال :

ناهيك منهم فتنـــة ... كالأبحر الظلما تمـــور
الأعور الدجّال مـــن ... قمم الجماجم والظهـــور
داخ البلاد ودارها ... ونوائب الدنيا تـــــدور
أملي له الله الحكيم فزاد عـــدوا فـــي فجـــــــــور
وأمّه مستدرجـــا ... إياه في شيء يبـــــور
ليراه في إمهائـــه ... حكما أيعدل أم يجـــور
فاجتاح كل الخلق من ... عرب ومن عجم القطـــــور[٣]
ومحا الهدى وغدا الردى ... بحسامه الباغي يمـــــور
أفنى الملوك وكلّ ذى ... شرف وذى علم وفـــــور
وسعى على إطفاء نور الله والديـــــن الطـــــــــهور[٤]

وكان الشاعر يقرن فتنة تيمور بفتنة المسيح الدجال[٥] ، فيسمي تيمور بالأعـــــن الدجال . ومن مظاهر فتنته عموم البلاد ، ثم عروش الملوك ، وقتل العلمـاء ، ومحاولة طمس الاسلام وإطفاء نوره[٦] . ويربط الشاعر بين تيمور لنك والغازى المغولي الأول ، جنكيز خان ، الذى أزال دولة الخوارزميين ، وأذاق المسلمين الويـلات ،

---

(١) انظر : النجوم الزاهرة : جـ١٢ ص ٢١٨ وما بعدها .

(٢) انظر : شذرات الذهب : جـ٧ ص ٦٢

(٣) انظر : المصدر نفسه : جـ٧ ص ٦٣ — ٦٤

(٤) عجائب المقدور : ص ١٦٧

(٥) انظر : التاج الجامع : جـ٥ ص ٣٤٩

(٦) بالرغم من كونه مسلما " فقد كان مغرى بقتل المسلمين وغزوهم ، وترك الكفار" انظر : شذرات الذهب : جـ٧ ص ٦٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولربط الشاعر بينهما دلالة على أن هذا الخلف قد سار على نهج ذاك السلف ، قال :

بفروع جنكز خان ذاك الظالم النجس الكفور
فأباح إهراق الدما من كل صبار شكور
وأحلّ سبي المحصنا ت المؤمنات من الخدور
ورمى على النار الصغار كأنهم فيها بخور
وأضاف في هذا إلى فعل الزنا شرب الخمور
طورا يرى نكث العهود وتارة نقض النذور
وعدا على السادات من أهل الصيانة والوقور
من كل ذئب صائل منهم ومن كلب ملتور
فتكوا وقد هتكوا القلوب ويعدها هتكوا الستور
وشووا جباها طالما سجدت لدى الرب الغفور
وكووا جنوبا قد جفت طيب المضاجع والظهور
واستخلصوا الأموال من أيدى البرايا بالفجور
وسقوهم كأس السموم وجرّعوا كأس الحرور
واستأسروا آل النبيّ المصطفى الطهر الطهور
باعوهم من مشركي الأتراك في أقصى الكفور
وكذاك واحد أمه من كل مقلاة نزور (١)

لقد بيّن ابن عربشاه في هذه الأبيات أخلاق المغول وسلوكهم في البلاد التي كانوا يجتاحونها. وكانت هذه سياستهم منذ بدء غزوهم حتى نهايته . فكانوا يستبيحون الدماء ، ويسبون النساء ، ويقتلون الأطفال ، ويشربون الخمر ، ويزنون ، وينقضون العهود ، ويعتدون على العلماء والسادات ، ولا يتورعون عن التعذيب بالنار ، وبيع المسلمين في سوق الرقيق ، ولو كانوا من ذرية النبي صلى الله عليه وسلم. (٢)

---

(١) عجائب المقدور : ص ١٦٧ — ١٦٨

(٢) انظر: ابن الأثير: جـ١٢ ص ٣٦٦ — ٣٦٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثم وصف النهاية التي آلت إليها تيمور ، بعد أن طغى في البلاد ، وأكثر فيها الفساد ، فقال

وجروا على هذى الجرائم ... واستمر لهم مرور (١)
وامتد ذاك من الخطا ... أخذا إلى أقصى القطور
لما انتهى إفساده ... وتكاملت تلك الشرور
هجم القضاء لأخذه ... ولكل تكميل قصور
خذفته أيدى الموت من ... تلك القصور إلى القبور
وتحولت منه الكرامة ... بالمذلّة والمثور
ومضى إلى دار النكال ... بما تحمّل من وقور
وتمزقت تلك الجموع (٢) ... وهدّ ما شاد الدثور
أبقت عليه فعاله ... لعناً على مرّ العصور
وتخلدت آثار ما ... آذى على كرّ الدهور (٢)

في هذا الوصف تشفّ من الشاعر بما حلّ بتيمور ، الذى عمت مفاسده الأرض ، ولما جاءه الموت ثوى في القبر بعد أن كان ينعم في القصور . ولا يخفي ما في هذه الوقفة من النزعة الوعظية التي تهدف إلى أخذ العبرة من الأحداث ، وهي سمة بارزة في القصيدة من أولها إلى آخرها ..

وقد ظهر المغول في الشعر في صورة قوم بدائيين ، همهم القتل والنهب ، والتخريب وانتهاك الحرمات ، ورسم الشاعر ابن أبي اليسر ، الملامح الأولى لهذه الصورة في وصفه لنكبة بغداد .. وذلك في تصويره ما أصاب حريم المسلمين من السبي وهتك العرض ، وأموالهم وذخائرهم من النهب ، ورجالهم من القتل . قال :

---

(١) جمع مرة ، وهي الفعلة الواحدة . الديوان : جـ٥ ص ١٦٦

(٢) عجائب المقدور : ص ١٦٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكم حريم سبته الترك غاصبة ... وكان من دون ذاك الستر أستار
وكم ذخائر أضحت وهي شائعة ... من النهاب وقد حازته كفار
وكم حدود أقيمت من سيوفهم ... على الرقاب وحطت فيه أوزار
ناديت والسبي مهتوك بجرهم ... إلى السفاح من الأعداد دعّار . . .(١)

كما أسهم في رسم الملامح الأولى لصورة المغول ، الشاعر سعدى الشيرازى ، فقال مبينا ما حل بأعراض المسلمين من السبي والهتك :

فليت صماخي سدّ قبل استماعه ... بهتك أساتير المحارم في الأسر(٢)

وقال في وصف كثرة القتلى الذى امتزجت دماؤهم بماء دجلة :

وقفت بعبادان أرقب دجلة ... كمثل دم قان يسيل إلى البحر(٣)

وبيّن ما حل بالعلم والعلماء على أيديهم فقال :

بكت جدر المستنصرية ندبةً ... على العلماء الراسخين ذوى الحجر
معابر تبكي بعدهم بسوادها ... ويمض قلوب الناس أحلك من حبر(٤)

وقال ابن العديم في وصف ما حل بحلب من خراب المدارس وأمتهان كتب العلم عند وقوع حلب بأيدهم سنة ٦٥٨ هـ :

وقد درست تلك المدارس وارتمت ... مصاحفها فوق الثرى وهي ضخم(٥)

وهكذا نجد أن صورة المغول لم تتغير في الشعر من بدء الغزو إلى نهايته . فقد كان يصاحب غزواتهم المتتالية : القتل والسبي والنهب والتخريب والزنا وشرب الخمر ،

---

(١) تاريخ الاسلام : حوادث سنة ٦٥٦ ص ٢٤٦ ، النجوم الزاهرة : جـ٧ ص ٥٢ ، شذرات الذهب : جـ٥ ص ٢٧٢

(٢) حسين محفوظ : ص ٧٤

(٣) المصدر نفسه : ص ٧٥

(٤) المصدر نفسه : ص ٧٣

(٥) ابو الفداء : جـ٣ ص ٢١٥ ، ابن الوردى : جـ ٢ ص ٣٠٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكان لهم ولع عجيب بسفك الدماء ، وقد أحسن وصفهم الشاعر الذى قال في غزوة تيمور لنك للشام :

لا يشربون سوى الدماء مدامة أو ينشقون من الأسنة سوسنا [1]

* * *

لقد كان الباحث يطمع في الحصول على شعر يصور عادات المغول وأخلاقهم وتقاليدهم وتفاصيل حياتهم ، حتى لا تقتصر صورتهم على الجانب الحربي ، وما نتج عنه من تدمير وتخريب . ولكن طبيعة الغزو المغولي الذى تمثل بالغزوات المتكررة ، التي لم يكن يعقبها استيطان — وبخاصة في بلاد الشام ، التي كانت ميدان الصراع الرئيسي بعد سقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ — جعلت الحصول على ذلك امرا غير يسير .

---

(١) الصيرفي : جـ٢ ص ٩٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأثر النفسي للغزو المغولي في الشعـــر

كان للغزو المغولي وقع رهيب في نفوس المسلمين ، أفقد كثيرا منهـــم القدرة على التفكير ، وأوقعهم في حيرة أدت ببعضهم إلى الهلاك . وامتـــلأت النفوس رعبا من المغول " حتى كان الرجل منهم يدخل الدرب وفيه جماعة كثـــيرة أو القرية وفيه (كذا) جمع كثير ، فلا يزال يقتلهم واحدا واحدا ، حتى يأتـــي عليهم . ولا يجسر أحد منهم يمد يده إليه . وقد ذكر أن واحدا منهم أخـــذ رجلا ، ولم يكن مع التترى سلاح ، وقال لذلك الرجل : ضع رأسك على الأرض ، فوضع رأسه على الأرض ، ومضى التترى وأحضر سيفا فقتله . وحكى شخص قـــال : كنت أنا وسبعة عشر رجلا في طريق ، فجاءنا إنسان من التتر ، وأمرنا أن يكتـف بعضنا بعضا ، فشرع أصحابي يفعلون كذلك ، فقلت لهم : هـذا رجل واحـــد ، فلم لا نقتله ونهرب ؟ فقالوا : نخاف . فقلت لهم : هذا يريد قتلكم السافة ، فنحن نقتله ، فلعل الله يخلصنا . فما جسر أحد منهم يفعل ذلك ، فأخذت سكينـــا فقتلته بها ، وهربنا فنجونـــا "(١)

هذه نماذج مما أصاب المسلمين من الذهول الذى ألجأ كثيرا منهم إلـــى الاستسلام ، وأدى بهم إلى فقدان روح المقاومة ، وهذا قبل سقوط بغداد ، عاصمة الخلافة الاسلامية . وقد بلغ الأمر أشده بعد سقوطها . وبيّن ذلك الشاعر سعدى الشيرازى ، فوصف وقع تلك النكبة في نفسه فقـــال :

لقد كان فكرى قبل ذلك عائزا ... فأحدث أمر لا يحيط به فكـــرى
وبين يدى صرف الزمان وحكمه ... مثلثة أيدى الكياسة والخـــبر(٢)

---

(١) ابن الأثير : جـ١٢ ص ٥٠٠ — ٥٠١

(٢) حسين محفوظ : ص ٧٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد فقد الشاعر القدرة على تميز الأحداث ، والتفكير فيها ، لأنها كانت أكبر من أن يحيط بها التفكير !

وقال في وصف الغزو المغولي الذي كان فتنة عمت البلاد جميعا :

نعوذ بعفو الله من نار فتنة تأجّج من قطر البلاد إلى قطر
كأن شياطين القيود تفلّتت فسال على بغداد عين من القطر (١)

فهو ليس فتنة فحسب ، بل إن ما تركه الغزو من الآثار ، جعل الشاعر يتصور أن الشياطين التي قيدها النبي سليمان بن داود ، قد تفلتت من قيودها ، وعاثت في الأرض فسادا ، وأسالت على بغداد عينا من النحاس المذاب فأهلكها (٢) .

لقد تضخمت صورة الغزو المغولي في نفس الشاعر ، بقدر ما تضاءلت إرادة المقاومة ، أو الدعوة إليها . وما دامت دار الخلافة في بغداد قد احتلت ، وغابت شمس الخلافة عنها ، فإنه لم يبق للدنيا من قيمة ، وهذا يعني أن القيامة قد اقترب وقتها . ولذلك نجده يصور بغداد وقد سيق أهلها أسارى بين أيدي المغول ، ويرى ذلك ايذانا بقيام الساعة ، قال :

وإن صباح الأسر يوم قيامة على أمم شعث تساق إلى الحشر (٣)

وقد خامر هذا الشعور ابن أبي اليسر التنوخي في رثائه لبغداد فقال :

لم يبق للدين والدنيا وقد ذهبوا شوق لمجد وقد بانوا وقد باروا
آل النبي وأهل العلم قد سُبيوا (!) فمن ترى بعدهم تحويه أمصار ؟
ما كنت آمل أن أبقى وقد ذهبوا لكن أتت دون ما أختار أقدار (٤)

---

(١) حسين محفوظ : ص ٧٥

(٢) انظر : سورة ص آية ٣٧ — ٣٨

(٣) حسين محفوظ : ص ٧٥

(٤) تاريخ الاسلام : حوادث سنة ٦٥٦هـ ٢٤١ — ٢٥٠ ، النجوم الزاهرة : جـ٧ ص ٥٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد انطفأت في نفس الشاعر الرغبة في الحياة ، فانعكس ذلك على تصويره للدين والدنيا وقد فقدا الرغبة في المجد ، والميل إلى البقاء ، وهذا يعني أن بغداد قد قامت قيامتها ، وعلامة ذلك انعكاس الأمور ، وانقلاب الموازين فيها . ويبدى الشاعر أسفا عميقا على ما حل بآل النبي ، بيت الخلافة العباسية ، وأهل العلم في بغداد ، من السبي والذلة والقتل ، ويرى أن القانون الذى يجب أن يسرى على الارض بعدهم ، هو قانون الفناء ، فلا عاش بعدهم أحد . ولا يخفي الشاعر رغبته في اللحاق بهم ، وتمنيه لو مات معهم ، ويظهر تبرمه من الاقدار التي أخرت أجلـــه .

وكان للشاعر شمس الدين الكوفي موقف شبيه بموقف ابن أبي اليسر ، فهو يتمنى لو مات قبل وقوع كارثة بغداد ، وفراق العباسين لها . قـــال :

يا ليتني قَدْ مِتُّ قبل فراقكم ولساعة التوديع لا أحيانـــي (١)

هذه النزعة المتشائمة ، وهذا الاتجاه اليائس الذى انعكس في أبيـــات الشعراء الثلاثة ، تنم عن الجو النفسي الذى خيّم على المسلمين إثر سقوط بغداد فلم يكن عند هؤلاء الشعراء رجاء بالفرج ، يثير في نفوسهم الرغبة في الحيـــاة ، بل كانوا يتوقعون ازدياد الحال سوءا ، ولذلك ظهرت عندهم أمنية المـــوت واللحاق بمن قتل في بغداد . وفقد عندهم الصوت القوى ، والنداء الجلي ، الذى يستثير الحمية في النفوس ، أو يحرض على الجهاد ، وصدّ الأعداء عن بقية بلاد الاسلام . وقد كشف الشاعر سعدى الشيرازى عن حالة الضعف التي وصل إليهـــا المسلمون في ذلك العهد ، في وصفه لصيحات الاستنجاد التي انطلقت مـــن بعض أفواه المسلمين في بغداد ، عندما رأوا النساء تُسبى ، والرجال يقتلـــون فقـــال :

---

(١) فوات الوفيات : جـ٢ ص ٢٣٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومستصرخ يا للمروءة فانصروا ومن يصرخ المصفور بين يدى صقر (١)

هكذا كانت حال المسلمين في بغداد مع المغول ، كحالة عصفور بين يدى صقر . وإذا كانت دار الخلافة كالعصفور ، فكيف حال من سواها ؟!

وقد بقي الرعب والخوف قرين اسم المغول منذ ابتداء غزوهم حتى نهايته . وكان الإرجاف مقدوماً إلى بلاد الشام كفيلا بإزعاج أهلها ، وحمل كثير منهم على النزوح إلى مناطق يظنونها أكثر أمنا ، ويأملون بالنجاة فيها من أذاهم . ففي سنة ٦٥٧هـ ، "خاف اهل دمشق خوفا شديدا ، ولا سيّما لما بلغهم أن التتار قد قطعوا الفرات ، وسافر كثير منهم في زمن الشتاء ، فمات ناس كثير منهم ونهبوا" (٢) وفي سنة ٦٩٩ ، تواترت الأخبار بقصد التتار بلاد الشام ، فخاف الناس، وجفلوا من بلاد حلب وحماة ، وارتفعت اجرة النقل على الدواب كثيرا ، وامتلأت دمشق بالجافلين عن بلادهم . (٣)

وفي سنة ٧٠٠هـ ، "وردت الأخبار بقصد التتر بلاد الشام، وأنهم عازمون على دخول مصر ، فانزعج الناس لذلك ، وازدادوا ضعفاً على ضعفهم، وطاشت عقولهم وألبابهم ، وشرع الناس في الهرب إلى بلاد مصر والكرك والشوبك، والحصون المنيعة" (٤)

وقد وصف بيبرس الدوادار ما كان يعمر قلوب المسلمين من خوف المغول فقال : "كان إذا تحركت منه (٥) الشرذمة القليلة ، ترتاع لها العساكر ، ويلتاع منها الأكابر" (٦)

---

(١) حسين محفوظ : ص ٧٥

(٢) ابن كثير : جـ١٣ ص ٢١٥

(٣) المصدر نفسه : جـ١٤ ص ٦ ، وانظر : العبر جـ٥ ص ٣٩١

(٤) المصدر نفسه : جـ١٤ ص ١٤

(٥) أى من الجيش المغولي .

(٦) زبدة الفكرة : جـ٩ ص ١٦١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وجاء في كتاب " الدرة المضيّئة " وصف للخوف الذى إجتاح أهل دمشق عند قدوم تيمورلنك سنة ٨٠٣هـ ، وفيه اعتذار عن ذلك الخوف لأن للمغول من سالف بطشهم ما يثيره في النفوس ، " قال " والناس معذورين (!) فإن جرى على دمشق وأهلها أمور لما دخلها عسكر هلاكون ـ قبحه الله ـ سنة ثمان وخمسين وستماية . وجرى عليهم مرة ثانية أصعب من نوبة هلاكون ، وقاسوا أهل دمشق (!) من المغل شديدا كثيرة ، لما دخل إليها عسكر قازان في سنة تسع وتسعين وستماية . فلما سمعت الناس بتمرلنك ، وأنه خرب توريز ، وأنه قاصد الشام ، خافو كثير (!) "[1] .

هذا بعض ما جاء في أخبار التاريخ عن خوف المسلمين من المغول ، وفي الشعر تصوير له كذلك ، وبيان لسعي المسلمين من أجل النجاة منه .
قال شمس الدين الطيبي في وصف أثر قدوم الجيش المغولي لبلاد الشام سنة ٧٠٢ هـ :

جاءوا وكل مقام ظل مضطربا منهم ، وكل مقام بات يرتجف[2]

فلم يقتصر الخوف على السكان ، بل تجاوزهم إلى الديار التي كانوا يقيمون فيها ، فهي في اضطراب وارتجاف .

ومما مدح به الظاهر بيبرس قول الشاعر :

يا أسد الترك ياركنهم ويا أخذ الثأر بعد المخافة[3]

فهو قد أخذ بثأر المسلمين من المغول بعد أن نشروا الرعب في الديار الاسلامية .
وقد كان الحديث عن النصر ميدانا لذكر ما سبقه من المخاوف ، باعتبار أن الأمن الذى أعقبه ، كان من أكبر ثمراته . قال شرف الدين الأنصارى في مدح الملك المنصور الثاني ، بعد وقعة عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ :

---

(١) الدرة المضيّئة : ص٣ ، وانظر : ص ١٤٥ . ويلاحظ أن الأسلوب عامي مليء بالاخطاء النحوية والأسلوبية .

(٢) الوافي بالوفيات : جـ ٤ ص ٣٦٣

(٣) ابن إياس : جـ١ ص ١٠٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فلقد أنمت المحصنات أوامنا ولقد أقمت شعائر النسـاك
سلمت مهجة كل برّ مسلـم وهزمت كل معاند أفّـاك (١)

وفي هذا دلالة على ما كان يثيره الغزو المغولي في نفوس المسلمين من الخوف على أنفسهم واعراضهم ودينهم . ذلك الخوف الذى أزاله الانتصار في المعركـة . وقد كان الخوف من المغول يتجدد مع كل غزوة جديدة . وتخف حدته أو يزول مع الانتصار . فإذا كان الشاعر الأنصارى قد أشار إلى زوال الخوف وحلول الأمـن بعد النصر في عين جالوت ، فقد أشار إلى الأمـر نفسه القاضي ناصر الديـن ابن المسقلاني بعد الانتصار في وقعة حمص سنة ٦٨٠هـ ، قال في سياق مـدح قلاوون :

لخير أراد الله مُلْكَ قلاون فأحيا به الإسلام والملّة الغـرا
وصان حريم المسلمين بسيفه فلا أيّم تُسبى ولا تُوطأ العـذرا
وما هو الا الملك الصالح الذى أمنا به الأعداء والدهر والفقـرا (٢)

وهنا يبدو ما كان يشعر به المسلمون من الخوف على الأعراض والدين ، أن يمسها المغول بـأذى .

وقال محمد المنهجي ، في وصف أثر الانتصار في مرج الصفّر سنة ٧٠٢هـ ، فـي إشاعة الأمن في نفوس المسلمين :

وبعدها قد أمّنا كل حادثة فما لنائبة ناب ولا ظفـر (٣)

وقال في مدح الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وبيان ما له من فضل على المسلمين تمثل في الأمن وزوال الخوف بعد وقعة مرج الصفر :

---

(١) ديوان الصاحب شرف الدين : ص ٥٥٧ ، اليونينيتي : جـ٢ ص ١١٥
(٢) زبدة الفكـرة : جـ٩ ص ١٦٣
(٣) كنـز الدرر : جـ٩ ص ٩٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

السيد الناصر المنصور جحفلـه زهت برونقه الآصال والبكـــر
هزت معاطفها الدنيا به فرحـا وطاب بالأمن في أيامه العمـــر
أزال عنا مخافات النفوس فمـــا يدور بالخوف أوهام ولا فكـــر
يا من به راقت الأوقات وابتسمت بعد العبوس فما في صفوها كـدر (١)

وربما كان باعث المبالغة الشديدة الظاهرة في قول الشاعر ، بأن الخوف لا يـدور في الأوهام ولا الأفكار ، شدة الخوف الذى سبق الانتصار . فكانت شدة الشعـور بالأمن متناسبة مع شدة الشعور بالخوف الذى سبقـه .

وقال القاضي جمال الدين أبو بكر ، يخاطب أهل دمشق بعد الوقعة نفسها :

كم قد سهرتم دجى من خوفهم حذرا فالآن ناموا فلا خوف ولا حـذر (٢)

لقد كانت دمشق هدفا للمغول ، سعوا إلى الوصول إليه مرارا ، وكان هذا سببـا دائما للقلق عند أهل دمشق ، وبعد الانتصار في عين الجالوت طمأنهم القاضي جمال الدين ، فلا مكان بعده لخوف أو حذر منهم ، يذهب بالنوم ، أو يجلب القلـق .

وقال أيضا يخاطبهـم :

يا أهل جلّق أمنا في مساكنكـم وعاملوا الله رب العرش وانزجـروا
صوموا وصلّوا وزكوا وارحموا وصلوا وابغوا النجاة وحجّوا البيت واعتمروا
ولا تخافوا من التتار مجلبـة من بعد ما ارتفع التدليس والعـور (٣)

لقد جلب الانتصار الأمن لأهل دمشق ، فليس عليهم أن يخافوا بعده من التتـار ، ولكن عليهم التخلص من الأسباب التي أدت إلى تسليطهم عليهم . ولذلك يدعوهـم إلى التزام الطاعات ، من صوم وصلاة وزكاة ، ورحمة وصلة رحم ، وابتغاء النجـاة من عذاب الله ، وحج البيت والاعتمـار .

---

(١) كنز الـدرر : جـ٩ ص ٩٣
(٢) المصدر نفسـه : جـ٩ ص ٩٥
(٣) المصدر نفسـه : جـ٩ ص ٩٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولم يكن الخوف من المغول مقتصرا على سكان الشام ، فما كان يصيبهم من أذى كان مقدمة يسعى المغول إلى إتمامها ، فلو سقطت الشام في أيديهم ، واستقروا بها ، لا نطلقوا إلى مصر وغيرها من بلاد المسلمين . ولذلك فالانتصار عليهم أمر يهم المسلمين في كل مكان ، فيشاركون أهل الشام ومصر أفراحه . قال القاضي ناصر الدين بن المسقلاني بعد النصر في موقعة حمص سنة ٦٨٠ هـ :

لِيَهْنِ ثغور الدين والمسلمين ما ... تهيّا من النصر المكرر والبشرى
فَهَنِّ بهذا الفتح سكان مكة ... وهنِّ به البيت المعظم والحِجْرا
وهنِّ به من حل في أرض طيبة ... وسكانَها بطنا ، وسكانها ظهرا[1]

---

(١) زبدة الفكرة : جـ ٩ ص ١٦٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصـــــــل الخامـــــــــس

التقويم الفـــنّي لشعـــــر الأصـــــــداء

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التقويم الفني لشعر الأصداء

يكشف الشعر الذى سجل أحداث الغزو المغولي عن جانبين . أحدهما يمثل المآسي التي حلت ببلاد المسلمين على أيدى الغزاة . وثانيهما : يمثل صفحة مشرقة من صفحات البطولة التي تضاف إلى ما سبقها في عهود صلاح الدين ونور الدين وعماد الدين ، وسيف الدولة ، وما سبق ذلك من بطولات .

وقد وقف العديد من الشعراء إلى جانب القادة المسلمين الذين تصدوا لغزوات المغول المتتالية ، يمدحونهم ، ويذكرون بطولاتهم ، ولكن كثيرا من الشعراء نأوا عن المشاركة في هذا الميدان (١) ، وشغلوا أنفسهم بأغراض الشعر التي شاعت في زمانهم (٢) .

وقد التمس بعض الباحثين معاذير لأولئك الشعراء الذين ابتعدوا عن بلاط السلاطين المماليك ، فرأوا أن من تلك الأسباب ، عدم اتقان السلاطين للغة العربية الفصحى ، وميلهم الى اللهجة العامية والشعر العامي (٣) . ولئن كان لهذا العذر شواهد من الواقع ، فلنقيضه شواهد كذلك ، فقد كان إلى جانبه سلاطين المماليك المجاهدين — بيبرس ، قلاوون ، الأشرف خليل ، الناصر محمد — شعراء قالوا فيهم فأكثروا ، ولو كانوا جاهلين بالعربية لما عنّى الشعراء أنفسهم بمدحهم ، وذكر ملامحهم (٤) .

---

(١) انظر : محمد زغلول سلام : جـ٢ ص ١٠٥ وما بعدها

(٢) انظر : المصدر نفسه : جـ٢ ص ١١١ . ومن العجيب أن ابن حجر العسقلاني الذى عاصر نكبة دمشق بتيمور لنك سنة ٨٠٣ لم يذكر عن ذلك شيئا في ديوانه سوى قوله :

مولاى هل اشتكى ما قد علمت به ... أم اكتفي بالذى قد لاح من حالي
قد ضعضع الدهر حالي عندما نهبت ... بالشام أيام تيمور لنك أموالي

ديوان ابن حجر : ص ٤٧ .

(٣) محمد زغلول سلام : جـ٢ ص ١٠٥

(٤) عبده قلقيله : ص ٣٤ ، الفن ومذاهبه ص ٥٠١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن أسباب نأي الشعراء عن السلاطين أن أعطياتهم كانت من بيت مال الصدقات ، ولا تنفق إلاّ بأمر قاضي القضاة ، الذي قد يوقف الأعطية أو يجريها (١) . وهذا العذر ناشيء عن نزعة تكسبية لا عن موقف جاد ، نابع من الشعور بما يحيط بالأمة من أخطار ، تستدعي تكاتف الجهود ، والوقوف الى جانب من رفعوا لواء الجهاد من السلاطين . فإن الخطر المغولي لم يكن يتهدد ملك المماليك فحسب، بل إلى جانب ذلك كان يتهدد أمن الأمة الاسلامية كلها ، وسلامة أبنائها ، وأموالهم وأعراضهم .

ومما يستحق الذكر أن معظم الشعراء الذين شاركوا في مدح السلاطين المماليك وسجلوا أعمالهم وبطولاتهم ، كانوا من ذوي المناصب الرسمية ، وبخاصة في ديوان الانشاء ، ومنهم القاضي محي الدين بن عبد الظاهر ، والقاضي ناصر الدين بن المسقلاني ، والقاضي فتح الدين بن عبد الظاهر ، وعلاء الدين بن عبد الظاهر ، وشمس الدين الطيبي ، وشهاب الدين محمود ، والقاضي شرف الدين بن الوحيد . وربما كان للصلة الرسمية بين هؤلاء الشعراء ، وبين سلاطين المماليك أثرها في إثارة قرائحهم ، وفتح السبيل للوصول إليهم ، هذا فضلا عن أن كثيرا من الشعراء كانوا يحضرون الوقائع التي وصفوها (٢) .

ومما يجدر تسجيله أيضا ، أن كثيرا من دواوين شعر هذا العصر قد فقد أو وصلنا غير تام . ومن هنا فإن الحكم على صلة شعراء هذا العصر بأحداث الغزو يظل ناقصا أو ينبغي أن يطلق بحذر (٣) .

---

(١) محمد زغلول سلام : جـ٢ ص ١٠٦

(٢) يظهر ذلك في تضاعيف القصائد التي وصف أصحابها المعارك ، حيث يذكرون اشتراكهم فيها . انظر : اليونيني : جـ٣ص ٤ ، زبدة الفكرة : جـ٩ ص ١٢٥ — ١٢٦ ، الوافي بالوفيات : جـ٢٦ص ٩٨ ، الغيث المسجم : جـ٢ ص ٦٩

(٣) يجد الباحث في تراجم الشعراء لهذا العصر أن اكثرهم لم يصلنا من شعره الا القليل ومن هؤلاء السراج الوراق ، مظفر الذهبي ، شهاب الدين محمود ، ابن أبي اليسر التتوخي ، صدر الدين ابن الوكيل ، ابو الحسين الجزار وغيرهم . انظر : محمد زغلول سلام : جـ٢ ص ١٣٣ — ١٨٢ ، ١٩١ — ٢٠١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي الصفحات التالية محاولة لإلقاء الضوء على النزعات الفكرية التي ظهرت في شعر المواجهة مع المغول ، والمؤثرات الثقافية التي تجلت أثارها في الشعر ، ومدى تأثره بالصنعة التي كانت طابع العصر ، ثم الحديث عن الصور الشعرية التي جلاّت بها قرائح الشعـــراء .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نـزعـات فكريـــــــة

تجلت في شعر المواجهة مع المغول نزعات فكرية ثـــلاث .

النزعة الأولى : نزعة جبرية انطلق أصحابها من الإعتقاد بسلبية الأثر الإنسانـي في أحداث الحياة . فكل ما يجرى في الوجود بقدر لا راد له ، ولا مجال أمـــام الإنسان إلاّ أن يستسلم ويستكين . وتظهر هذه النزعة في الحادثة التي رواهـــا الشيخ عفيف الدين يوسف بن البقال[1] ، الذى أنكر في قلبه " ما وقع من القتـــل الذريع ببغداد في فتنة التتار " ، وقال " يا رب كيف هذا وفيهم الأطفال ومن لا ذنب له ؟ " فرأى في المنام رجلا وفي يده كتاب ، فأخذه وقرأ ، فإذا فيه أبيات تقـول :

دع الإعتراض فما الأمر لـك ... ولا الحكم في حركات الفلـــكْ
ولا تسأل الله عن فعلـــه ... فمن خاض لُجّة بحر هـــــلك
إليه تصير أمور العبـــاد ... دع الإعتراض فما أجهلـــــك[2]

ومن فضل الله على الاسلام والمسلمين أن هذه النزعة لم تتسرب إلى قلوب القـادة والمقاتلين ، إذا لتركوا الجهاد ، وتقاعسوا عن الوقوف في وجه المغول . وهـذا المنطق الذى تشير إليه الأبيات والحادثة التي أرتبطت بها ، مخالف لأساسيات الإسلام . صحيح أن الله عز وجل خلق كل شيء بقدر[3] وأن حكمة نافذ ، ولكـن نسي أصحاب هذه النزعة أن للتحرك لمواجهة الخطر ، هو أيضا قدر من أقدار الله كما قال الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، لمن عاب عليه الرجوع عـــن الأرض التي ظهر فيها الطاعون ، وعبّره بالفرار من قدر الله ، قال " نفرّ من قدر الله إلى قدر الله "[4] . فقدر الله نافذ في كل مكـــان .

---

(١) شيخ رباط المزيانية كان صالحا ورعا زاهدا . توفي سنة ٦٦٦هـ انظر : ابن كثير : جـ ١٣ ص ٢٥٣ .

(٢) ابن كثير : جـ١٣ ص ٢٥٣

(٣) قال الله عز وجل : " إنا كل شيء خلقناه بقدر " . سورة القمر : آية ٤٩

(٤) التاج الجامع : جـ٣ ص ١٩١ — ١٩٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ونجد هذه النزعة الجبرية عند ابن العديم في قصيدته التي وصف فيها ما حل بحلب على يد المغول سنة ٦٥٨ هـ ، فبعد أن وصف ما فعله الدهر بالدول السابقة والملوك الأقدمين ، ثم ما أنزله بحلب من الخراب قال :

ولكنما لله في ذا مشيئة فيفعل فينا ما يشاء ويحكم (١)

نعم لله مشيئة في ذلك ، ولكنه طلب منّا أن نقاوم أعداءنا ونجاهدهم ، لا أن نستكين بدعوى أن لله مشيئة في ذلك !

وقال ركن الدين حسين بن الأصغر (٢) ، عندما طلب الملك الظاهر برقوق (٣) من عدد من الشعراء أن يذكروا قدوم تيمولنك ، وتهديده لبلاد الشام ، قال :

كن من رجال إذا ما الخطب نابهمُ ردّوا الأمور إلى الرحمن واغتنموا
فسلّموا الأمر لمّا أن رأوا خطرا لِذي الجلال ، فلمّا سَلّموا سَلِموا (٤) !!

وكأنّ رد الأمر إلى الله يكون بالاستسلام للغازي المعتدي ، والتخاذل عن رده !!

وقال علاء الدين بن زين الدين الحصني (٥) ، في ذلك ـ دوبيت :

لا تحزن فالذي قضى الله يكون والأمر مُوكّل إلى كن فيكون
ما بين تحرك بلحظ وسكون الحالة تنقضي وذا الأمر يهون (٦)

وهذا الشاعر يدعو إلى الاستسلام أيضا ، بحجة أن ما قضاه الله كائن !

وهل اطلع على الغيب فرأى ما يكون فاستسلم له ؟! وكان من حق ذلك السلطان

---

(١) ابو الفداء : جـ٣ ص ٢١٦

(٢) من شعراء الملك الظاهر برقوق ، ولم أعثر على ترجمة له . انظر : عجائب المقدور ص ٥٢

(٣) تولى السلطنة أكثر من مرة ، وكان من اعظم سلاطين المماليك . توفي سنة ٨٠١ هـ . انظر : شذرات الذهب : جـ٧ ص ٦

(٤) عجائب المقدور : ص ٥٢

(٥) من شعراء الملك الظاهر برقوق ، ولم أعثر على ترجمة له . انظر : عجائب المقدور : ص ٥٢

(٦) المصدر نفسه : ص ٥٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

على هذين الشاعرين ، وقد كان في موقف يوشك فيه ان يواجه تيمور لنك ، كان من حقه أن يحركوا في نفسه النخوة والحمية ، ويستثيروه للجهاد ، لا أن يُخذّلوه ويَدْعوه إلى الاستسلام .

وظهرت هذه النزعة في مرثية حلب بعد خرابها على يد تيمورلنك سنة ٨٠٣ هـ حيث قال صاحبها مخاطبا حلب :

وحين جاء قضاء الله ما دفعت عنك الجيوش ولا الشجعان بالقضب (١)

نعم ! لقد هزمت جيوش المسلمين أمام جحافل تيمور لنك ، وهذا موقف يدعو الشاعر الى تجنيد شعره في إثارة الهمم لا في إشاعة الاستسلام .

ولكنه لا يفعل ذلك ، بل يختم قصيدته بقوله :

ولا تقل سوى سبحان من نفذت أحكامه في الورى حقاً بلا كذب

قضى وقدّر هذا الأمر من قِدَمٍ بحكم عدل جرى في اللوح والكتب

فنسأل الله بالمختار سيدنا محمد ذي التقى والطهر والحسب

أن لا يرينا عدوا ليس يرحمنا ولا يعاملنا بالمقت والغضب

صلّى عليه إليه العرش خالقنا والآل والصحب سادات الورى النجب (٢)

إن الله عز وجل لا يرضى للمؤمنين أن يستكينوا للذلة ، وهو الذي يقول : " ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين " (٣) . وإذا كان للدعاء من أثر في دفع الأذى ، فلا بد أن يكون مقترنا بالعمل والحركة ، لا بالتخاذل والاستسلام .

* * *

---

(١) تيمورلنك : جـ٣ ص ٢١٦

(٢) المصدر نفسه : جـ٣ ص ٢١٦

(٣) سورة المنافقين : آية ٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

النزعة الثانية : تشاؤمية سلبية . سيطرت بشكل خاص على رثاء بغداد ، فظهر فيه التشاؤم ، والإعراض عن الحياة ، وتمنى الموت . فقد كان ما حدث فيها أكبر من قدرة الشعراء على الاستيعاب وطاقتهم على الاحتمال .

ظهرت هذه النزعة عند الشاعر مجد الدين النشابي الذى نعى بغداد قبل سقوطها بيد المغول ، ورثى الإسلام والخلافة ، دون أن يحرّض على الجهاد ، أو يستثير الهمة ، بل لجأ إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، يبلغه ما حلّ بالإسلام من الأذى على يد المغول في مشرق العالم الإسلامي ، ويتمنى ان يموت قبل وصولهم إلى بغداد . قال :

إن جئت يثرب أرمت ساحتها ... فقل لمن أنزلت في حقه صاد
الكفر أضرم في الاسلام جذوته ... وليس يرجى لنار الكفر إخماد
واضيعة الملك والدين الحنيفوما ... تلقاه من حادثات الدهر بغداد
أين المنية منّي كي تساورني ... فللمنية إصدار وإيراد
من قبل واقعة شنعاء مظلمة ... يشيب من هولها طفل وأكياد (١)

فكل ما يملكه الشاعر هو الانسحاب من مواجهة الكارثة ، من غير أن يسهم في التصدى لها ، أو الدعوة لمواجهتها .

وظهرت هذه النزعة المتشائمة السلبية عند ابن أبي اليسر التنوخي ، في رثائه لبغداد . قال :

من بعد أسبلي العباس كلهم ... فلا أنار لوجه الصبح إسفار
ما راق لي قط شيء بعد بينهم ... إلاّ أحاديث أرويها وآثار
لم يبق للدين والدنيا وقد ذهبوا ... شوق لمجد وقد باتوا وقد باروا
إن القيامة في بغداد قد وجدت ... وجدّها حين للإقبال إدبار

---

(١) الحوادث الجامعة : ص ٣٢١ — ٣٢٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

آل النبي وأهل العلم قد سبيوا (١) فمن ترى بعدهم تحويه أمصار
ما كنت آمل أن أبقى وقد ذهبوا لكن أتت دون ما أختار أقدار (١)

في هذه الأبيات ، دعوة إلى اليأس والتخاذل والاستكانة وتمني الموت ، بعد أن زالت الخلافة وحلّ الذل بآل البيت وأهل العلم . ونسأل : أين واجب المسلمين تجاه ما حدث ؟ أين دور الشاعر في إثارة الهمم (٢) ؟ ذلك ما لا نجده في الأبيات . ولعله يكون عذره في هذا اليأس الطاغي على نفسه ، ما كان يراه في المسلمين ، من فرقة وتمزق ، وتناحر واختلاف . فلم يكن يأمل أن يلقى جوابا لو أطلق صوته بالنداء .

وترددت هذه الأفكار المتشائمة ، عند شمس الدين الكوفي الواعظ ، الذي رأى أن الوفاء لبني العباس ودولة الخلافة ، إنما يكون بالنواح عليهم ، والبكاء على آثارهم ، والإعراض عن زينة الحياة الدنيا بعدهم . قال :

يا سادتي أما الفؤاد فشيّق قلق ، وأما أدمعي فسجام
والدار بعد عدمت جمال وجوهكم لم يبق في ذاك المقام مقام
لا حظّ فيها للعيون وليس للأقدام في عرصاتها إقدام
وحياتكم إني على عهد الهوى باق ، ولم يخفر لدى ذمام
فدمي حلال إن أردت سواكم والعيش بعدكم علي حرام (٣)

ويحس الشاعر بأنه لا يفي الخلافة وأهلها حقهم ، إن لم تتقرح أجفانه من كثرة البكاء ، ولذلك نجده يديم التفجع عليهم ، ويتمنى الموت بعدهم . قال :

---

(١) تاريخ الاسلام : احداث سنة ٦٥٦ ، ص ٢٤٩ — ٢٥٠ ، النجوم الزاهرة : جـ٧ ص ٥٢

(٢) انظر قصيدة الأبيوردي عند سقوط القدس بيد الصليبيين سنة ٤٩٢ . ابن الأثير : جـ١٠ ص ٢٨٤

(٣) فوات الوفيات : جـ٢ ص ٢٣٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إن لم تقرّح أدمعي أجفاني ... من بَعْد بُعدكم فما أجفاني
يا ليتني قد متّ بعد فراقكم ... ولساعة التوديع لا أحياني
... ما زلت ابكيهم وألثم وحشة ... لجمالهم مستهدم الأركان
حتى رثى لي كل من لا وجده ... وجدى ولا أشجانه أشجاني
والهفتي واوحدتي واحيرتي ... واوحشتي واحرّ قلبي الماني
مالي أنيس بعدكم غير البكى ... والنوح والحسرات والأحزان (١)

إن ما كان يعيشه العالم الاسلامي من تشتت القوى ، وفقدان القيادة الواحدة التي تجند طاقاته ، قد خلق في نفس الشاعر شعورا من اليأس الغامر ، الذى عبّر عنه بهذا البكاء الذى صيّره أهلا للرثاء والشفقة !

وقال سعدي الشيرازى مودعا المعاني نفسها :

حبستُ بجفنيّ المدامع لا تجري ... فلما طغى الماء استطال على السّكر
نسيم صبا بغداد بعد خرابها ... تمنيت لو كانت تمر على قبري
مررت بصم الراسيات أجوبها ... كخنساء من فرط البكاء على صخر
أيا ناصحي بالصبر دعني وزفرتي ... أموضع صبر والكبود على الجمر
... فلا انحدرت بعد الخلاف دجلة ... وحاشا تها لا أعشبت ورق الخضر
... فليت صماخي صُمَّ قبل استماعه ... بهتك أساتير المحارم في الأسر
... لقد كان فكرى قبل ذلك ماعزا ... فأُحدث أمرا لا يحيط به فكري
وبين يدى صرف الزمان وحكمه ... مفللة أيدى الكياسة والخبر
... أُحدّث أخباراً يضيق بها صدرى ... وأحمل آصارا ينوء بها ظهري
ألا إن عصري فيه عيش منكد ... فليت عشاء الموت بادر في عصري (٢)

---

(١) فوات الوفيات : جـ٢ ص ٢٣٤ — ٢٣٥

(٢) حسين محفوظ : ص ٧٣ — ٧٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إن الشاعر يواجه هذا الحدث الجسيم بالدموع التي غلبت مدافعته لها ، وتمني الموت قبل وقوع الكارثة ، والبكاء الشديد الذى أشبه بكاء الخنساء على أخيها صخر ، وتمني الإصابة بالصمم قبل سماع ما حل بالمسلمات من السبي وهتك العرض، ويعلن الشاعر أنه قد فقد القدرة على تمييز الأمور ، لشدة هول المصيبة ويكشف عن تبرمه وضيق صدره بأحداث زمانه التي رواها في القصيدة ، ويتمنى لو عجل موته ولم يمهل طويلا !

إن الإنسان ليقف أمام هذه الظاهره العجيبة التي تبدو في هذه النزعة ، وهي تحوّل الرجال عن سبيل الجهاد إلى البكاء والتفجع ! أليس عجيبا أن يشبه الشاعر نفسه بالخنساء في بكائها على أخيها صخر ؟ ! فما الذى حوّل الرجال عن سبيلهم ، وجعلهم يتشبهون بذوات الخدور ؟ ربما كانت الحال التي عاشها المسلمون في ذلك الزمان ، حال الضعف الناشئ عن الانقسام ، وتعدد القوى السياسية ، وتناحرها ، وقلة تناصرها . ربما كانت تلك الحال هي العامل الرئيسي في وجود هذه الظاهرة

ويدخل في هذه النزعة السلبية ، الظاهرة التي تدل عليها أبيات لعلاء الدين الوداعي ، كتبها عند قدوم التتار إلى حلب سنة ٧٠٠ هـ ، قال :

بعثنا عن جيش العدو كتائبا ... بخارية فيها النبي مقدم
فردّوا إلى الأردو(١) بغيظ وخيبة ... وأردوا وجيش المسلمين مسلّم
فقولوا(٢) لهم عودوا نعد ووراءكم ... إذا ما أتيتم أو أبيتم جهنم(٣)

لقد لجأ أهل حلب إلى مقاومة التتار ، بقراءة صحيح البخارى ! ! وهذا معنى قول الشاعر بانهم بعثوا على جيش العدو كتائبا بخارية ! ! وتصور الشاعر أن هذه

---

(١) الأردو : لفظ مغولي معناه المعسكر، انظر: المقريزى: جـ١ق٢ ص٥٦٩ حاشية رقم٢

(٢) في الأصل : فقوا ، وهو خطأ مطبعي لا يستقيم معه الوزن

(٣) الوافي بالوفيات : جـ٤ ص ٣٥٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

القراءة قد أفسدت ردت المعتدين على أعقابهم !! (١) وهذا يدل على انحراف في تصور المسلمين وفكرهم في ذلك الزمان . فمن أين أخذوا أن قراءة الأحاديث النبوية تسهم في دفع العدو عن الديار ؟ وهذه سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ، فهل يجدون فيها دليلا واحدا على ذلك ؟!!

النزعة الثالثة : نزعة إيجابية ظهرت عند الشعراء الذين وقفوا إلى جانب السلاطين المجاهدين ، بالإعلاء من شأن أعمالهم ، وحضهم على المضي قدما في الدفاع عن بلاد المسلمين ، وصيانة أعراضهم ونفوسهم ، ودحر أعدائهم . فإذا وجدنا عند شعراء النزعة الجبرية والنزعة السلبية ، استكانة واستسلاما ، فإننا نجد عند شعراء هذه النزعة صورة مغايرة لذلك . قال شهاب الدين محمود في مدح الظاهر بيبرس :

سر حيث شئت لك المهيمن جار ... واحكم فطوع مرادك الأقدار (٢)

فالله عز وجل مجير للسلطان ومؤيد له ، وجعل الأقدار طوع يديه ، فلينهض إلى الأعداء بالنصر المؤكد . وبدلا من عرض صور المآسي والكوارث ، نجد صورة النصر على الأعداء ، بالسيوف المشهورة ، والرماح المشرعة . قال يوسف الهكاري في الظاهر بيبرس :

والظاهر السلطان في آثارهم ... يذرى الرؤوس بكل عضب أبتر
ذهب العجاج مع النجيع بصقلة ... فكأنه في غمده لم يشهر (٣)

---

(١) انظر : ابن كثير : جـ١٤ ص٢٢ ، حيث يذكر أن أهل دمشق قرأوا البخاري لدفع شر التتر عند قدومهم سنة ٧٠٢هـ . وقد بقيت هذه العادة عند المسلمين حتى قدوم نابليون واحتلاله مصر ، انظر : المختار من تاريخ الجبرتي ، جـ١ ، ص٢٤٧ .

(٢) اليونيني : جـ٣ ص ٣

(٣) الوافي بالوفيات : جـ٢٦ ص ٩٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقال ابراهيم بن علي بن خليل ، الشهير بحين البصل الحراني ، في الملك الناصر محمد :

سل الموج يوم الحرب عن حملاته ... وقد شخصت فيه إليه النواظر
فلا رمحَ الا وهو للصدر طاعن ... ولا سيفَ الا وهو للنهام باتر
لقد نصر الرحمن سلطاننا الذي ... أتى وأتت تسرى إليه المساكر
وعاد إلينا وهو من عند ربه ... نبيل المنى والسعد ، والنصر ظافر (١)

شتان ما بين هذه الصورة التي تبعث النمزة والحماسة في النفس ، وبين صور المأساة التي عرضها شعراء رثاء بغداد وحلب ودمشق !

وبدلا من تعبير الشاعر عن ضيقه بالحياة ، وتبرمه بطول العمر ، وتمنيه الموت ، نجد في هذه النزعة ، وصف الدنيا وقد راقت أيامها ، وصفت لياليها ، وزال منها ما يدركها . قال القاضي ناصر الدين بن العسقلاني في وصف أثر النصر في موقعة حمص سنة ٦٨٠ هـ ، في نفوس المسلمين :

وتعجبني شمس النهار إذا بدت ... على أنها في الوصف تذكرني البدرا (٢)

وقال محمد المنهجي في مدح الناصر محمد :

يا من به راقت الأيام وابتسمت ... بعد العبوس فما في صفوها كدر (٣)

وقال القاضي جمال الدين أبو بكر ، في وصف الحياة في ظل الملك الناصر ، بعدما تحقق للمسلمين من النصر في مرج الصفر سنة ٧٠٢ هـ :

ملك أعيد به عصر الشباب لكم ... مستوردا صافيا واستوفق العمر (٤)

---

(١) درة الأسلاك : جـ١ ص ٢٥٠
(٢) زبدة الفكرة : جـ٩ ص ١٦٣
(٣) كنز الدرر : جـ٩ ص ٩٣
(٤) المصدر نفسه : جـ٩ ص ٩٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وإذا وجدنا في النزعة الجبرية تسليما بوقوع البلاد في أيدي المغول ، بحجة أن ذلك قدر الله الذي لا رادّ له ، فإننا نجد هنا دعوة الى تحريرها احتلوه ، واستئصال خطرهم من جذوره . قال القاضي ناصر الدين بن المسقلاني في مدح قلاوون :

هو القائد الجيش المرموم خلفه إلى القان في موغانَ يطلبه جهرا
وبغداد ترجو أن يسير لنحوها ويفتكها منهم بأسيافه قسرا (١)

فهو يتمنى على قلاوون مواجهة المغول فيما احتلوه من الديار الاسلامية في موغان وبغداد. ويحدد الشاعر السبيل الوحيد للتعامل مع الغزاة وهو السيف الذي يسترد منهم الديار المحتله قسرا .

وقال شهاب الدين محمود في مدح الأشرف خليل بعد فتح عكا سنة ٦٩٠هـ .

من كان مبدؤه عكا وصور معا فالصين أدنى إلى كفيه من حلب (٢)

وفي هذا دعوة للسلطان إلى إتخاذ الأهبة ، والاستعداد للقاء المغول في عقر ديارهم ، لا في الديار الإسلامية التي احتلوها فحسب

وقال القاضي جمال الدين أبو بكر في مدح الملك الناصر محمد بعد موقعة مرج الصفر سنة ٧٠٢ هـ:

إنا لنرجوه من بغداد يُنهِلُها بماء دجلة يرويها فتَصْطدرُ
ويجمع الشمل في دار السلام بمن يودّها ويؤدون الذي نذروا
يؤمها وإمامَ المسلمين معا ثقوا بقولي فهذا منه منتظر (٣)

---

(١) نهدة الفكرة : جـ٩ ص١٦٣

(٢) فوات الوفيات : جـ١ ص ٤١٣

(٤) كنز الدرر : جـ٩ ص ٩٩ — ١٠٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ونجد أن القاضي جمال الدين يحرض الملك الناصر محمد علي استرداد بغداد كما فعل ذلك القاضي ناصر الدين بن المستقلاني مع والده قلاوون من قبل ، وليس ذلك غريبا ، فقد كانت بغداد بالنسبة للشعراء مقر الخلافة الاسلامية ولذلك لا بد من استردادها وإعادة الخليفة إليها

* * *

إن هذه النزعات الفكرية كانت صدى للأحداث التي عاشها المسلمون في مواجهة غزو المغول . فكان للتخريب والدمار الذى خلفه في المدن الإسلامية الكبرى ، أثر في إثارة نزعة التشاؤم والاستسلام ، وهي نزعة سهلة لا تكلف صاحبها كبير عناء . كما كان لواقع المسلمين الممزق ، وكلمتهم المتفرقة ، وملوكهم المتناحرين ، أثر في تثبيت هذه النزعة وتقويتها . وكان للانتصارات التي حققتها جيوش المسلمين بقيادة سلاطين المماليك أثر في إثارة النزعة الايجابية وتنميتها في نفوس الشعراء ، وكان لهذه النزعة كذلك ، أثر في بعث همم القادة ، وتحريض المسلمين على المضي في تحقيق الانتصارات ، ورد كيد المعتدين .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مؤثرات ثقافيـــــــة

تتجلى في شعر المواجهة مع المغول آثار ثقافة الشعراء ، التي تنوعت مصادرها ، وتعددت موارد ها[1] . فهم يستقون من شعر التراث ، وينهلون من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ، ويربطون واقعهم وأحداث عصرهم ، بوقائع من التاريخ ، ويدخلون بعض مصطلحات العلوم التي شاعت في عصرهم ، ويتلاعبون بألفاظهـــا .

(١) شعر الـــتراث

استقى الشعراء في حقبة المواجهة مع المغول من التراث الشعري ، كما استقى من قبلهم شعراء المواجهة مع الصليبيين[2] . وذلك أمر طبيعي ، لأن من أساسيات الثقافة الشعرية الإطلاع على الشعر في عصور ازدهاره ، وتمثّله . وقد ظهر التأثر بالتراث الشعري في صور متعدده .

فإذا نظرنا إلى صورة الحرب في الشعر الجاهلي وصورتها في شعر المواجهة مع المغول ، وجدنا جانبا من التشابه . فمن الصور التقليدية للحرب في الشعر الجاهلي تشبيهها بالرحى والنار[3] . وهذا ما ورد عند شرف الدين الانصاري ، بقولـــه :

دارت رحى الحرب الزبون عليهمُ فغدت رؤوسهم حطام جريشها[4]

واذا اقتصر هذا الشاعر على صورة الرحى ، فإن محمد المنبجي البزاز ، قد جمع الصورتين فقـــال :

---

(١) انظر : محمد علي سلطاني : ص٢٥٣ ، محمد زغلول سلام ج٢ ص ١٠٥

(٢) انظر : محمود ابراهيم : ص ١٧٢

(٣) انظر : علي الجنـدي : ص ٧٥

(٤) ديوان الصاحب شرف الدين : ص ٢٧١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أوقدت نيران حرب أصبحوا حطبا للجمر منها ، لها شوك القنا شرر
دارت عليهم رحاء الموت فانهزموا فما لهم بعد لا عين ولا أثـــر (١)

ونجد في الشعر الجاهلي صورة الأعداء وقد هزموا وملأت قتلاهم الأرض ولم يدفنوا ، وأصبحوا طعاما للطيور والسباع ، وكذلك تصويرهم . وقد فنوا جميعا (٢) . وهذا ما نجده في قول محمد المتيجي الهزاز :

غادرتهم في أرض حمص وخيلهم لوحوش أرضك والطيور طعـام (٣)

ونجده كذلك في قول شمس الدين الطيبي الذى وصف فيه ما حلّ بهم في مرج الصفر سنة ٧٠٢ :

وملّت الأرض قتلاهم بما قذفت منهم ، وقد ضاق منها المهمة القذف
والطير والوحش قد عافت لحومهم ففي مزاج الضوارى منهم قـرف (٤)

ويظهر هذا المعنى في قول القاضي جمال أبي بكر ، في المعركة نفسها :

جميعهم قتلوا صَبْراً واعظُمُهم جميعُها بنواحي جلّق صُـبُر
لم يُقبروا في نواويس ولا جدَثٍ وإنما في بطون الوحش قد قُبروا (٥)

ونجد في الشعر الجاهلي المفاخرة بإصابة كبار القوم وقادة الجيش (٦) ، وهذا ما نجده في شعر المواجهة مع المغول . قال ناصر الدين بن المسقلاني في وصف معركة حمص سنة ٦٨٠ هـ :

---

(١) كنز الدرر : جـ٩ ص ٩٣
(٢) انظر : علي الجندى : ص ١٩٩ ، ٢٠١
(٣) زبدة الفكرة : جـ ٩ ص ١٦٤
(٤) الوافي بالوفيات : جـ٤ ص ٣٦٣ — ٣٦٤
(٥) كنز الدرر : جـ٩ ص ٩٦
(٦) انظر : علي الجندى : ص ٢٠١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هي الفتك بالأعداء والظفر الذي شفى الصدر من أبغا وقد أثلج الصدرا
وأمكن من صفار حدّ سيوفنا فخرّ الى الأذقان لا ساجدا شكرا (١)

وقال علي بن سواده يذكر الظفر بقادة المغول في مرج الصفر :

هزمنا قَطْلُوشاه يومَ حرب وأردينا بعزمتنا النوينا
وأتبعناه بولايَ طردا وجوبانا وهيتوم اللعينا (٢)

ونجد تشابها كذلك بين صورة البطل في الشعر الجاهلي ، وصورته في شعر المواجهة مع المغول . فالبطل ذو منظر يلقي الرعب في قلوب الأعداء (٣) . قال ناصر الدين بن النقيب ، في الظاهر بيبرس :

طلعتَ عليهم كالصبح يجلو بطلعته من الظُلَم اعتكارا
فلما أن رأوك فما استطاعوا ثباتا لا ولا ملكوا اصطبارا
وولّوا هاربين بلا عقول وباتوا خائفين وهم حيارى
فهذا قدرَقي جيلا وهذا لشدة (عزم)(٤) بأسك حاز عارا
فكنتَ الليث أبصره ابن آوى وكنتَ الصقر شاهده الحُبارى (٥)

ووصف الجاهليون البطل بأنه صديق مخلص لمن والاه ، وخصم ألدّ لمن عاداه (٦) ، وهذا ما يتجلى في قول القاضي محي الدين بن عبد الظاهر ، في مدح بيبرس :

يا مليكاً له الحسام المبيد وكريما له العطاء المفيد
لك سيف به الغويّ شقي ونوالٌ به الوليّ سعيد (٧)

---

(١) زبدة الفكرة : جـ٩ ص ١٦٢
(٢) إعلام النبلاء : جـ٤ ص ٥٤٩
(٣) انظر : علي الجندي : ص ٩٢
(٤) زيادة ليست في الأصل ، لا بد منها ليستقيم الوزن .
(٥) الروض الزاهر : ص ٤١٠
(٦) انظر : علي الجندي : ص ٩٣
(٧) الروض الزاهر : ص ١٧٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقال شهاب الدين محمود ، في المعنى نفسه ، يمدح السلطان لاجين :

أحاط بالناس سور من حمايته ظل لهم وعلى أعدائهم ظلل[1]

والقائد عند الجاهليين هو ملجأ القوم عند الخطر ، ومفرّج كروبهم[2] . وهذا ما يظهر في قول شرف الدين الأنصاري ، في مدح الملك المنصور صاحب حماة :

يا ملكا لم تزل عزائمه تكف عنّا الأذى وتكفينا[3]

وقال القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر في مدح قلاوون :

لله في حمص مقاط قامه والنار من بين الأسنة تُوهَجُ

والناس قد فروا فلا مترتب والناس قد هربوا فليس معرج

فثنى العنان وما انثنى حتى بدا للدّين من أمر الاعادى مخرج[4]

* * *

ولم يقتصر تأثر الشعراء في هذه الحقبة على الشعر الجاهلي ، بل ظهر فيه أثر المتنبي في بعض المعاني والصور . من ذلك تأثر شهاب الدين محمود بالمتنبي في قوله يمدح الظاهر بيبرس :

سر حيث شئت لك المهيمن جار واحكم فطوع مرادك الأقدار[5]

وهذا شبيه بقول المتنبي في سيف الدولة :

سر حلّ حيث تحلّه النوّار وأراد فيك مرادك الأقدار

وأراك دهرك ما تحاول في المدى حتى كأن صروفه أنصار[6]

---

(١) الوافي بالوفيات : جـ٢٤ ص ١٨٤

(٢) انظر : علي الجندي : ص ٩٤ — ٩٥

(٣) ديوان الصاحب شرف الدين : ص ٤٧٤

(٤) زبدة الفكرة : جـ٩ ص ١٦١ — ١٦٢

(٥) اليونيني : جـ٣ ص ٣

(٦) ديوان المتنبي : ص ٢٧٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فقد وصف شهاب الدين محمود ، ممدوحه بمطاوعة الأقدار له . وهذا ما وصف المتنبي به ممدوحه . ولم يقتصر التشابه على المعنى فحسب ، بل تعداه إلى وزن القصيدة ، وهو البحر الكامل ، وروِيّها ، وهو الراء المضمومة .

وقال القاضي فتح الدين بن عبد الظاهر يذكر فضل الموقف الذي وقفه قلاوون في وجه المغول ، سنة ٦٨٠هـ ، مما أدى الى هزيمتهم في حمص :

هذا المقام الذي لو لم تحلّ به ... لم يبق للناس لا شام ولا مصر (١)

وهذا شبيه بقول المتنبي في مدح سيف الدولة وذكر فضل وقوفه على ثغور المسلمين :

كيف لا تأمن العراق ومصر ... وسرايناك دونها والخيول

لو تحرفتَ عن طريق الأعادي ... ربط السدر خيلهم والتخيل (٢)

فموقف كلا البطلين كان سببا في حماية بلاد المسلمين ، ولو تحرفا عن طريق الأعادي لوقعت تلك البلاد في قبضتهم .

وقال ناصر الدين بن العسقلاني في وصف صورة قائد المغول المهزوم في معركة حمص سنة ٦٨٠ هـ :

فلما رأوه قد تقطّر قاتلوا ... عليه قتالا قطّع البيض والسمرا

فلما نجا منه وأركب طرفه ... تولّى وخلّى الأب والابن والصهرا (٣)

وهذه صورة قريبة من قول المتنبي في وصف قائد الروم :

أفي كل يوم لك الدستق مقدم ... قفاه على الإقدام للوجه لائم

أينكر ريح الليث حتى يذوقه ... وقد عرفت ريح اللبوث البهائم

وقد فجعته بابنه وابن صهره ... وبالصهر حملات الأمير الغواشم (٤)

ففي الصورتين ، يظهر القائد وقد فجع بأقاربه وولى هاربا منهزما .

---

(١) الوافي بالوفيات : جـ٣ ص ٣٦٧

(٢) ديوان المتنبي : ص ٤٣١ - ٤٣٢

(٣) زبدة الفكرة : جـ٩ ص ١٦٢

(٤) ديوان المتنبي : ص ٣٨٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقال شهاب الدين محمود في وصف الخوف الذى دبّ في قلوب المغول بعد هزيمتهم في موقعة حمص سنة ٦٨٠ هـ :

كأن هاربهم والخوف يطلبه ... يبدو لديه مثال منه أو مثل

فإن تنبه يوما راعه وإذا ... أغفى جلته عليه في الكرى المقل (١)

وهذا القول قريب من وصف المتنبي للمنهزمين أمام سيف الدولة :

وما نجا من شفا البيض منفلت ... نجا ومنهن في أحشائه فزع (٢)

وإن تكن صورة شهاب الدين محمود أشمل وأدق في التفاصيل ، ولكنهما خرجتا من أصل واحد .

ومن أشكال التأثر بالتراث الشعرى التضمين . فقد ضمن شمس الدين الكوفي شطرا من بيت لأبي نواس ، وذلك في حديثه عن نكبة بغداد بقوله :

قف في ديار الظاعنين وناد ها ... " يا دار ما فعلت بك الأيام " (٣)

وبيت أبي نواس هو مطلع قصيدة له في مدح الأمين بن هارون الرشيد :

يا دار فعلت بك الأيام ... ضامتك والأيام ليس تضام (٤)

وأخذ شمس الدين الكوفي من بيت لأبي الملاء المعرى صورة وقفة الحيران فقال :

ولقد قصدت الدار بعد رحيلكم ... ووقفت فيها وقفة الحيران (٥)

---

(١) الوافي بالوفيات : جـ ٢٤ ص ١٨٣

(٢) ديوان المتنبي : ص ٣١٣

(٣) فوات الوفيات : جـ٢ ص ٢٣٢

(٤) ديوان ابي نواس : ص ٥٧٥

(٥) فوات الوفيات : جـ٢ ص ٢٣٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبيت أبي العلاء هـــو :

قد ركضنا فيه إلى اللهو لما وقف النجم وقفة الحيران[1]

وظهر تأثير أبي تمام في شعراء هذه الحقبة كذلك . قال جمال الدين أبو بكر في وقعة مرج الصفر :

أين النجوم وتأثير القران وما تخرّصوا فيه من إفك وما زجروا
قد دبّر الله أمراً غير أمرهم وخاب ما زخرفوا فينا وما هَجَروا[2]

وهو في هذا المعنى يتأثر بقول أبي تمام ، الذى نفى تأثير النجوم على الأحداث وكذب ما يدّعيه المنجمون من علم بالغيب ، وتنبؤ بالأحداث . قال أبو تمام ، في بائيته المشهورة :

أين الرواية أم أين النجوم وما صاغوه من زخرف فيها ومن كذب
تخرصا وأحاديثا ملفّقة ليست بنجم إذا عدّت ولا غرب[3]

وقال شهاب الدين محمود في مدح السلطان لاجين :

وانهض بعزمك فهو الجيش يقدمه من بأسك المنذران الرعب والوجل
وسر به وحده لا بالجيوش وإن لم يحوها الارحبان السهل والجبل[4]

وهذا المعنى شبيه بقول أبي تمام في المعتصم

لو لم يقد جحفلا يوم الوغى لغدا من نفسه وحدها في جحفل لجب[5]

فكلا الشاعرين جعل ممدوحه كافيا لمواجهة الجيوش بمفرده

* * *

وكان لشعر الجهاد والبطولة الذى واكب أعمال عماد الدين زنكي وولده نور الدين محمود ، وصلاح الدين الأيوبي ، أثر في شعر المواجهة مع المغول .

---

(١) ديوان سقط الزند : ص ٤٥
(٢) كنز الدرر : جـ٩ ص ٩٤
(٣) ديوان أبي تمام : جـ١ ص ٤٢
(٤) الوافي بالوفيات : جـ٢٤ ص ١٨٣
(٥) ديوان أبي تمام : جـ١ ص ٥٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فقد تشابهت فيهما صورة البطل في كثير من جوانبها . من ذلك وصف البطل بمطاوعة القدر له . قال ابن قسيم الحموي[1] في مدح نور الدين[2] :

فالدهر خاذل من أراد عناده أبدا وجبار السماء معينه[3]

ومثل هذا قول شهاب الدين محمود في مدح السلطان لاجين :

أطاعك الدهر فأمر فهو ممتثل واحكم فأنت الذي تزهى به الدول[4]

والبطل المسلم هو ركن الإسلام الذي يحميه ويعزّه . قال ابن منير الطرابلسي[5] في مدح نور الدين :

وركن الاسلام الذي وطده طال وأرسى العز فيه ووطد[6]

قال شهاب الدين محمود في الظاهر بيبرس :

لم يبق للدين الذي أظهرته يا ركنه عند الأعادي ثار[7]

والبطل المسلم يسهر على رعاية شؤون المسلمين ويسعى للتأمين راحتهم . قال ابن منير في نور الدين :

سهرت عينك الكرى وناموا تحت أكناف رعيها آمنينا[8]

---

(١) مسلم بن الخضر ، ابو المجد ابن قسيم الحموي ، مدح زنكي وولده نور الدين ، توفي سنة ٥٤١هـ . انظر : مرآة الزمان : جـ٨ ق١ ص ١٩٤

(٢) محمود بن زنكي ، له فضائل في جهاد الصليبيين ورعاية العلم . ولد سنة ٥١١ ، وتوفي بدمشق سنة ٥٦٩هـ . انظر : ابن خلكان : جـ٥ ص ١٨٤

(٣) الروضتين : جـ١ ص ٢٤

(٤) الوافي بالوفيات : جـ٢٤ ص ١٨٣

(٥) ولد بطرابلس سنة ٤٧٣هـ ، برع في اللغة والأدب . كان هجّاء ، توفي سنة ٥٤٥ انظر : النجوم الزاهرة : جـ٥ ص ٢٩٩ .

(٦) الروضتين : جـ١ ص ٢١

(٧) اليونيني : جـ٣ ص ٣

(٨) الروضتين : جـ١ ص ٢٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويشبه هذا قول شهاب الدين محمود في السلطان لاجيـــن :

أضحوا به في مهاد الأرض يكلؤهم من رأفة أنهم يقظان إن غفلـــوا[1]

ولجهاد البطل المسلم أثر في نشر الأمن بين المسلمين على أنفسهم وأعراضهـــم .

قال فتيان الشاغوري[2] في مدح صلاح الديـــن :

لا يعدمنك المسلمون فكم يدا (!) أوليتهم معروفها لم تنـــكـــر

أمنت سربهم وصنت حريمهـــم وسرأت عنهم قاصمات الأظهـــر[3]

وقال شرف الدين الأنصاري في المعتى ، يمدح المنصور الثاني ، صاحب حمـــاة :

فلقد أنمت المحصنات أوامنـــا ولقد أقمت شعائر النســـاك

سلمت مهجة كل بر مســـــلم وهزمت كل معاند أفـــاك[4]

ونجد تشابها في المعاني والصور والوزن والقافية ، بين ابن القيسرانـــــــي[5] ومحمد المنهجي في الأبيات التالية ، قال محمد بن القيسراني في مدح عماد الدين زنكـــــي[6] :

وأصبح الدين لا عينا ولا أثرا يخاف ، والكفر لا عين ولا أثـــر

فلا تخف بعدها الإفرنج قاطبة فالقوم إن نفروا ألوى بهم نفـــر[7]

وقال محمد المنهجي اليزاز ، في وصف التتار في معركة مرج الصفـــر :

---

(١) الوافي بالوفيـــات : جـ٢٤ ص ١٨٤

(٢) شاعر فاضل ، خدم الملوك ومدحهم . ولد ببانياس سنة ٥٣٠ ، توفي سنـــة ٦١٥ هـ. انظر : ابن خلكان : جـ٤ ص ٢٤ .

(٣) الروضتيـــن : جـ٢ ص ٨٤

(٤) ديوان الصاحب شرف الدين : ص ٥٥٧ ، اليونيني : جـ٢ ص١١٥

(٥) كان هو وابن منير شاعري الشام في عصرهما . وبينهما مهاجاة . ولد بعكا سنـــة سنة ٤٨٧هـ ، وتوفي بدمشق سنة ٥٤٨هـ . انظر : ابن خلكان : جـ٤ ص ٤٥٨ .

(٦) صاحب الموصل : وقف في وجه الصليبيين ، وسعى لتوحيد المسلمين ، قتل سنـــة ٥٤١ . انظـــر : ابن خلكان : جـ ٢ ص ٣٢٧

(٧) الروضتيـــن : جـ ١ ص ٣٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

دارت عليهم رحاء الموت فانهزموا فما لهم بعد لا عين ولا أثـر
وألبسوا الذل حتى إن أشجعهم يأتي إليك بألف منهم نفـر (١)

فقد تشابه عند الشاعرين القول بأن الاعداء زالوا ، ولم يبق له أثر بعد الهزيمة ، وشملهم الذل ، وأصبح النفر القليل كفيلا بمواجهة العدد الكبير منهم . والوزن عند الشاعرين هو البحر البسيط ، والقافية الـراء .

ونجد تشابها في اللفظ والمعنى بين قول ابن القيسراني في وصف هزيمة الفرنج :

ولّوا تضيق لهم ذرعا مسالكهم والموت لا ملجأ منه ولا وزر (٢)

وقول القاضي جمال الدين أبي بكر في وصف هزيمة المغول في مرج الصفر :

أين المفر وقد حام الحمام بهم هيهات لا ملجأ يرجى ولا وزر (٣)

فالمعنى في كلا القولين يدور على بيان انسداد سبيل النجاة أمام الأعـداء ، والوزن هو البحر البسيط ، والقافية الراء المضمومـة .

---

(١) كنز الـدرر : جـ٩ ص ٩٣
(٢) الروضتيـن : جـ١ ص ٣٤
(٣) كنز الـدرر : جـ٩ ص ٩٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(٢) القرآن الكريـــم :

القرآن الكريم هو المنهل الذى يرده المسلم ، قراءة وتدبرا ووعيا وعملا . ولذلك كان من الطبيعي أن يظهر أثره في الشعر الذى سجل أحداث الغـــزو المغولي . وقد تجلى هذا الأثر في صورتيـــن :

الأولـــى : استخدام القصص القرآنـــي .

الثانيـــة : التأثر بالمعاني والصـــور .

أولا : استخدام القصص القرآنـــي

وردت في القرآن الكريم قصص ذات دلالات وإيحاءات ، كانت مجالا للشعراء يستمدون منها ما يتوافق مع الموقف الذى يتحدثون عنه ، وهذه القصص الـــتي استخدمها الشعراء في هذه الحقبة هـــي :

* قصة يونس عليه الســـلام .(1)

أشار إلى هذه القصة الشاعر سعدى الشيرازى في حديثه عن نكبة بغداد وانقضاء خليفتها المستعصم ، فقـــال :

أيُذكر في أعلى المنابر خطبة ... ومستعصم بالله لم يكُ في الذكـــر
ضفادع حول الماء تلعب فرحة ... أصبر على هذا ويونس في القعـــر(2)

إن الشاعر يشير إلى ما ورد في القرآن الكريم من التقام الحوت ليونس عليه السلام . وقد شبّه ما حل بالخليفة بما حل بذلك النبي . واذا كان الفرج قد جاء يونس عليـــه السلام لأنه كان من المسبحين ، فتلك خصوصية له . ولا إشارة في القصيدة إلـــى أن الفرج سينزل على الخليفة فيخرج من القعر ، لأنه قتل . وبهذا فقد اشبهت محنة الخليفة محنة النبي يونس عليه السلام في شدتها وضيقها ، ولم تشبهها في نهايتها .

* * *

---

(١) انظر : سورة الصافات : آية ١٣٧ — ١٤٦

(٢) حسين محفوظ : ص ٧٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

* قصة يوسف عليه السلام[1]

وردت الإشارة إلى قصة يوسف عليه السلام في سياق حديث القاضي ناصر الدين بن المسقلاني عن الخلافات التي وقعت بين المماليك بسبب النزاع على السلطة فقد تولى السلطنة في مصر قلاوون ، وتسلطن سنقر الأشقر[2] في الشام . ووقع قتال بين الفريقين ، وسمع التتار بذلك فقصدوا ديار الشام ، هنا رأى المسلمون أن المصلحة تقتضي فض النزاع ، ووحدة الكلمة ، فاتفقوا على تولي قلاوون السلطنة[3] . وقد شبه الشاعر المسقلاني قلاوون بالنبي يوسف عليه السلام الذى نزغ الشيطان بينه وبين إخوته ، ثم آتاه الله الملك ، وعفا عنهم .

قال قصيدة نظمها بعد موقعة حمص سنة ٦٨٠هـ :

ولا تعتقد مثل التتار بأنهم ... قد اختلفوا في الرأي أو أضمروا غدرا
اذ اختلفت منهم قلوب تألفت ... على الشكر في الدنيا أو الأجر في الأخرى
ولم تفترق الا الجسوم وانما (م) ... القلوب جميعاً بالتوهم والذكرى
وإن أصبحوا شتى فإن قلوبهم ... جميعاً على الأعداء قد أعملت فكرا
وقد نزغ الشيطان ما بين يوسف ... وإخوته حتى أرادوا به شرا
وصار إليه الأمر عند عزيزهم ... فكان به الأولى وكان به الأحرى
وجاءته محتاجين إخوته التي (إ) ... تمالوا عليه طالبين به غدرا
فأعطاهم مما لديه ومارهم ... وزوّدهم برّا وزادهم برّا

---

(١) انظر تفصيل القصة في سورة يوسف .

(٢) من المماليك البحرية ، رحل الى بلاد التتر مع هولاكو سنة ٦٥٨هـ، تسلطن عاد في عهد بيبرس ، ثم تملك بدمشق خمسين يوما سنة ٦٧٩هـ. قيل إنه مات مخنوقا في عهد الملك الأشرف خليل سنة ٦٩٢هـ. انظر : الصقاعي : ص ٨٥ — ٨٦ .

(٣) انظر : ابن كثير : جـ١٣ ص ٢٩٠ — ٢٩٢ ، المقريزى : جـ١ ق ٣ ص ٦٧٤ — ٦٧٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد قال لا تثريب بعد عليكم ... وقد سأل الله الكريم لهم غفرا[1]
فسلطان مصر يقتفي إثر يوسف ... ليلقى ثواب الله والحمد والشكرا

* * *

* قصة موسى وفرعون[2]

أشار الشاعر ناصرالدين بن النقيب إلى هذه القصة في سياق مدحه للظاهر بيبرس عند خوضه نهر الفرات سنة ٦٧١هـ لقتال المغول بقوله :

وأوردت الفرات مضمرات ... وأسقيت السيوف دما مدارا
فلما جزته خلناك موسى ... وكم دمّرت فرعونا دمارا[3]

والإشارة إلى قصة موسى وفرعون تشمل جانبين : الأول : خوض الظاهر بيبرس بجيشه الفرات ، وهذا المنظر ذكر الشاعر بما ورد في القرآن الكريم من وصف لخوض موسى عليه السلام بقومه البحر ، بعد أن ضربه بعصاه فانفرق فكان كل فرق كالطود العظيم . الثاني : الإشارة إلى ما فعله الظاهر بيبرس في حملاته المديده على التتار والصليبيين والأرمن . فشبه زعماءهم بفرعون ، وقد قضى بيبرس على فراعنة كثيرين منهم . فقد كان جبارا في الأسفار والحروب وخافه أعداء المسلمين لأنه روعهم بالغارات والكبسات[4] .

* * *

* قصة سليمان عليه السلام .

لم يرد ذكر سليمان عليه السلام بصورة مباشرة ، وإنما ذكر شيء من أفعاله . وهو تقييد الشيطان . وذلك ما بيّنه الله عز وجل بقوله " فسخرنا له الريح تجري

---

(١) زبدة الفكرة : جـ٩ ص ١٦٣
(٢) وردت في مواضع عديدة من القرآن : انظر : الاعراف : آية ١٠٣ — ١٣٨ ، يونس : آية ٧٥ — ٩٢
(٣) الروض الزاهر : ص ٤٠٩
(٤) انظر : فوات الوفيات : جـ ١ ص ٢٣٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بأمره رخاء حيث أصاب ، والشياطين كل بنّاء وغواص ، وآخرين مقرنين في الأصفاد[1] ، وهذا ما أشار إليه سعدى الشيرازي في حديثه عن فظاعة ما جرى ببغداد ، فتصور أنه من فعل الشياطين الذين تفلتوا من قيود سليمان . قـــال :

كأنّ شياطين القيود تفلّتـت فسال على بغداد عينٌ من القِطر[2]

* * *

ثانيـا : تأثر الشعراء بمعاني القرآن وصـــوره :

استمد الشعراء من معاني القرآن الكريم ما يتناسب مع ما تحدثوا عنـــه من أفكار وأحداث . فعندما خاض المسلمون بقيادة بيبرس نهر الفرات سنة ٦٧١ هـ ، لقتال التتار ، وكانوا شاكي السلاح ، وعليهم الحديد ، ذكر هذا الموقف القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر ، بالسد الذي بناه ذو القرنين على يأجوج ومأجـــوج ، فقد كان المسلمون أمام التتار كالسد لا يستطيعون له نقبـــا . قـــال :

فعمنا بسدّ من حديد سباحـة إليهم فما اسطاع العدو له نقبـا[3]

وهو يستمد هذا المعنى من قول الله عز وجل " فما اسطاعوا أن يظهروه ، ومـــا استطاعوا له نقبـــا "[4] .

وقال شمس الدين الطيبي في وصف التتار المنهزمين في مرج الصفـــر :

فرّوا من السيف ملعونين حيث سَروا وقُتّلوا في البرايا حيثما ثُقفوا[5]

---

(١) سورة ص : آية ٣٦ — ٣٨

(٢) حسين محفوظ : ص ٧٥

(٣) الغيث المسجم : جـ٢ ص ٦٦

(٤) سورة الكهـف : آية ٩٧

(٥) الوافي بالوفيات : جـ٤ ص ٣٦٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد استمد معناه وبعض ألفاظه من قول الله عز وجل في المنافقين " ملعونين أينما ثقفوا ، أخذوا وقتّلوا تقتيلا "(١).

وقال شمس الدين الطيبي أيضا ، في وصف قتلى المغول في المعركة نفسها :

وإن يسل عنهم قل قد تركتهم كالنخل صرعى فلا تَمْرٌ ولا سَعَفُ(٢)

وهذه الصورة مأخوذة من قول الله عز وجل " وأما عادٌ فأُهلكوا بريحٍ صَرْصَرٍ عاتيـــة ، سخّرها عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيامٍ حسوما ، فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخلٍ خاويـــة "(٣)

وقال في وصف جند المسلمين الذين نهضوا للقاء التتار في المعركة نفسها ، وأشار إلى الهزيمة التي حلت بهم سنة ٦٩٩ هـ على يد غـــازان :

قاموا القوّة دين الله ما وهنوا لما أصابهم فيه وما ضُعُفـــوا(٤)

ومعنى هذا البيت مستمد من قوله تعالى " وكأيّن من نبي قاتل معه رِبِّيّون كثـــيرٌ فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضُعُفوا وما استكانوا "(٥)

وقال محمد المنهجي البزاز في وصف جيش المغول في معركة مرج الصفـــر :

أتوا وقد مكر الله العزيز بهم فردّ طغياتهم بالغيظ إذ مكروا(٦)

---

(١) سورة الأحزاب : آيـــة ٦١

(٢) الوافي بالوفيات : جـ٣ ص ٣٦٤

(٣) سورة الحاقـــة : آية ٦-٧ .

(٤) الوافي بالوفيات : جـ٣ ص ٣٦٣

(٥) سورة آل عمران : آية ١٤٦

(٦) كنز الـــدرر : جـ ٩ ص ٩٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والشطر الأول من البيت يستمد معناه من قول الله عز وجل " ومكروا ومكر الله ، والله خير الماكرين[1] " . والشطر الثاني مستمد من قوله تعالى " ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا[2] " .

وقال محمد المنجي في وصف ضخامة الجيش الإسلامي في المعركة نفسها :

قابلتهم بجيوش مالهم قِبَل ... ببأسها فلقد قلّوا وإن كثروا[3]

وهذه الصورة مأخوذة من قول الله عز وجل حكاية عن سليمان عليه السلام في رسالته إلى بلقيس " إرجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها[4] "

وقال في وصف الضيق الذى حل بالتتار بعد الهزيمة في تلك المعركة :

وضاقت الأرض مذ ولّوا بما رحبت ... عليهم فهم بالخوف قد حصروا[5]

وهذا المعنى مستمد من الآية التي وصفت حال الثلاثة الذين خلّفوا من المسلمين في غزوة تبوك " حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم[6] " .

* * *

إن أخذ الشعراء من معاني القرآن الكريم ، واستقاءهم من صوره ، جاء متسقا مع المعاني القرآنية ، غير متجاف عنها ، وذلك لأنها استخدمت في موضوعات جادة ، بخلاف ما سلكه بعض شعراء هذا العصر ، من استخدام معاني القرآن وبعض آياته في موضوعات لا تتفق معها[7] .

---

(١) سورة آل عمران : آية ٥٤

(٢) سورة الأحزاب : آية ٢٥

(٣) كنز الدرر : جـ٩ ص ٩٢

(٤) سورة النحل : آية ٢٧

(٥) كنز الدرر : جـ٩ ص ٩٣

(٦) سورة التوبه : آية ١١٨

(٧) انظر : محمد علي سلطاني : ص ٢٤٥ — ٢٤٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(٣) الحديث النبـــوى

كان الحديث النبوى المورد الثالث الذى استمد منه الشعراء في حديثهم عن الغزو المغولي . وأخذوا منه ما تلاءم مع عصرهم . فقد أحس الشاعر سعدى الشيرازى بغربة الإسلام في عصره إثر واقعة بغداد ، ورأى شمس الخلافة غابـــت عنها ، وبلاد المسلمين تحت الاحتلال ، فتذكر حديثا نبويا في هذا المعنى ، يحمل نبوءة بما سيؤول إليه أمر الاسلام وهو " بدأ الإسلام غريبا ، وسيعود غريبا كما بدأ "(١) ، فضمّن معناه في قولـــه :

وفي الخبر المروّى دين محمـــد يعود غريبا مثل مبتدأ الأمـــر
أأغرب من هذا يعود كما بـــدا وسبي ديار السلم في بلد الكفـــر(٢)

كانت أبرز علامات غربة الإسلام في نظر الشاعر ، سبى النساء المسلمات ، ولهذه الظاهره دلالتها ، فلو كان للمسلمين قوة وسلطان ، لمنعوا نساءهم ، وحمـــوا أعراضهـــــم .

واستمد سعدى من حديث نبوى آخر ، في رثائه لابن الخليفة المستعصم ، أحمد ، في القصيدة نفسها بقولـــه :

أيا أحمد المعصوم لست بخاســـر وروحك والفردوس عسر مع اليســـر
وجنات عدن حفّفت بمكـــــاره فلا بد من شوك على فنن البُشر(٣)

ففي الشطر الأول من البيت الثاني إشارة إلى الحديث النبوى : " حفت الجنـــة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات "(٤)

---

(١) صحيح مسلم : جـ١ ص ١٣٠
(٢) حسين محفوظ : ص ٧٤
(٣) المصدر نفسه : ص ٧٤
(٤) صحيح مسلم : جـ٤ ص ٢١٢٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقال شمس الدين الطيبي في الحديث عن فضل الرزق الذى يحصل عليه المرء تحت ظل الرمح ، في سياق حديثه عن جند المسلمين الأباة ، الذين خاضوا معركة مرج الصفر .

والرزق من تحت ظل السيف مقترن بالعز والذل يأباه الفتى الصلف[1]

وربما تأثر الشاعر في معنى الشطر الأول من بيته بقول الرسول صلى الله عليه وسلم " وجُعِلَ رزقي تحت ظلّ رمحي[2] " .

وفي مواجهة الحديث عن غربة الإسلام ، وجد الشاعران ، محمد المنبجي ، والقاضي جمال الدين أبو بكر ، حديثا يقول " لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من يخذلهم ، حتى يأتي أمر الله[3] " ، فاستندا إليه في مدحهما لجنود الاسلام الذين حاربوا من أجله ، ودافعوا عنه ، وجاءا به دليلا على خلود الإسلام ، وصموده أمام أعدائه ، قال محمد المنبجي :

عصابة لم تزل بالحق ظاهرة في الحرب بالله والأملاك تنتصر
من سيد الرسل بالتأييد قد وعدت فالنصر يخدمها لا زال والظفر[4]

وقال القاضي جمال الدين أبو بكر :

ولم تزل شرعة الإسلام ظاهرة اجزم به فبهذا صحح الخبر[5]

* * *

(٤) التاريخ

أشار الشعراء في حديثهم عن الغزو المغولي وآثاره ، إلى أحداث من

---

(١) الوافي بالوفيات : جـ٤ ص ٣٦٣
(٢) التاج الجامع : جـ٤ ص ٣٦٠
(٣) المصدر نفسه : جـ٥ ص ٣٤٤
(٤) كنز الدرر : جـ٩ ص ٩٢
(٥) المصدر نفسه : جـ٩ ص ٩٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التاريخ ، وجدوا فيها ارتباطا بما عاصروا من أحداث ، وشخصيات كان لهـــا إيحاء يتصل ببعض من عايشوا من رجـــال .

فقد أشار الملك الناصر بن المعظم في مدحه للمستعصم ، الخليفة العباسي ، إثر الوقعة مع التتار سنة ٦٤٣هـ ، إلى أن العزم الذى لقي به الخليفة التتـــار يشبه عزم الرسول صلى الله عليه وسلم في غزوتي بدر[1] فقـــال :

وقاتلتهم إذ قاتلوك بعزمـة كعزم رسول الله في غزوتي بـــدر[2]

ولعل إشارة الشاعر إلى غزوة بدر ، تدل على أن الإنتصار على التتار ورجوعهـــم عن بغداد ، كان له من الأثر في نفوس أهلها ، ما كان لتلك الغزوة النبوية فـــي نفوس الصحابة ، من الشعور بالأمن ، وزوال الخـــوف .

وأشار عز الدين بن أبي الحديد ، في سياق مدحه للوزير ابن العلقمي ، في الوقعة نفسها ، إلى عدم حضور الوزير تلك الوقعة ، ولكن كان له فضل الإشارة والتدبير الذى أدى إلى رد أذى المغول . فكان مثله في ذلك كمثل عمر بن الخطاب الذى أشار على سعد بن أبي وقاص بفتح العراق ، فالفاتح الحقيقي هو عمر ، وما سعد إلاّ سيف في يمينه . قـــال :

عمرٌ الذى فتح العراق وإنمـا سعدٌ حسامٌ في يمين الضارب[3]

ووصف سعدى الشيرازى شدة حزنه ، وفرط بكائه على بغداد ، واسترجع في ذاكرته من اشتهروا بالتفجع والحزن ، فوجد الخنساء أعظمهم ، فشبه نفسه بها قائـلا :

مررت بصم الراسيات أجوبها كخنساء من فرط البكاء على صخر[4]

---

(١) كانت الغزوة الأولى وهي غزوة بدر الكبرى ، في السنة الثانية للهجرة . انظر : ابن هشام : جـ١ ص ٦٠٦ . وغزوة بدر الآخرة في السنة الرابعة للهجرة . انظر : جـ ٢ ص ٢٠٩

(٢) زبدة الفكـــرة : جـ٩ ص ٣٧

(٣) شرح نهج البلاغة : جـ٨ ص ٢٤٢

(٤) حسين محفـــوظ : ص ٧٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعندما شاهد ابن العديم ما حل بحلب من الخراب على يد التتار سنة ٦٥٨ هـ ، أخذ يعزّي نفسه بذكر زوال الأمم واندثار المماليك ، فقد باد ملوك الفرس ، وزال ملك قيصر ، وفني ملوك الايوبيين على كثرتهم ، وانقضى ملك بني العباس ، قال يذكر فعل الدهر بهؤلاء :

أباد ملوك الفرس جَمْعاً وقيصرا ... وأصبحت لدى فرسانها منه أسهم
وأفنى بني أيوب مع كُثْر جمعهم ... وما منهمُ إلاّ مليك مُعظّم
وملك بني العباس زال ولم يدع ... لهم أثرا من بعدهمْ وهمُ هُمُ (١)

وإشارة ابن العديم إلى ملوك الفرس وقيصر ، تدل على أن الإشارات التاريخية لم تقتصر على التاريخ العربي الاسلامي ، ومن هذا الباب تشبيه ناصر الدين بن النقيب جيش الظاهر بيبرس بجيش دارا ملك الفرس . قال :

وجاء يجر جيشا أحمديّا ... يُذكّرُ من رآه بجيش دارا (٢)

فهو في كثرته يشبه جيش دارا ، أما في حقيقته فإنه جيش نبوي أحمدي (٣) . وقال شمس الدين الطيبي مخاطبا موج الصفر بعد انتصار المسلمين فيه على المغول سنة ٧٠٢ هـ .

يا موج صُفّر بيضتَ الوجود كما ... فعلتَ من قبل بالإسلام يؤتنف (٤)

والشاعر هنا يربط بين النصر على المغول ، وانتصار المسلمين على الروم في بدء الفتوحات الإسلامية في الموج نفسه سنة ١٤هـ (٥) .

---

(١) اليونيني : ج٣ ص ٢١٥

(٢) الروض الزاهر : ص ٤٠٩

(٣) ورد في القرآن الكريم أسم أحمد للدلالة على الرسول عليه الصلاة والسلام . انظر : سورة الصف : آية ٦

(٤) الوافي بالوفيات : ج٤ ص ٣٦٣

(٥) انظر : البلاذري : ص ١٢٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وشبه محمد المنهجي ما تحقق للمسلمين من النصر في مرج الصفر سنة ٧٠٢ هـ بالفتوحات الاسلامية العظيمة التي تحققت على عهد عمر بن الخطاب فقال :

ما شاهد الناس فتحا قبله ابدا إلّا فتوحا تولى أمرها عمـــر (١)

فقد تصاغرت كل الفتوحات أمام هذا الانتصار ، ولم يكن له شبيه إلّا الفتوح العمريـة .

* * *

(٥) الألفاظ الاصطلاحيـــة

استخدم الشعراء الألفاظ الاصطلاحية في نطاق محدود ، لم يكن فيـــه إسراف ، ومعظم ما ورد من هذه الألفاظ ، جاء استخدامه غير ناب أو متناف مـــع السياق ، وكانت له ايحاءات أسهمت في توضيح المعنى المـــراد .

من ذلك قول المجد النشّابي في قصيدته التي وصف فيها أحوال بغداد قبيل سقوطهـــا :

واسمع فعندي روايات محققـة درابة وأحاديث وإسنـاد (٢)

ويظهر في هذا البيت أثر الثقافة الحديثية باستعمال مصطلحات الحديث: الرواية (٣) ، الدراية (٤) ، الأحاديث (٥) ، الإسناد (٦) . وقد استخدمها الشاعر ليدل بها على صدق ما

---

(١) كنز الـدرر : جـ٩ ص ٩١

(٢) الحوادث الجامعة : ص ٣٢١

(٣) الرواية : علم يطلق على قعل النبي عليه السلام وقوله . التهانوى : جـ٣ص ٦٠٧

(٤) الدراية : علم تتعرف منه أحوال الرواية وأحكامها ، وشروط الرواية ، وأصناف المرويات واستخراج معانيها . التهانوى : جـ١ ص ٢٧

(٦) الإسناد : علم الاسناد ويسمى بأصول الحديث ، وهو علم بأصول تعرف بـه أحوال حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من حيث صحة النقل وضعفه ، والتّحمل والأداء . التهانوى : جـ ١ ص ٢٧

(٥) الأحاديث : علم الحديث علم تُعرف به أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم وافعاله . التهانوى : جـ١ ص ٢٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جاء به من أخبار عن أحوال بغداد ، فهو يسلك سبيل أهل الحديث في التحقيق والتمحيص .

وقال علاء الدين الوداعي في حديثه عن الشيخ نظام الدين ، شيخ الشيوخ الذي جاء مع غازان ، في غزوته لبلاد الشام سنة ٦٩٩ هـ :

شيخ غازان ما خلا أحدٌ من تجرده
وغدا الكل لابسي خرقة الفقر من يده (١)

وقد استخدم الوداعي في هذين البيتين مصطلحات صوفية : الشيخ (٢) ، التجرد (٣) ، خرقة الفقر (٤) . وقال أيضا يذكر غازان ويصوّره في صورة شيخ صوفي :

ما لبست الصوف من عَبَثٍ لا ولا الخُلقان مجّانا
إنه زيّ لمن هو من فقراء الشيخ غازان (٥)

وفي هذين البيتين مصطلحان صوفيان ، هما : الخلقان (٦) والفقراء (٧) ، بالإضافة الى مصطلح الشيخ .

واتجه شمس الدين الطيبي إلى النجو في وصف حال المسلمين مع المغول في موقعة مرج الصفر ، وجعل مدار حديثه الصرف والمنع منه . فقال :

---

(١) المقريزي : جـ١ ق٣ ص ٨٩١

(٢) أعلى الرتب في طريق الصوفية ، انظر : السهروردي على هامش الإحياء : جـ٢ ص١٣

(٣) أو التجريد : هو تجرد العبد عن الاعراض فيما يفعله . فلا يأتي بما يأتي نظرا الى الأغراض في الدنيا والأخرة . السهروردي على هامش الإحياء : جـ٤ ص ٤٦٢

(٤) ليس خرقة الفقر رمز لارتباط المريد بالشيخ وتحكيمه في نفسه ، ويشبهها الصوفية بالبيعة . انظر : السهروردي على هامش الإحياء : جـ٢ ص ٤٢

(٥) المقريزي : جـ١ ق ٣ ص ٩٠٤ .

(٦) الملابس المرقعة ، ولبسها من شأن الصوفية . انظر : السهروردي على هامش الإحياء : جـ ٣ ص ٣٢١ ، ٣٢٢ .

(٧) هم المتصوفة ، والفقر في المصطلح الصوفي هو ان لا يستغني الإنسان بشيء دون الحق عز وجل ، وهو طريق إلى التصوف وبعض مراتبه . انظر : السهروردي على هامش الإحياء : جـ١ ص ٣١٢ ، ٣١٥ — ٣٢١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فشاهدوا علم الإسلام مرتفعا بالمدل ، فاستيقنوا أن ليس ينصرف !
لا قاهم الفيلق الجرار فانكسروا خوف الموامل بالتأنيث فانصرفوا (١) !

فعلم الإسلام ممنوع من الصرف لأنه مرتفع بالمدل . والتتار انصرفوا خوفا من الرماح ، فانكسروا وولوا الأدبار ، مشبهين في هزيمتهم النساء . وهو في هذين البيتين يلجأ إلى التورية ، ويتلاعب بالألفاظ ، ليدل على البراعة العقلية .

واستخدم القاضي جمال الدين أبو بكر مصطلحا فلكيا في قوله :

أين النجوم وتأثير القران وما تخرصوا فيه من إفك وما زجروا (٢)

والمصطلح الفلكي هو القران (٣) .

وورد في الشعر بعض المصطلحات ذات الدلالة العسكرية أو الرسمية . من ذلك كلمة جاليش (٤) ، في قول شرف الدين الأنصاري :

لله دَرُّ كتيبة ملمومة تبغيك حين حملت في جاليشها (٥)

---

(١) الوافي بالوفيات : جـ٤ ص ٣٦٣

(٢) كنز الدرر : جـ٩ ص ٩٤

(٣) أو الاقتران : إذا كان جرمان في جهة واحدة من السماء أي كانا على طول واحد . انظر : المعجم الفلكي : ص ٤٢

(٤) راية عظيمة في رأسها خصلة من الشعر . القلقشندي : جـ٤ ص ٨ ، وهي في بيت الانصاري تعني مقدمة الجيش . انظر : جـ١ ق ٢ ص ٦٢٨ حاشية رقم ٤

(٥) ديوان الصاحب شرف الدين : ص ٢٧٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وورد مصطلحان هما : المصائب[1] والرنك[2] ، في قول شاعـــــر :

بمصائبٍ سودٍ عليها رَنْكُـهُ أُسدٌ تصيد فوارسَ الهيجـاء[3]

وأورد الأمير ركن الدين بيبرس الفارقاني المصطلحات : السناجق[4] والبنـــــود[5] والكوسات[6] في قولـــه :

إذا ما شئت أن تحيا هنيئـا فبادر للسناجق والبنـــود

... أتى مثل الغمام بجيش مصـــر وكوسات كأصوات الرعـــود[7]

---

(١) المصائب : المصابات : جمع عصابة وهي راية عظيمة من حرير أصفر ، مطرزة بالذهب عليها ألقاب السلطان واسمه . صبح الاعشى: جـ٤ ص ٨

(٢) شعار يتخذه الأمير لنفسه عند تأمير السلطان له . وقد وضح القلقشندي هذا الأمر فقال : " ومن عادة كل أمير كبيرا وصغير أن يكون له رنك يخصه . . . ويجعل ذلك دهانا على أبواب بيوتهم ، والأماكن المنسوبة إليهم ، . . . وربما جعل على السيوف والأقواس . . . انظر :صبح الاعشى : جـ٤ ص ٦١ - ٦٢ ، المقريزي : جـ١ ق ٣ ص ٦٧٢ .

(٣) زبدة الفكـــرة : جـ٦ ص ١٢٦ .

(٤) رايات صغار :صبح الاعشى : جـ٤ ص ٨

(٥) جمع بند ، وهو العلم الكبير ، اللسان : جـ٣ ص ٩٧

(٦) هي صنوجات من نحاس تشبه الترس الصغير يدق بأحدهما على الآخر بايقاع مخصوص ، ومع ذلك طبول وشبابة ، يدق بها مرتين في القلعة كل ليلة ، . . . وكذلك إذا كان السلطان في السفر تدور حول خيامه .صبح الاعشى : جـ٤ ص ٩

(٧) زبدة الفكرة : جـ٦ ص ١٦٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الشعر والصنعة

اتخذ الشعر العربي في العصر المملوكي الذى شهد الجانب الأكبر من أحداث الغزو المغولي ، اتجاهات ثلاثة :

الأول : تقليدى ، حافظ على الصياغة القديمة بمقوّماتها وأصولها .

الثاني : اتجاه بديعي لعب الشعراء فيه بضروب البديع وفنونه .

الثالث: اتجاه سلك فيه الشعراء سبيل الكلام الجارى حيث اختلط فيه اللفظ الفصيح بالعامي (١) .

ويبدو أن الشعراء قد فرقوا بين القصائد الطوال والمقاطيع الشعرية ، فجعلوا من المقاطيع الشعرية ميدانا للصنعة ، " أما الشعر الجاد الذى تضمّه القصائد الطوال حيث تسيطر الفكرة ، ويغمر الشعور ، ولا تجرؤ صنوف الصنعة على الاقتراب منه الا بمقدار (٢) " ، وقد ظهر أثر الصنعة البديعية ، وبخاصة الجناس والطباق ، في رثاء كل من ابن أبي اليسر التنوخي وشمس الدين الكوفي ، لبغداد . قال ابن أبي اليسر :

يا زائرين إلى الزوراء لا تفدوا ... فما بذاك الحمى والدار ديار
... وكم حريمٍ سبته الترك غاصبة ... وكان من دون ذاك الستر أستار
وكم بدورٍ على البدرية انخسفت ... ولم يعد لبدور منه إبدار
... فأهملوا جانب الجبار إذ غفلوا ... فجاءهم من جنود الكفر جبار
يا للرجال لأحداث تحدثنا ... بما غدا فيه إعذار وإنذار
لم يبق للدين والدنيا وقد ذهبوا ... شوق لمجد وقد باتوا وقد باروا (٣)

---

(١) انظر : محمد زغلول سلام : جـ٢ ص ١٢١

(٢) محمد علي سلطاني : ص ١٩٠

(٣) تاريخ الاسلام : احداث سنة ٦٥٦هـ ، ص ٢٤٩ ، النجوم الزاهرة : جـ٧ ص ٥٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فقد جانس بين زائرين والزوراء ، والدار ودار ، والستر وأستار ، والبدور والبدرية ، وبدور وإبدار ، والجبار وجبار ، وبانوا ومالوا . وظهر الطباق في قولـــــه :

إن القيامة في بغداد قد وجدت ... وحدّها حين للإقبال إدبـــار
ما كنت آمل أن أبقى وقد ذهبوا ... لكن أتت دون ما أختار أقدار (١)

فقد طابق بين الإقبال والادبار ، وأبقى وذهبـــوا .

وظهر الجناس بصورة واضحة في قول شمس الدين الكوفـــي :

من كان مثلي للحبيب مفارقـــا ... لا تعذلوه فالكلام كـــلام
ويذيب روحي نوح كل حمامـــة ... فكأنما نوح الحمام حمـــام
والدار مذ عدمت جمال وجوهكم ... لم يبق في ذاك المقام مقام
لا حظّ فيها للعيون وليس للأقدام فـــي جنباتهـــا إقـــدام (٢)

وقد اعتمد الكوفي في الجناس على التلاعب بحركة واحدة ، يتغيّر بها المعنى في هذه الأبيات ، فجانس بين : الكَلام والكِلام ، والحَمام والحِمام ، والمَقام والمُقام ، والأَقدام والإقدام .

وقال في قصيدة أخـــرى :

إن لم تقرّح أدمعي أجفانـــي ... من بعد بعدكم فما أجفانـــي
إنسان عيني مذ تنائت داركم ... ما سره نظر إلى إنســـان
مالي وللأيام شتت صرفهـــا ... حالي وخلاني بلا خـــلان (٣)

وقد جانس في هذه الأبيات بين أجفاني وأجفاني ، وإنسان وإنسان ، وخلاني وخلاني . وحَدّ ومُدّ . ويلاحظ أن ميله في هذه الأبيات إلى الجناس المطابـــق .

---

(١) تاريخ الاسلام : احداث سنة ٦٥٦ ، ص ٢٤٩ - ٢٥٠ ، النجوم الزاهـــرة : جـ٧ ص ٥٢

(٢) فوات الوفيات : جـ ٢ ص ٢٣٢

(٣) المصدر نفسه : جـ٢ ص ٢٣٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن الطباق الذى ورد عند شمس الدين الكوفي قولـــه :

يا دار مذ أفلت نجومك عنّنـــا والله من بعد الضياء ظـــلام
ودمي حلال إن أردت سواكـــم والعيش بعدكم عليّ حـــرام (١)

فقد طابق بين الضياء والظلام ، والحلال والحرام .

وربما كان باعث استخدام هذين الشاعرين للجناس في شعرهما الذى تحدثا فيـــه عن نكبة بغداد ، التي عظمت في نفسيهما ، محاولة استثمار الألفاظ في صورها المتقاربة للدلالة على ما أحسّا به من عظم الكارثة ، هذا بالإضافة الى أن ذوق العصر كـــان يتقبل إيراد هذه الفنون اللفظية . وكذلك الحال بالنسبة للطباق ، فإنه يعطـــي الشاعر مجالا للمقارنة بين الأضداد ، والحديث عن حالين متناقضتين ، وهو مـــا حلّ ببغداد ، من الذل بعد العز ، وبالخلافة وأهلها من التشتت بعد اجتماع .

ومن نماذج الجناس ما ورد في قصيدة شمس الدين الطيبي في موقعة مـــرج الصفر ، وقد بلغ الفرح به أشدّه ، فأخذ يتفنن في الألفاظ ، ويفرغ فيها عواطفـــه المتنامية ، قال في تمجيد السلاح وعدة القتـــال :

أحلى وأعلى وأغلى قيمة وسنى من ريق ثغر الغواني حين يرتشف
ومن غدا بالخدود الحمر ذا كلف فإنني بخدود البيض لي كلـــف (٢)

ونلاحظ أن الشاعر قد جمع في البيت الثاني بين الجناس والطباق في صورتين متقابلتين ليظهر الفرق بين ما كلف به العابثون وما أحبه المجاهدون : الخدود الحمر ، والخدود البيض ، وفي البيت الأولى جانس بين الكلمات : أحلى وأعلى وأغلى . وقد أكثـــر الشاعر في قصيدته من إيراد الصور المتقابلة لإظهار الفرق بين الجد واللعب ، والقتال واللهو . قـــال :

---

(١) فوات الوفيـــات : جـ٢ ص ٢٣٢

(٢) الوافي بالوفيات : جـ٤ ص ٣٦٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولأمة الحرب في عيني أحسن من لام المذار الذي في الخد ينعطف
كلاهما زرد هذا يفيد وذا يردي فشأناهما في الفعل يختلف
ما مجلس الشرب والأرطال دائرة كموقف الحرب والأبطال تزدلف (١)

فهو يقارن بين لأمة الحرب ولام المذار في الصورة والفعل ، وصوت الخيل الصاهلة في طلب الثأر وأنغام الأوتار وألحانها ، ومجلس الخمر وموقف الحرب . وفي تضاعيف هذه الصور المتقابلة ، جاء الجناس بين لأمة ولام ، والأوتار والأوتار ، والأرطال والابطال ، والشرب والحرب . ومن الطباق يفيد ويردي .

وإيراد الشاعر لهذه الصور المتقابلة في هذا الموقف ، يدل على أن الشاعر لم يكن يعبث باستعمال ألفاظ متقاربة في الجناس ، أو متضادة المعنى في الطباق ، وإنما استخدمها لتخدم الغرض الذي أراد ، وهو بيان الفرق بين حالين ، هما حال الجد وحال الهزل .

وقال القاضي ناصر الدين بن العسقلاني في حديثه عن معركة حمص سنة ٦٨٠هـ :

فلله منا الحمد والشكر دائما فقد أصّل الاسلام واستأصل الكفرا (٢)

وهنا نجد الشاعر يستخدم من المحسنات اللفظية الطباق بإيراد : الاسلام والكفر ، وأصّل واستأصل ، لرسم صورة تمثل الإسلام وقد رسخ بنيانه بالنصر ، والكفر وقد اجتث من أصوله بالهزيمة .

ومثل هذه الصورة في عرض المتقابلات باستخدام الطباق قول الشاعر نفسه في مدح قلاوون :

هو الملك المنصور والله خاذل أعاديه خذلا وناصره نصرا (٣)

---

(١) الوافي بالوفيات : جـ٤ ص ٣٦٢

(٢) زبدة الفكرة : جـ٩ ص ١٦٢

(٣) المصدر نفسه : جـ٩ ص ١٦٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فقد طابق بين : خاذل وناصر ، وخذلا ونصرا .

وظهر من المحسنات البديعية ، بالاضافة الى الجناس والطباق ، فنون بديعية أخرى ، منها السجع في قول شمس الدين الكوفي :

فلبعدهم قرب الردى ، ولفقدهم فقد الهدى ، وتزلزل الإسلام (١)

وفي قوله :

أجا بني الطلل البالي ، وربعهم الخالي ، نعم ها هنا كانوا وقد هلكوا (٢)

وكأنما يستعين الشاعر بهذه الوقفات على السجعات ليكون لبكائه صدى ، ولنواحه رنين .

وظهر السجع كذلك في قول القاضي ناصر الدين بن المسقلاني في وصف معركة حمص سنة ٦٨٠ هـ :

هي النعمة العظمى ، هي النصرة الكبرى هي اللفظ والمعنى ، هي البشر والبشرى
هي المطلب الأسنى ، هي **النعمة التي** لقد شرفت قدرا ، وقد عظمت ذكرا (٣)

ووقوف الشاعر هنا في نهاية كل جملة مسجوعة ، مع تصدير الجملة بضمير الشأن ، كأنما هو هتاف يلفت به النظر مرة بعد أخرى ، للدلالة على عظمة **النصر** وشرف قدره .

ومن فنون البديع التي ظهرت في الشعر ، التقسيم ، وذلك في قول شهاب الدين محمود في مدح السلطان لاجين :

وانهض بعزمك فهو الجيش يقدمه من بأسك المنذران : الرعب والوجل
وسر به وحده لا بالجيوش وإن لم يحوها الأرحبان : السهل والجبل

---

(١) فوات الوفيات : جـ٢ ص ٢٣٢

(٢) الحوادث الجامعة : ص ٣٣٥

(٣) زبدة الفكرة : جـ٦ ص ١٦٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تلقى الفتوح وقد جاءتك وافدة يحثها المزعجان :الشوق والأمل
... فمزقتهم سطاه ذا يسير وذا عان أسير ، وذا في الترب منجدل[(١)]

فقد ذكر في الأبيات الثلاثة الأولى : المنذران ، الارحبان ، المزعجان ، وفصّل المراد بهما ، وكذلك في البيت الرابع ، بيّن تمزيقه لهم ثم فصّل هذا التمزيق ببيان أحوالهم .

الصورة الشعرية .

تنوعت مصادر الصور الشعرية ، في شعر المواجهة مع المغول . وقد استقى الشعراء صورهم من القرآن الكريم والحديث الشريف والتراث الشعرى ، كما مرّ بنا من قبل[(٢)] ، وكان للخيال الشعرى دوره كذلك في تركيب الصور الجديدة أو توليدها من صور شعرية تقليدية .

وقد تنوع الخيال الشعرى بين صور جزئية ، من تشبيه واستعارة وكناية[(٣)] ، ولوحات شعرية تعرض في مشاهد متكاملة الجوانب ، متضامّة الأجزاء . وقد ظهرت هذه اللوحات في وصف المعارك[(٤)] ، ووصف جوانب من الدمار والخراب الذى حلّ بالمدن الإسلامية[(٥)] . وقد عمد بعض الشعراء في وصف المعارك إلى ذكر تفاصيل

---

(١) الوافي بالوفيات : جـ٢٤ ص ١٨٣

(٢) انظر : ص٢٢٢ من هذه الرسالة .

(٣) لا يحتمل المقام ذكر أمثلة أو شواهد على هذه الصور ، لكثرتها وسهولة التعرف عليها

(٤) انظر : زبدة الفكرة : جـ٩ ص ١٦٤ ، الوافي بالوفيات : جـ٣ ص ٣٦٨ ، جـ ٤ ص ٣٦٣ - ٣٦٤ ، كنز الدرر : جـ٩ ص ٩٤ - ٩٦

(٥) انظر : مطالع البدور : جـ٢ ص ٣٠٠ = ٣٠١ ، نهر الذهب : جـ٣ ص ٢١٥ - ٢١٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تساعد على توضيح الصورة ، بذكر الزمان والمكان[1] واستخدام الألفاظ الدالة على اللون والحركة والصوت[2] .

وتكرر في مجال وصف القتال بعض الصور المتقاربة ، في الحديث عن أدوات القتال وفعلها في ميدان المعركة . قال فتح الدين بن عبد الظاهر في معركة حمص سنة ٦٨٠ هـ :

والسيف يركع والأعلام رافعة والروس تسجد لا عجب ولا كبر
والخيل لا تفتدى الاّ على جثث والسهل من أروس القتلى به وعر
والبيض تغمد في الأجفان من مهج والسمر ناهيك ياما تفعل السمر[3]

لقد استعار الشاعر في تصويره لفعل السيوف صورة الركوع في الصلاة ، ولمقابلة ذلك وصف الأعلام بأنها رافعة ، وكأنها رافعة من الركوع . والروؤس التي تقطعها السيوف تخر ساجدة ثم وصف حركة الخيل ودوسها على جثث القتلى ، ثم بين حركة السيوف والرماح وهي تخترق الأجساد .

ومثل هذه الصورة التي تذكر الجزيئات الدالة على الحركة والقوة ، وتستعين بحركات الصلاة لتصوير فعل آلات القتال ، ومجريات المعركة ، وردت في قول شهاب الدين محمود ، في وصف المعركة نفسها :

والهام تسجد والأجساد راكعة والموت يقبل والأرواح ترتحل
والبيض تغمد في الأبطال عارية زنتني وعليها منهم حلل
والخيل تحفى وتخفى في العجاج فإن [illegible] وهي بالهامات تنتعل[4]

---

(١) انظر . قصيدة فتح الدين بن عبد الظاهر في موقعة حمص : الوافي بالوافيات : جـ٣ ص ٣٦٧ ، قصيدة محمد المنبجي : زبدة الفكرة : جـ٩ ص ١٦٤ ، قصيدة ناصر الدين بن النقيب : الروض الزاهر : ص ٤٠٩ - ٤١٠ .

(٢) من تلك الألفاظ : الكرّار ، زخّار ، يركع ، يسجد ، يقبل ، يرتحل ، الرعود زجل ، نور طلام ، سنا ، قتام ، أحفّوا ، . . . الخ .

(٣) الوافي بالوفيات : جـ٣ ص ٣٦٨

(٤) المصدر نفسه : جـ ٢٤ ص ١٨٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقال القاضي جمال الدين أبو بكر ، في معركة مرج الصفر ، سنة ٧٠٢ هـ :

والسيف يبدي بديعا من فواقره والرمح ينظم والهامات تنتثر
والنبل ينقط والأقلام كاتبة والضرب يعرب والأبدان تستطر (١)

وقد استعان الشاعر في رسم صورة المعركة بألفاظ أدبية : ينظم ، تنتثر ، وهو يريد : النظم والنثر ، واستخدم ألفاظا كتابية : ينقط ، يعرب ، تستطر .

وفي مجال الحديث عما حلّ بديار الإسلام من النكبات والتخريب ، وردت صور تجسد المأساة ، وتكشف عما نزل بالمدن التي رثاها الشعراء من الخراب والدمار ، وكثرة القتلى ، فصوروا الديار خالية ، قد رحل أهلها عنها ، وقد حامت عليها الغربان ، وبينوا كثرة ما نهب من الأموال والنفاس ، وما حل بالمسلمات من السبي ، وما فعله الغزاة من انتهاك الأغراض على مرأى من الناس (٢) .

وقد نبا ذوق بعض الشعراء ، فأورد من الصور الشعرية ما لا يتناسب مع جدية الموقف الذي تحدث عنه ، أو مقام من رثاه . من ذلك تشبيه الشاعر شمس الدين الكوفي سادة بغداد الذين قتلوا سنة ٦٥٦ هـ ، بدم الفصاد . قال :

قالت غدوا لما تبدد شملهم وتبدلوا من عزّهم بهوان
كدم الفصاد يراق أرذل موضع أبداً ويخرج من أعز مكان (٣)

ومن ذلك تصوير علاء الدين الغزولي ما حل بماء وادي دمشق عندما ولج به المغول بقوله :

---

(١) درة الاسلاك : جـ١ ص ٢٤٧

(٢) انظر : تاريخ الاسلام : احداث سنة ٦٥٦ ، ص ٢٤٦ - ٢٥٠ ، فوات الوفيات : جـ٢ ص ٢٣٢ - ٢٣٥ . حسين محفوظ : ص ٧٣ - ٧٧ ، نهر الذهب : جـ٣ ص ٢١٥ - ٢١٦ ، مطالع البدور : جـ٢ ص ٠٠ - ٣٠٣ .

(٣) فوات الوفيات : جـ٢ ص ٢٣٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كانت معاصم نهرها فضيّـة والآن صرن كذائب العقيـان
ما ذاك إلا تركهم ولجت بها فتخضبت منها بأحمر قـان (١)

وفي هذا إشارة إلى لون المغول الأصفر ، الذى غيّر لون الماء من الفضيّ إلى الذهبي ! وأضاف على هذا التكوين لونا آخر ، هو الأحمر القاني ، وهو ناتج عن كثرة القتلى الذين امتزج دمهم بالماء .

وأوغل الشاعر في الصنعة العقلية ، وأورد صورا جعلت حرارة العاطفة تبرد وعمق الشعور يضمحل . فقد نظر في أحداث غزو سنة ٨٠٣ هـ ، فوجد ان حلب ابتليت بهم في البداية ، ثم تلتها حماة ، ثم دمشق ، فاتكأ على هذا الترتيب في ايراد هذه الصور : قال مخاطبا دمشق :

أعروسنا لك أسوة بحماتنـا في ذا المصاب فأنتما أختـان
... حزني على الشهباء قبل حماتنا هو أول وهي المحل الثانـي
لا تدعي الاحزان يا شقراءنا السبق للشهباء في الأحـزان (٢)

فدمشق المنكوبة عروس ! وحماة ، أصبحت حماة - أما للزوج ! - وما دام قد أطلق صفة الشهباء على حلب ، فلتكن دمشق شقراء ، وهكذا تختلط الصورة ، وتضيع إيحاءات المأساة في هذا الزخرف اللفظي ، والتوليد العقلي العقيم ، الذى يدل على انفصال بين حياة الشاعر وشعره (٣) ، فأين حرارة الانفعال ؟ وأين حرقة الألم؟ (٤)

---

(١) مطالع البدور : جـ٢ ص ٣٠٠ - ٣٠١
(٢) المصدر نفسه : جـ٢ ص ٣٠١
(٣) انظر : عبد العزيز الأهواني : ص ١١
(٤) انظر : جودت الركابي : ص ١٧٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

خاتمـــــــــــــــة

كان الغزو المغولي من أعنف ما مرّ في تاريخ البشرية من الغزوات ، وأشـــد ما عرف المسلمون من النكبات . فقد أتى على مراكز العلم والحضارة في مشرق العالـم الإسلامي ، ومضى يجرف في طريقه مظاهر العمران ، حتى وصل إلى العراق ، فأزال الخلافة الإسلامية ، وتابع سيره إلى ديار الشـام ، فخرّب فيها ما استطاع ، إلاّ أن هزيمته في عين جالوت لم تجعل له فيها قرارا . ولكن الغـازي المغولي لم ييـــأس من امتلاك الشام ، فقصدها مرة بعد أخرى ، إلاّ أنه لم يستوطن فيها .

وقد وجدت أحداث الغزو المغولي بما كان فيها من تدمير وتخريب وإزالـــة للخلافة الإســـــــلامية ، وقتل ونهب وسبي وأسر ، وجدت صدى في الشـــعر العربي ، وبخاصة في رثاء المدن ، حيث قال الشعراء في وصف نكبة بغداد ســـنة ٦٥٦ هـ ، ولم يصلنا كثير مما قيل ، والذي وصلنا منه جسّد كثيرا من مشاهد المأســاة وصورها . وقال الشعراء في وصف نكبة دمشق بغازان ، سنة ٦٩٩ هـ ، وتيمورلنـــك سنة ٨٠٣ هـ . وقد غلب على هذا الشعر الذي سجل مشاهد المأساة ، رنة من الحزن العميق ، لما حلّ بالإسلام والمسلمين ، والأسى على الضعف الذي وصل إليه المسلمون ، حتى أصبحت ديارهـــم مهوى أفئدة الطامعين ، يجوسون خلالها ، ولا يجـــدون رادعـــا .

ولم تكن أحداث الغزو المغولي مقتصرة على هذا الجانب الذي استعلى فيـــه المغول على المسلمين ، فقد قيّـــض الله للإسلام سلاطين المماليك الذين أخذوا علـــى عاتقهم مهمّة الدفاع عنه ، وحماية دياره وأهله ، فتصدوا للمغول كلما قصدوا الشـــام ، وهزموهم مرة بعد أخرى ، وقاموا بغزو بلاد الأرمن حلفاء المغول ، أكثر من مرة ، تأديبـــا

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لهم ، وانتقاما منهم ، لما كانوا يقترفون بحق المسلمين من الجرائم عندما كانوا يدخلونها في جيش المغول . وقد وقف إلى جانب هؤلاء السلاطين عدد من الشعراء ، الذين رأوا في أفعالهم جهادا وبطولة ، يستحقون عليها المدح ، فسجلوا انتصاراتهم ، ومجدوا بطولاتهم ، وحضّوهم على الثأر للخلافة الإسلامية ، ولمن قتل المغول من المسلمين ، وحرضوهم على أحلاف المغول ، وبخاصة الأرمن ، ومدحوا الجند المسلمين ووصفوا ما تخلقوا به من صفات الايمان والجهاد في سبيل الله ، والتخلص من لذائذ النفس في سبيل الدفاع عن ديار الإسلام والمسلمين .

وقد استمد الشعراء في هذا المجال صورا ومعاني من شعر الحماسة والبطولة ، من التراث الشعري العربي ، ومن واقعهم الذي عاشوه وعاينوه ، حيث كان عدد منهم يخوضون المعارك ويصفونها عن كثب .

وبذلك ، يمكن أن نعتبر هذا الشعر ، الذي سجل ما تحقق للمسلمين من انتصارات على المغول ، يمثل حلقة من حلقات شعر البطولة والجهاد ، في تاريخنا الأدبي . وهو يبدد الأوهام التي لم تبن على دراسة دقيقة ، والأحكام العامة التي أطلقت دون تمحيص ، عن الشعر بعد سقوط بغداد ووسمه بالجمود والعقم ، ووصف الأدب بعامة بالانحطاط.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفهـــــــــــارس :

* فهرس الآيـــــــــــــــات
* فهرس الأحاديـــــــــــــث
* فهرس الأعـــــــــــــــلام
* فهرس البلدان والأماكن والمواقع الجغرافية
* فهرس الشعوب والأمم والقبائل والطوائف والفرق
* فهرس المصادر والمراجـــــــــع
* فهرس المحتـــــــــــــوى

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهرس الآيـــات

الآيـــة	رقمها	الســـورة	الصفحـــة
* ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين	٥٤	آل عمـــران	٢٣٧
* وكأيّن من نبي قاتل معه ربّيـــون كثير فما وهنوا لما أصابهم فـــي سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا	١٤٦	آل عمـــران	٢٣٦
* حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بمـا رحبت وضاقت عليهم أنفسهم	١١٨	التوبـــة	٢٣٧
* إرجع إليهم فلنأتينهم بجنـود لا قبل لهم بها	٢٧	النحـــل	٢٣٧
* فما اسطاعوا أن يظهروه ومـــا استطاعوا له نقبا	٩٧	الكهـــف	٢٣٥
* وردّ الله الذين كفروا بغيظهـــم لم ينالوا خيرا .	٢٥	الأحـــزاب	٢٣٧
* ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلـوا تقتيلا	٦١	الأحـــزاب	٢٣٦
* فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخـاء حيث أصاب ، والشياطين كل بنّـاء وغواص ، وآخرين مقرنين في الأصفاد	٣٦-٣٨	ص	٢٣٥
* وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية ، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما ، فترى القوم فيها صرعى كأنهـم أعجاز نخل خاوية	٦-٧	الحاقّـــة	٢٣٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهـــرس الأحاديـــث

الحديـــــث	الصفحـــة
* بدأ الاسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ	١٤٧، ٢٣٨
* جعل رزقي تحت ظلّ رمحي	٢٣٩
* حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات	٢٣٨
* لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين ، لا يضرّهم من يخذلهم حتى يأتي أمر الله .	١١٠-٢٣٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهرس الأعـــــلام

ابن الأثيـــــر : ٧ ، ٨ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٣١ ، ٣٥ ، ٤٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٨ ، ١٥٦ ، ١٩٦ ، ٢٠٠ ، ٢١٥ .

ابراهيم بن علي بن خليل (عين البصل الحراني) : ٧٣ ، ١٢٩ ، ٢١٩ .

أبغا بن هولاكو (ملك المغول) : ٥٦ ، ٨٨ ، ٩٦ ، ١٢٤ ، ١٩٠ .

الأبيوردى : ٢١٥ .

أحمد بدوى : ٣٢ ، ٣٥ .

أحمد بن المستعصم : ١٤٨ .

أحمد بن هولاكو : ١٢٤ .

أرجواش : ٦١ .

أرغون : ٨٣ ، ١٢٤ .

الأشرف خليل : ١١ ، ١٢ ، ٢٤ ، ٦١ ، ١٢٧ ، ٢٠٨ ، ٢٢٠ .

الأشرف موسى الأيوبي : ١٥ ، ١٦ ، ٢٨ ، ٣١ ، ٣٤ ، ٣٦ .

أمين الدين علي بن عثمان السليماني : ٧٧ .

ابن إياس : ٢٠٤ .

البابا اينوشنسيوس الرابع : ٨٤ .

بدر الدين لؤلؤ (أمير الموصل) : ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٨٤ .

براون : ٣٧ ، ١٤٥ .

برقوق (الملك الظاهر) : ٢١٢ .

بلقيس : ٢٣٧ .

بكر بن وائل : ٨ .

ابو بكر الصدّيق : ١٩٣ .

البلاذرى : ١٨٤ ، ٢٤١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

البّـــــن : ٥٩ ، ٧٤.
بولاى : ٥٩ ، ١٠٧.
ابن البيساني : شمس الدين : ٥٩.
بيبرس الداوداري : ٥.
ابو تمام : ٢٢٨.
ابن تيمية : ٦١ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٨٢ ، ١٠٦ ، ١٠٧.
التهانوى : ٧١ ، ٢٤٢.
تيمورلنك : ٢ ، ١٢ ، ٤٦ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٧٥ ، ١١٦ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٩ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٩٥ ، ١٩٧ ، ١٩٩ ، ٢٠٤ ، ٢٠٨ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢٥٥.
جشكب (جوشكاب) : ١٢٤.
جلال الدين الخوارزمي (منكبرتي) : ٨ ، ١٣ ، ٢١ ، ٢٢.
جمال الدين بن الصرصرى : ٣٤.
جمال الدين بن مطروح : ٣٤.
جمال الدين أبو بكر (القاضي) : ٦٩ ، ٨١ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٥ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٦١ ، ١٧٣ ، ١٨٢ ، ١٨٥ ، ١٩١ ، ٢٠٦ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٢٨ ، ٢٣١ ، ٢٣٩ ، ٢٤٤ ، ٢٥٢.
جمال الدين بن مصعب : ٥١.
جنكيز خان : ٩ ، ١٢ ، ٧١ ، ٧٥ ، ١٩٥ ، ١٩٦.
الجهم بن صفوان : ٧١.
جوانفيل : ٨٤.
جودت الركابي : ٢٥٢.
حاتم التكفور (ملك الارمن) : ٨٣.
ابن الحاجب (ابو عمرو) : ٢٩ ، ٣٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ابن حبيـــب : ٦ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٨٦ .
ابن المستقلاني : ٢٠٨ .
ابن أبي الحديد (عز الدين) : ٤٤ ، ٤٥ ، ٢٤٠ .
الحريري (الشيخ علي) : ٥٩ .
حسين محفوظ : ٤٩ ، ٦٦ ، ٧٦ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٧٥ ، ١٩٨ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢١٦ ، ٢٣٢ ، ٢٣٥ ، ٢٤٠ ، ٢٥٢ .
ابو الحسن الجزار : ٢٠٩ .
ابن الحلاوي : ٣٤ .
حميضة (شريف مكة) : ١٢ .
الحنّ : ٥٩ ، ٧٤ .
خالد بن الوليد : ٥٦ ، ٥٧ ، ١٠٤ .
خدابنـــدا (خربندا) : ١١ ، ١٣ ، ٦٢ ، ٨٨ .
ابن خلدون : ٢ ، ١٣ ، ٤٤ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٧٤ .
ابن خلّكان : ١٣٣ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ .
الخنساء : ١٤٧ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢٤٠ .
خوارزم شاه (علاء الدين الخوارزمي) : ٧ ، ٨ ، ١٣ ، ١٥ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ .
دارا (ملك الفرس) : ٩٦ .
ابن الدبيثي : ٣٥ .
الدواداري (ابو بكر عبد الله بن إيبك) : ٥ .
رايس (تالبوت تامارا) : ١٣ .
الرسعني (جمال الدين عمر بن ابراهيم بن حسين) : ١٥٤ .
رشيد الدولة فضل الله الهمذاني : ٦٢ .
ركن الدين بيبرس الفارقاني : ١٠٣ ، ٢٤٥ .
ركن الدين حسين بن الأصفـــر : ٢١٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رنسيمان : ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ .
الزركلي : ٤٢ .
ابن الساعي : ٣٨ .
سبط بن الجوزى : ٣٠ ، ٣٥ .
السبكي : ٢٧ .
السراج الوراق : ٢٠٩ .
سعد بن أبي وقاص : ٤٥ ، ٢٤٠ .
سعدى الشيرازى : ٢ ، ٤٩ ، ٦٦ ، ٧٦ ، ١٤٥ ، ١٤٧ ، ١٤٩ ، ١٥١ ، ١٧٥ ، ١٩٨ ، ٢٠٢ ، ٢١٦ ، ٢٣٢ ، ٢٣٥ ، ٢٣٧ ، ٢٤٠ .
ابو سعيد بن خدبندا : (ملك المغول) : ١٢ .
سعيد عاشور : ٨٥ .
ابو سفيان : ١٦٩ .
سليمان (النبي عليه السلام) : ٢٠١ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٧ .
سنقر الأشقر : ٢٣٣ .
السهروردى (شهاب الدين) : ٢٥١ .
سيف الدولة الحمداني : ٢٠٨ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ .
ابو شامة المقدسي : ٢٦ ، ٧٦ .
ابن الشحنة : ١٥٦ .
ابن شدّاد : ٨٩ .
شرف الدين الأنصارى (الصاحب شيخ الشيوخ) : ٤ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٧ ، ١٣١ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٨ ، ٢٠٥ ، ٢٢٢ ، ٢٢٥ ، ٢٣٠ .
شرف الدين الحنفي : ٣٠ .
شرف الدين بن الوحيد : ٦٩ ، ١١٣ ، ٢٠٩ .
شكرى فيصل : ٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شمس الدين الطيبي : ٤٧ ، ٦١ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٩ ، ٨١ ، ١٣١ ، ١٣٨ ، ١٤٠ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٨٠ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٩١ ، ٢٠٤ ، ٢٠٩ ، ٢٢٣ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٩ ، ٢٤١ ، ٢٤٣ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٥٠ ، ٢٥٢ .

شهاب الدين محمود : ٥٣ ، ٦٣ ، ٦٨ ، ٧٤ ، ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٧٧ ، ١٩٤ ، ٢٠٩ ، ٢١٨ ، ٢٢٠ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٥٠ .

الشوّاء الحلبـــــي : ٣٤ .

الصاغانـــــــي : ٣٣ .

صفر (أخو الخنساء): ١٤٧ ، ٢١٧ ، ٢٤٠ .

صدر الدين بن الوكيل : ٢٠٩ .

الصفدى (صلاح الدين خليل) : ٥ ، ٥٦ ، ٧٣ .

الصقاعـــي : ١٠٢ ، ٢٣٣ .

ابن الصـــلاح : ٣٢ .

صلاح الدين الأيوبي : ٢٨ ، ٤١ ، ٢٠٨ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠ .

الصيرفـــي : ١٥٦ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٩٩ .

ضياء الدين المقدسي (الحافظ) : ٣٣ .

طقتمـــش خان : ١٢ .

الظاهر بيبرس (السلطان) : ٤ ، ٩ ، ١٠ ، ١٣ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ٦٨ ، ٨٦ ، ٨٩ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٨ ، ١٠٠ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٣١ ، ١٧٣ ، ١٧٥ ، ١٧٩ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ٢٠٤ ، ٢٠٨ ، ٢١٨ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٩ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٤١ .

الظاهر (الخليفة) : ١٤ ، ١٥ ، ٢٨ .

العادل الأيوبي : ٢٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عبد العزيز الأهواني : ٢٥٢ .
عبد القادر يوسف : ٨٤ .
عبد الكريم خليفة : ٦ .
عبده قلقيلة : ٢٠٨ .
ابن العبري : ٨٣ .
عثمان بن عفان : ١٦٩ .
ابن العديم : ٤٩ ، ١٥٣ ، ١٥٥ ، ١٦٨ ، ٢١٢ ، ٢٤١ .
ابن عربشاه : ٧٥ ، ١٩٥ ، ١٩٦ .
العزّاوي : ٣٨ ، ١٤٥ .
عز الدين عبد السلام : ٢٩ ، ٣٢ .
عفيف الدين يوسف بن البقّال : ٢١١ .
العبكري (ابو البقاء) : ٣٣ .
علاء الدين صاحب الألموت : ٨٣ .
علاء الدين بن زين الدين الحصني : ٢١٢ .
علاء الدين بن عبد الظاهر : ١٣٠ ، ٢٠٩ .
علاء الدين علي الأوتاري الدمشقي : ١٦٠ ، ١٦٢ .
علاء الدين الوادعي : ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ١٩١ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ٢١٧ ، ٢٤٣ .
ابو العلاء المعري : ٢٢٨ .
ابن العلقمي : ١٧ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ١٤٥ ، ٢٤٠ .
علي الجندي : ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ .
علي بن أبي سوادة : ١٠٩ ، ١٨١ ، ١٩١ ، ٢٢٤ .
علي بن مقرّب الصيوني : ٤٢ ، ٤٣ .
عماد الدين زنكي : ٢٠٨ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ .
عمر بن الخطاب : ٤٥ ، ٢١١ ، ٢٤٠ ، ٢٤٢ .
عمر بن الفارض : ٣٤ .
عمر بن عبد العزيز : ١٦ .
عمر موسى باشا : ٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ابن عنيـــن : ٣٤٠
غازان (قازان) محمود : ١٠ ، ١١ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٨ ، ١٦٠ ، ١٦٦ ، ١٦٨ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ٢٠٤ ، ٢٣٦ ، ٢٤٣ ، ٢٥٢ ، ٢٥٥٠
غياث الدين الخوارزمي : ٧٠٠
فتح الدين بن عبد الظاهر : ٥٦ ، ٨٧ ، ١٠١ ، ١٠٣ ، ١٢٣ ، ١٧٣ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ٢٠٩ ، ٢٢٦ ، ٢٥٢٠
فتيان الشاغوري : ٣٤ ، ٢٣٠٠
فخر الدين قاضي القضـــاة : ٨٣٠
الفخر الرازي : ٣٢٠
ابو الفداء : ٨ ، ١٧ ، ٢٣ ، ٤٢ ، ٤٩ ، ٦٦ ، ٧٨ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٩ ، ٩٢ ، ١٥٣ ، ١٦٠ ، ١٩٨ ، ٢١٢ ٠
ابن الفرات : ١٢٤٠
فرج بن برقوق (السلطان) : ١٧٢٠
فرعون : ٩٥ ، ٢٣٤٠
الفردوسي : ٣٧٠
ابن الفوطـــي : ٥ ، ٣٨٠
ابن قاضي شـــهبة : ٥٩٠
قبجـــق : ١٠ ، ٦١ ، ٨٩٠
قرا ســـنقر : ١١٠
ابن قسيم الحموي : ٢٢٩٠
قطز (الملك المظفر) : ٩ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٥ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١٣٧٠
قطلوشاه : ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قلاوون (السلطان المنصور) : ٥ ، ١٠ ، ١١ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٩٧ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١١٩ ، ١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٨٠ ، ٢٠٥ ، ٢٠٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٣٣ ، ٢٤٩ .

ابن القيسراني (محمد) : ٢٣٠ ، ٢٣١ .

قيصـــر : ٢٤١ .

الكتبي (محمد بن شاكر) : ٥ .

ابن كثير : ٦ ، ٨ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٧ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٢٧ ، ٣٦ ، ٣٨ ، ٤٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٧٢ ، ٨٢ ، ٨٦ ، ٨٩ ، ٩٣ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٢٥ ، ١٣٥ ، ١٥٢ ، ١٦٠ ، ١٦٢ ، ١٩٠ ، ٢٠٢ ، ٢١١ ، ٢١٨ ، ٢٣٣ .

كسرى : ٤٨ .

كمال الدين بن النبيـــه : ٣٤ .

الكمال ماجد الشافعي : ٥٨ ، ٧٤ ، ٨٨ .

الكندى (تاج الدين ابو اليمن) : ٣٣ .

الكنـــد سطبل : ٨٣ .

لاجين (السلطان) : ١٠ ، ١٠٢ ، ١٢٩ ، ٢٢٥ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ .

ليفـــون (ملك الارمن) : ١٢٣ .

المتنبـــي : ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ .

المجد النشابي : ٣٩ ، ٤٠ ، ٢١٤ ، ٢٤٢ .

محمد (النبي صلى الله عليه وسلم) : ٦٦ ، ٦٨ ، ٧١ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ١١٠ ، ١١٥ .

محمد راغب الطباخ : ٤٩ .

محمد زغلول سلام : ٢ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢٢٢ ، ٢٤٦ .

محمد الساعدى : ١٧ .

محمد علي سلطاني : ٢٢٢ ، ٢٣٧ ، ٢٤٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

محمد المنبجي البزاز (بدر الدين) : ٥٧ ، ٦٢ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٧٤ ، ١٠١ ، ١١٣ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١٢٦ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ٢٠٥ ، ٢١٩ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٣٠ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٩ ، ٢٤٢ ، ٢٥٢ .

محمد موسى هنداوى : ٣٧ .

محمود ابراهيـــــم : ٢٢٢ .

محمود بن علي الشيباني (شيخ الشيوخ نظام الدين) : ٦٠ ، ٢٤٣ .

محي الدين بن الجوزى : ٢٦ .

محي الدين بن عبد الظاهر (القاضي) : ٦٦ ، ٦٧ ، ٧٠ ، ٨٧ ، ١٢٠ ، ١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٣١ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ٢٠٦ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٣٥ .

محي الدين بن عربي : ٣٥ .

المستعصم بالله (الخليفة) : ١٤ ، ١٦ ، ١٨ ، ٣٨ ، ٤٩ ، ٦٥ .

المستكفي بالله (الخليفة) : ١٠٧ .

المستنصر بالله (الخليفة) : ١٤ .

مسعود بيك الامير : ٨٣ .

المسيح الدجال : ٨٦ ، ١٩٥ .

مظفر الدين كوكبرى : ١٥ ، ٤١ .

مظفر الذهبي : ٢٠٩ .

ابن معطي : ٣٣ .

ابن مفلح : ١٦٣ .

المقتدر بالله (الخليفة) : ١٤٥ .

المقريزى : ٦ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ٥٢ ، ٥٦ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٧٨ ، ٨٢ ، ٨٥ ، ٨٧ ، ٨٩ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١٣٠ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٨٣ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ٢١٧ ، ٢٣٣ ، ٢٤٣ ، ٢٤٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الملك المعظم الايوبي : ١٥ ، ٢٧ ، ٣٠ .
المنذري (الحافظ) : ٣٢ .
المنصور الثاني (صاحب حماة) : ٤ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٦٣ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ١١٨ ، ١١٩ ،
١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٧ ، ١٣١ ، ١٧٦ ، ١٧٨ ، ١٨٨ ، ٢٠١ ، ٢٢٥ ، ٢٣٠ ،
٢٤٩ .
المنصور علي بن عز الدين ايبك : ٩ .
منكوتمر بن هولاكو : ٩٦ ، ٩٧ ، ١٢٤ ، ١٨٩ .
ابن منير الطرابلسي : ٢٢٩ .
مهنا بن عيسى (آل فضل) : ١٢ .
موسى (النبي عليه السلام) : ٩٥ ، ٢٣٤ .
موفق الدين عبد الله بن عمر الانصاري : ٣٣ ، ٥٤ ، ١٧٣ .
نابليون : ٢١٨ .
الناصر (الخليفة) : ١٤ .
الناصر صلاح الدين يوسف بن محمد (صاحب الشام) : ٩ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٣ .
ناصر الدين بن الصقلاني : ٥٢ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٦٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١١٩ ، ١٢٢ ، ١٧٤ ،
١٨٦ ، ١٨٩ ، ١٩٢ ، ٢٠٥ ، ٢٠٧ ، ٢٠٩ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٢٦ ، ٢٣٣ ،
٢٤٩ ، ٢٥٠ .
الناصر محمد بن قلاوون (السلطان) : ٥ ، ١٠ ، ١١ ، ٥٨ ، ٧٢ ، ٨١ ، ١٠٢ ، ١٠٦ ،
١١١ ، ١١٤ ، ١٢٥ .
ناصر الدين محمد بن الحلي (الأمير) : ٤٠ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ٦٨ ، ٨٧ ، ١٧٥ .
الناصر بن المعظم : ٦٥ ، ٢٤٠ .
ناصر الدين بن النقيب : ٥٣ ، ٢٣٤ .
ابن النجار : ٣٥ .
نجم الدين علي بن داود القمفازي : ١٩٣ .
النسوي : ٧ ، ٢٠ ، ٢١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نصير الدين الطوسي : ٤١ .
النميمي : ٣١ ، ٣٦ .
ابو نواس : ٢٢٧ .
نور الدين محمود : ٢٠٨ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ .
هارون الرشيد : ٢٢٧ .
هولاكو (هلاكون ، هلاون) : ١ ، ٢ ، ٩ ، ١١ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٧ ، ٥٨ ، ٦٤ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٩ ، ٩٩ ، ١٠٥ ، ١٢٤ ، ١٣٧ ، ١٨٧ ، ١٩٠ ، ١٩٢ ، ٢٠٤ ، ٢٣٣ .
هيثوم (هيتوم) ملك الارمن : ٦٥ .
ابن واصل : ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ٢٣ ، ٣١ .
ابن الوردى : ٢٧ ، ١١٨ ، ١٥٣ ، ١٥٤ .
الوليد بن عبد الملك : ١٦٩ .
ياقوت : ٧ ، ٨ ، ١٣ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢٥ ، ٢٨ ، ٧١ ، ٨٨ .
ابن أبي اليسر (التنوخي) : ٤٦ ، ٦٦ ، ٨٥ ، ١٣٤ ، ١٣٨ ، ١٤٥ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢١٤ ، ٢٤٦ .
ابو يزيد (سلطان بني عثمان) : ١٢ .
ابن يعيش : ٣٣ .
يوحنّا دى بلان كاربين (الراهب) : ٨٤ .
يوسف المهمندار : ٩٤ ، ١٧٨ ، ٢١٨ .
يوسف (النبي عليه السلام) : ٢٢٣ ، ٢٣٤ .
يونس (النبي عليه السلام) : ٢٣٢ ، ٢٣٤ .
اليونيني : ٥ ، ٩ ، ١٧ ، ٢٣ ، ٤٦ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٦٥ ، ٦٨ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٩ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ١١٧ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ٢٠٩ ، ٢١٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٤١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهرس البلدان والأماكن والمواقع الجغرافيـــــــــة

الأبلستين (البلستين) : ٥٥ ، ٦٨ ، ٨٧ ، ٩٩ ، ١٠١ .
أبسس : ٥٥ .
أترار (أوترار) : ٢٠ .
أذربيجان : ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ٤١ ، ٨٣ .
أربل : ٧ ، ١٥ ، ٣٩ ، ٤١ .
أردبيل : ٨ ، ١٢٦ .
أرّجـــان : ٢٠ .
أرمينية : ٢١ ، ٥٨ ، ١٦ .
آزاذوار : ٢٠ .
أصبهـــان : ١٣ .
الألموت : ٨٣ .
آمد : ٨ ، ٩ .
أنطاكية : ٨٤ .
إيران : ٢٠ .
بانياس : ٢٣ .
باب الأزّج : ٢٨ .
البحرين : ٤٢ .
بخارى : ٣٧ ، ١٣٤ .
برذعة : ٨ .
البصرة : ١٣ .
بغداد : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٧ ، ٩ ، ١١ ، ١٢ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ،
٢١ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٥ ، ٣٧ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٦٥ ،
٦٦ ، ٧٦ ، ٨١ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٣٠ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ،
١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥١ ، ١٧٢ ، ١٧٤ ،

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١٧٥ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢١١ ، ٢١٤ ، ٢١٦ ، ٢١٩ ،
٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٧ ، ٢٣٢ ، ٢٣٥ ، ٢٣٧ ، ٢٤٠ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ،
٢٥٢ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ .

بلاد الجبل (عراق العجم) : ٨ ، ٩ ، ١٣ ، ٢٠ .

بلاد الجزيرة الفراتية ، بلدان الجزيرة : ٧ ، ٨ ، ١٢ ، ٢٨ ، ٦٣ .

بلاد السرير : ٥٨ .

بيت المقدس : ٦٥ ، ٧١ ، ٧٦ ، ٢١٥ .

البيرة : ٥٢ ، ٩٣ ، ٩٦ ، ١٢٤ .

بيسان : ٩ .

تبريز : ٨ ، ٤١ .

تركستان : ٧ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٩ ، ٨٣ .

تفليس : ٥٨ .

توران : ١٩ .

توريز : ١٩٠ .

جبال الروم : ٩٦ .

جبال اللور : ١٣ ، ٨٣ .

جبال القبق : ٥٨ .

جبل الصالحية (الصالحية) : ٧١ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ .

جبال الروم : ٩٦ .

جلّق : ١١١ .

جيلان : ١٩ .

الحبشة : ١٧٦ .

الحجاز : ١٢ ، ١٥٢ ، ١٧٦ .

حديثة الموصل : ٢٨ .

حرّان : ٧ ، ٩ ، ٢٢ ، ٦١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حصن كيفا : ٨ .

حلب : ٤ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٦٣ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٢٦ ، ١٥٢ ،
١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦٢ ، ١٧٠ ، ١٩٨ ،
٢٠٢ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٥ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ،
٢٥٢ .

حماة : ٥٠ ، ٥١ ، ٦٨ ، ٩٧ ، ١٠٦ ، ١٧٠ ، ١٧٥ ، ١٨٨ ، ٢٠٢ ، ٢٣٠ ،
٢٥٢ .

حمص : ١٠ ، ٥٢ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٦٧ ، ٧٠ ، ٨٨ ، ٩٣ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ،
١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٢٠ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٨١ ،
١٨٩ ، ١٩٠ ، ٢٠٩ ، ٢١٩ ، ٢٢٣ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٣٣ ،
٢٥٠ ، ٢٥٢ .

خراسان : ٩ ، ١٠ ، ١٢ ، ٢٠ ، ٢٥ ، ٨٣ .

خلاط : ٢١ ، ٢٢ .

خوزستان : ٩ ، ١٣ ، ٢١ .

خوارزم : ١٩ .

داريّا : ٧١ .

دقوقا : ١٥ ، ٤١ .

دمشق : ٤ ، ٩ ، ١١ ، ١٢ ، ١٨ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ،
٣٦ ، ٤٦ ، ٥١ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٤ ، ٧٠ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٦ ،
٧٧ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٩ ، ٩١ ، ١٠٣ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٥٩ ، ١٦١ ،
١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ ،
١٧٣ ، ١٩٣ ، ٢٠٢ ، ٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢٠٨ ، ٢١٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣٣ ،
٢٥٢ .

دمياط : ١٥ ، ٢٣ .

ديار بكر : ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ديا مضر : ٧.
رأس عين : ٧.
الرحبة : ١١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٧٤ ، ٨٨ ، ٩٣ ، ١٠٦ ، ١٧٧ ،
الرقة : ٧ ، ١١.
رمل عالج : ٤٢.
زرنج : ١٩.
زنجان : ٨.
سجستان : ١٩.
سلماس : ٨.
سلمية : ١٠.
سمرقند : ١٢.
السند : ١٠.
السواد : ٢٨.
سيراف : ٢٠.
السّيرجان : ٢٠.
سيس : ٥٨ ، ٧٤ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ١٢٣.
الشام (بلاد الشام) : ٢ ، ٨ ، ٩ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ٢٢ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٥ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٦ ، ٧٠ ، ٧٩ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٩٦ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١١٤ ، ١١٧ ، ١١٩ ، ١٢٦ ، ١٣٠ ، ١٣٤ ، ١٥٢ ، ١٥٥ ، ١٦٠ ، ١٧٦ ، ١٩٥ ، ١٩٩ ، ٢٠٣ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٢٦ ، ٢٣٠ ، ٢٣٣ ، ٢٤٧ ، ٢٥٥.
شروان : ٨٣.
الشوبك : ٢٠٢.
الشقيف : ٢٩.
شهرزور : ٨٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

صفـــد : ٥٦.
صور : ١٢٤ ، ١٢٦ ، ٢٢٠.
الصين : ٧ ، ١٢ ، ٢٢٠.
الطائف : ٧٢.
طبرستان : ٢٠.
طخارستان : ٢٠.
طرابلس : ٦١ ، ١٠٦.
عبّادان : ٢٨ ، ١٤٧ ، ١٩٨.
العذيب : ٢٨.
العراق : ١ ، ٣ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٧ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٥٦ ، ٨٣ ، ٨٥ ، ١١٧ ، ١٣٤ ، ٢٢٦ ، ٢٤٠ ، ٢٥٥.
العقيبة : ٧١.
عكا : ٨٥ ، ١٢٤ ، ١٢٦ ، ٢٢٠ ، ٢٣٠.
عين جالوت : ١ ، ٩ ، ١٠ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٦٦ ، ٦٨ ، ٧٧ ، ٩٩ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١٢٠.
العيون : ٤٢.
غزنـــة : ١٩.
غزة : ٩ ، ١٠ ، ٨٥.
غمدان : ١٩٠.
غوطة دمشق : ٧١.
فاراب : ٧.
فارس : ١ ، ٢ ، ٩ ، ١٠ ، ١٣ ، ١٩ ، ٢٠.
الفيّوم : ٧٧.
القادسية : ٢٨.
القاهرة : ١٠ ، ٢٢ ، ٥٤ ، ٥٧ ، ١٨٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

القفجاق (القجاق) : ٢ ، ١٠ .
قلعة الروم : ١٢٤ ، ١٦٥ .
قم : ١٣ .
قهسارية : ٨٧ .
قهستان : ٨٣ .
كرمان : ٧ ، ١٩ ، ٢٠ .
كرجستان : ٨٣ .
الكرك : ٢٠٣ .
اللور : ٨٣ .
المأمونية : ٢٨ .
مازندران : ١٩ .
مراغة : ٨ ، ٤١ .
مرج الصفر : ١١ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٩ ، ٨١ ، ٨٩ ، ٩٢ ، ١٠٥ ، ١٠٩ ، ١١٢ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١٣٠ ، ١٦١ ، ١٧٣ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٤ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٤ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٩ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٨ ، ٢٥٢ .
مرو : ٢٠ .
مصر : ٧ ، ٨ ، ١٣ ، ١٦ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٥٢ ، ٥٤ ، ٥٧ ، ٧٨ ، ١٠٠ ، ١٠٥ ، ١١٧ ، ١١٩ ، ١٤٢ ، ١٥٢ ، ١٦٦ ، ٢٠٧ ، ٢٢٦ ، ٢٣٣ ، ٢٤٥ .
مكران : ١٩ ، ٢٠ .
مكة : ١٢ .
منهج : ٩٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الموصل : ٧ ، ٩ ، ١٥ ، ٢٥ ، ٢٨ ، ٤٢ ، ٨٤ ، ٢٣٠ .
موغان (موقان) : ١٢٦ ، ٢٢٠ .
ميا فارقين : ٨ .
نابلس : ٩ .
نصيبين : ٧ ، ٨ .
نيسابور : ٢٠ ، ٢٥ .
همراة : ٢٠ ، ٣٢ .
همذان : ١٠ ، ١٣ ، ٢١ .
الهند : ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ .
وادي الخزندار : ١٠ ، ١٠٥ .
واسط : ١٣ .
يشرب : ٤٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهرس الشعوب والأمم والقبائل والطوائف والفرق

الاتحادية : ٧١.

الأرمن : ٥٨ ، ٦٥ ، ٧٤ ، ٨٣ ، ٨٥ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٧ ، ١٢٣ ، ١٦٠ ، ١٦٢ ، ١٧٧ ، ١٩٠ ، ٢٣٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦.

الاسماعيلية : ١٣.

أعجام (عجم) : ٧٤ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ١٢٦ ، ١٧٧.

آل فضل : ١٢.

بنو خاقان : ٦٨ ، ١١٤.

التتر (التتار) : ٨ ، ١٠ ، ١٥ ، ١٦ ، ٢٢ ، ٣٤ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٥ ، ٥٨ ، ٦٢ ، ٦٥ ، ٧٤ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ١٢٠ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣٥ ، ١٥٢ ، ١٦٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٢ ، ١٩٨ ، ٢٠٢ ، ٢٠٦ ، ٢١١ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٤٠ ، ٢٤١.

الترك (الأتراك) : ٧ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٧ ، ٦٥ ، ٧٤ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ١٢٠ ، ١٧٧ ، ١٩٨.

الجهمية : ٧١.

الخطا ، الخطائيون (القراخطائيون) : ٢٠ ، ٢١.

الخوارج : ٧٢.

الرافضة : ٧١.

السريان : ٨٣ ، ٨٥.

السنّة : ١٧ ، ٢٧.

الشيعة : ١٧ ، ٢٧ ، ٧١.

الصليبيون : ٢٢ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٢١٥ ، ٢٢٢ ، ٢٣٠ ، ٢٣٤ ، ٢٤٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

طـــي : ١٢ ، ٤٢.

عـــرب : ٧٤ ، ٨٨ ، ١٢٦ ، ١٧٧.

فرنـــج : ١٠ ، ١٥ ، ٢٤ ، ٣٠ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٨٨ ، ٩٧ ، ١٢٣ ، ٢٣١.

فـــرس : ٣٧ ، ١٥٣ ، ٢٤١.

كـــرج : ٥٥ ، ٥٨ ، ٧٤ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٩٧ ، ١٧٧.

مغول : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٧ ، ٨ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٤ ، ٢٩ ، ٣٧ ، ٤١ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١١ ، ١١٩ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٧٧ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٤ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٣١ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٢٤٠ ، ٢٤١.

نساطرة : ٨٥.

يأجوج ومأجوج : ٢٢ ، ٢٣٥.

يعاقبة : ٨٣ ، ٨٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المصـــادر والمـــــــراجع

(أ) المصـــادر المخطوطـــة

١- ابن حبيب : بدر الدين الحسن بن عمر بن حبيب الحلبي (٧٧٩ هـ) ،
درة الأسلاك في دولة الاتراك . جـ١ . ميكروفيلم في مركز الوثائق بالجامعة الاردنية . شريط رقم ٥٣٩ .

٢- الدواداري : ركن الدين بيبرس (٧٢٥هـ) ،
زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ، ميكروفيلم في مركز الوثائق بالجامعة الاردنية ، شريط رقم ٢٠ .

٣- الذهبي : أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (٧٤٨هـ) ،
تاريخ الاسلام ، ميكروفيلم في مركز الوثائق بالجامعة الاردنية . شريط رقم ٥٣٧ .

٤- الصفدي : صلاح الدين خليل بن إيبك (٧٦٤هـ) ،
الوافي بالوفيات ، جـ ٢٦ ، ميكروفيلم في مركز الوثائق بالجامعة الاردنية ، شريط رقم ٥٤٧ .

٥- نفســـه :
الوافي بالوفيات ، جـ٢٤ ، ٢٥ ، نسخة مصورة في المجمع العلمي العربي بدمشق .

٦- العينـــي : محمود بن أحمد ، (٨٥٥هـ) ،
عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، مخطوط رقم ١٥٨٤ ، تاريخ دار الكتب المصرية . القاهرة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(ب) المصادر والمراجع المطبوعة

٧ـ القرآن الكريم .

٨ـ ابن الأثير : عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم (٦٣٠هـ) .
الكامل في التاريخ ، دار صادر ودار بيروت . بيروت ١٩٦٥ـ ١٩٦٦م .

٩ـ أحمد أحمد بدوي :
الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام . دار نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٧٢ م .

١٠ـ استارجيان : ك ل ،
تاريخ الأمة الأرمنية . مطبعة الاتحاد الجديدة ، الموصل ، ١٩٥١م .

١١ـ الاصفهاني : أبو الفرج علي بن الحسين (٣٥٦ هـ) .
الأغاني ، جـ ٢٠ ، تحقيق عبد الستار أحمد فرّاج ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٠ م .

١٢ـ ابن أبي أصيبعة : موفق الدين أبو العباس ، أحمد بن القاسم (٦٦٨هـ) .
عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، شرح وتحقيق د . نزار رضا ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٦٥ .

١٣ـ أمين فهد المعلوف :
المعجم الفلكي ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٣٥ م .

١٤ـ ابن إياس : محمد بن أحمد بن إياس (٩٣٠هـ) .
كتاب تاريخ مصر لابن إياس ، المشهور ببدائع الزهور في وقائع الدهور . الطبعة الأولى ، بولاق ، مصر ١٣١١ هـ .

١٥ـ بارتلد :
مادة تتر ، دائرة المعارف الإسلامية ، جـ ٤ ، ترجمة أحمد الشنتناوي ورفاقه . ب.ت .

١٦ـ البدري : أبو البقاء عبد الله بن محمد (٨٩٤هـ) ،
نزهة الأنام في محاسن الشام . المطبعة السلفية القاهرة ١٣٤١ هـ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١٧ـ براون : ادوارد جرانفيـــل ،
تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي ، ترجمة ابراهيـم أمين الشواربي ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٩٤٥ م.
١٨ـ البغدادي : صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق ، (٧٣٩هـ).
مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ، تحقيق علي محمد البجاوي ، ٣جـ ، الطبعة الأولى ، دار إحياء الكتب العربية ١٩٥٤ـ١٩٥٥م.
١٩ـ البكـري : أبو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز (٤٨٧هـ).
معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع . تحقيق مصطفى السقا ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٤٥م.
٢٠ـ البلاذري : أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر (٢٧٩هـ).
فتوح البلدان ، مراجعة وتعليق رضوان محمد رضوان ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ١٩٥٩م.
٢١ـ ابن تغري بردي : جمال الدين أبو المحاسن يوسف (٨٧٤هـ).
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، مصورة عن طبعة دار الكتب ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي . ب.ب.
٢٢ـ ابو تمام . حبيب بن أوس الطائي (٢٣١هـ).
ديوان أبي تمام ، جـ١ ، تحقيق محمد عبده عزام ، دار المعـــارف ، القاهرة ، ١٩٦٤ م.
٢٣ـ التهانوي : الشيخ المولوي محمد أعلى بن علي (١١٥٨هـ).
موسوعة اصطلاحات العلوم الإسلامية ، المعروف بكشّاف اصطلاحـــات الفنون . شركة خياط للكتب والنشر . بيروت ١٩٦٦ .
٢٤ـ ابن تيمية : شيخ الاسـلام تقي الدين ، أحمد بن عبد الحليـــم ، (٧٢٨هـ).
مجموعة فتاوى ابن تيميّة ، م٤ ، مطبعة كردستان العلمية ، القاهـــرة ، ١٣٢٩هـ.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٢٥- الجبرتي : عبد الرحمن بن حسن (١٢٣٧ هـ).
المختار من تاريخ الجبرتي ، جـ١ ، اختيار محمد قنديل البقلي ، مطابع الشعب ، القاهرة ، ١٩٥٨.
٢٦- جوانفيل : جان سيردى ،
مذكرات جوانفيل ، القديس لويس : حياته وحملاته على مصر والشام ، ترجمة وتعليق حسن حبشي . دار المعارف . القاهرة ، ١٩٦٨.
٢٧- جودت الركابي : الدكتور جودت الركابي ،
الأدب العربي من الإنحدار الى الإزدهار ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٧٤.
٢٨- حامد عبد القادر ،
قصة الأدب الفارسي ، مكتبة مصر ، القاهرة ، ب.ت.
٢٩- ابن حجر العسقلاني : شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي (٨٥٢ هـ).
ديوان ابن حجر العسقلاني . تحقيق الدكتور السيد أبو الفضل ، نشر شرف الدين الكتبي وأولاده ، بمباي ، الهند ، ١٣٨١هـ / ١٩٦٢م.
٣٠- نفسه :
الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، ٥ جـ ، حققه محمد سيد جاد الحق ، دار الكتب الجديدة ، القاهرة ، ١٩٦٦م.
٣١- ابن أبي الحديد : عز الدين أبو حامد عبد الحميد بن هبة الله ، (٦٥٥هـ) ،
شرح نهج البلاغة ، جـ ٨ ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم . دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٦٠م.
٣٢- حسين علي محفوظ : الدكتور حسين علي محفوظ ،
المتنبي وسعدى : أثر الثقافة العربية في سعدى الشيرازى .
مطبعة الحيدرى ، طهران ، ١٣٧٧/١٩٥٧ هـ.
٣٣- الحنبلي : مجير الدين عبد الرحمن بن محمد (٩٢٨هـ) ،
الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، مكتبة المحتسب ، عمان ، ١٩٧٣م.
٣٤- ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد الحضرمي ، (٨٠٨ هـ) ،
تاريخ العلامة ابن خلدون ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٦٨م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٣٥ـ ابن خلكان : شمس الدين أحمد بن محمد (٦٨١هـ)
وفيات الأعيان ، وأنباء أبناء الزمان • تحقيق د • إحسان عباس •
دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٧١ م •

٣٦ـ الدواداري : ابو بكر عبد الله بن ايبك ،
كنز الدرر وجامع الغرر ، الجزء التاسع وهو الدر الفاخر في سيرة
الملك الناصر ، تحقيق هانس روبرت روبمر • إصدار قسم الدراسات
الإسلامية بالمعهد الألماني للآثار بالقاهرة • ١٣٧٩هـ/١٩٦٠م •

٣٧ـ الذهبي ،
العبر في خبر من غبر ، جـ٥ ، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ،
وزارة الارشاد والأنباء ، الكويت ، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م •

٣٨ـ نفسه ،
دول الإسلام الطبعة الثانية ، جمعية دائرة المعارف العثمانية ،
حيدر أباد ، الهند ، ١٣٦٤ هـ •

٣٩ـ نفسه • والحسيني : شمس الدين أبو المحاسن محمد بن علي (٧٦٥هـ)،
من ذيول العبر ، تحقيق محمد رشاد عبد المطلب • وزارة الارشاد
والانباء • الكويت • ب•ت•

٤٠ـ رايس : تامارا تالبوت ،
السلاجقة تاريخهم وحضارتهم ، ترجمة لطفي الخوري وابراهيم
الداقوقي • مطبعة الارشاد ، بغداد ، ١٩٦٨ م

٤١ـ رنسيمان : ستيفن ،
تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العريني ، دار الثقافة ،
بيروت ، ١٩٦٧ـ ١٩٦٨م •

٤٢ـ الزبيدي : السيد محمد مرتضى (١٢٠٥هـ)،
تاج العروس ، جـ٦ ، ٧ ، دار ليبيا ، بنغازي ، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م •

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٤٣ـ الزركلي : خير الدين ،
الأعلام ، الطبعة الثالثة ، بيروت ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م.
٤٤ـ سبط ابن الجوزي : ابو المظفر يوسف بن قزأغلي (٦٥٤هـ)،
مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ، جـ٨ ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، حيدر أباد ، الهند ، ١٩٥١ ـ ١٩٥٢م.
٤٥ـ السبكي : تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن تقي الدين (٧٧١هـ)،
طبقات الشافعية الكبرى ، الطبعة الأولى ، المطبعة الحسينية، القاهرة، ١٣٢٤هـ.
٤٦ـ سعيد عبد الفتاح عاشور : الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ،
الظاهر بيبرس ، المؤسسة المصرية العامة ، القاهرة ١٩٦٣م.
٤٧ـ نفسه ،
الحركة الصليبية ، الطبعة الأولى ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٦٧م.
٤٨ـ السهروردي : شهاب الدين أبو حفص عمر بن محمد التيمي (٦٣٢هـ)،
عوارف المعارف ، على هامش إحياء علوم الدين للإمام الغزالي ، دار إحياء الكتب العربية ب.ت.
٤٩ـ السيوطي : جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (٩١١هـ)،
تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، الطبعة الثانية ، المكتبة التجارية الكبرى، ١٣٧٨هـ/١٩٠٩م.
٥٠ـ ابو شامة المقدسي : شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن اسماعيل (٦٦٥هـ)،
الروضتين في أخبار الدولتين . دار الجيل ، بيروت ب.ت.
٥١ـ نفسه ،
تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين، الطبعة الثانية ، دار الجيل ، بيروت ١٩٧٤م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٥٢- ابن الشحنة : محب الدين أبو الوليد محمد (٨١٥) ،
روضة المناظر في أخبار الأوائل والأواخر ، على هامش الجزء التاسع من تاريخ ابن الأثير ، مطبعة بولاق ، القاهرة ، ١٢٩٠ هـ .

٥٣- ابن شداد : عز الدين أبو عبيد الله محمد بن علي (٦٨٤هـ) ،
الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، تاريخ مدينة دمشق ، تحقيق د . سامي الدهان ، المعهد الفرنسي للدراسات العربية ، دمشق ، ١٣٧٥هـ/١٩٥٦م .

٥٤- نفسه :
الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة . جـ١ ، ق١ ، تحقيق دومينيك سورديل ، المعهد الفرنسي للدراسات العربية ، دمشق ، ١٩٥٣م .

٥٥- شرف الدين الأنصاري : شيخ الشيوخ عبد العزيز بن محمد (٦٦٢هـ) ،
ديوان الصاحب شرف الدين الأنصاري ، تحقيق د . عمر موسا باشا ، المطبعة الهاشمية ، دمشق ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م .

٥٦- شوقي ضيف : الدكتور شوقي ضيف ،
الفن ومذاهبه في الشعر العربي . الطبعة الخامسة . دار المعارف بمصر ، ١٩٦٥م .

٥٧- نفسه :
الشعر وطوابعه الشعبية على مرّ العصور ، دار المعارف ، ١٩٧٧م .

٥٨- الشوكاني : محمد بن علي (١٢٥٥هـ) .
البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، القاهرة ، ١٣٤٨هـ/١٩٢٦م .

٥٩- ابن صصرى : محمد بن محمد ،
كتاب الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية ، تحقيق وترجمة ونشر د . وليم . م . برينر . مطبعة جامعة كاليفورنيا ، بركلي ١٩٦٣م .

٦٠- الصفدي :
الغيث المسجم في شرح لامية العجم . دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٧٥م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٦١- نفسه :
نكت الهميان في نكت العميان ، تحقيق أحمد زكي باشا ، مؤسسة الخانجي ، القاهرة ، ١٩١١.

٦٢- نفسه :
أمراء دمشق في الاسلام ، تحقيق د . صلاح الدين المنجد ، المجمع العلمي العربي بدمشق ، ١٩٥٥ م.

٦٣- نفسه :
الوافي بالوفيات ، جـ٣ ، طبع باعتناء س . ديدرينغ ، المطبعة الهاشمية ، دمشق ، ١٩٥٣ م.

٦٤- الوافي بالوفيات ، جـ٤ ، طبع باعتناء س . ديدرينغ ، المطبعة الهاشمية ، دمشق ، ١٩٥٩ م.

٦٥- الصقاعي : فضل الله بن أبي الفخر (٧٢٦ هـ) ،
تالي وفيات الأعيان ، تحقيق جاكلين سوبله ، منشورات المعهد الفرنسي للدراسات العربية ، دمشق ، ١٩٧٤ م.

٦٦- ابن الصيرفي : نور الدين علي بن داود الجوهري (٩٠٠ هـ) ،
نزهة النفوس والأبدان ، في تواريخ الزمان . تحقيق د . حسن حبش ، وزارة الثقافة ، مركز التحقيق ، القاهرة ، ١٩٧٠ م.

٦٧- الطباخ : الشيخ محمد راغب (١٣٧٠هـ) ،
إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ، ٧جـ ، الطبعة الأولى ، المطبعة العلمية ، حلب ١٩٢٣-١٩٢٦م.

٦٨- ابن الطقطقي : محمد بن علي ، (٧٠٩ هـ) ،
الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، دار صادر ، بيروت ، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م.

٦٩- عباس العزّاوي :
تاريخ الأدب العربي في العراق ، جـ١ ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، ١٣٨١هـ/١٩٦١م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٧٠- عبد العزيز الأهواني : الدكتور عبد العزيز الأهواني ،
ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار في الشعر . مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٢م.

٧١- عبد القادر اليوسف : الدكتور عبد القادر اليوسف .
علاقات بين الشرق والغرب بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ، ١٩٦٩ م.

٧٢- عبد النعيم حسنين : الدكتور عبد النعيم حسنين ،
دولة السلاجقة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٧٥ م.

٧٣- عبده عبد العزيز قلقيلة : الدكتور عبده عبد العزيز قلقيلة .
النقد الأدبي في العصر المملوكي . الطبعة الأولى ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٢ م.

٧٤- ابن العبري : ابو الفرج غريغوريوس الملطي (٦٨٥ هـ) ،
تاريخ مختصر الدول ، الطبعة الثانية ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩٥٨م.

٧٥- ابن عربشاه : أحمد بن محمد بن عبد الله (٨٥٤هـ) ،
كتاب عجائب المقدور في أخبار تيمور ، المطبعة العثمانية ، مصر ، ١٣٠٥ هـ .

٧٦- علي الجندي : الدكتور علي الجندي ،
شعر الحرب في العصر الجاهلي ، الطبعة الثالثة ، مكتبة الجامعة العربية ، بيروت ، ١٩٦١ م.

٧٧- ابن العماد الحنبلي : ابو الفلاح عبد الحي (١٠٨٩هـ) ،
شذرات الذهب في أخبار من ذهب . مكتبة القدسي ، القاهرة ، ١٣٥١هـ

٧٨- عمر موسى باشا : الدكتور عمر موسى باشا ،
الأدب في بلاد الشام ، عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك . ط٢ .
المكتبة العباسية ، دمشق ، ١٣٩١هـ/١٩٧٢م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٧٩- الغزولي : علاء الدين علي بن عبد الله البهائي (٨١٥هـ) ،
مطالع البدور في منازل السرور . مطبعة إدارة الوطن . ١٣٠٠هـ.
٨٠- الغزّي : كامل بن حسين بن محمد (١٣٥١هـ) ،
نهر الذهب في تاريخ حلب . جـ٣ ، المطبعة المارونية ، حلب، ١٣٤٥هـ/
١٩٢٦م.
٨١- فؤاد عبد المعطي الصياد : الدكتور فؤاد عبد المعطي الصياد .
المغول في التاريخ من جنكيز خان إلى هولاكو خان . دار القلم .
ب.ت.
٨٢- نفسه :
مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين فضل الله الهمذاني . الطبعة الاولى .
دار الكتاب العربي ، القاهرة ، ١٣٨٦هـ/١٩٦٧م.
٨٣- أبو الفداء : عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر (٧٣٢هـ) ،
تقويم البلدان ، دار الطباعة السلطانية ، باريس ، ١٨٤٠م.
٨٤- نفسه :
المختصر في أخبار البشر ، الطبعة الاولى ، المطبعة الحسينية .ب.ت.
٨٥- ابن الفرات : ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم (٨٠٧هـ) ،
م٧ ، تحقيق د. قسطنطين زريق ، المطبعة الاميركانية ، بيروت،
١٩٤٢م.
٨٦- ابن فضل الله العمري : أحمد بن يحيى (٧٤٩هـ) ،
مسالك الأبصار في ممالك الأبصار . تحقيق أحمد زكي باشا . مطبعة
دار الكتب المصرية . القاهرة ، ١٣٤٢هـ/١٩٢٤م.
٨٧- ابن الفوطي : كمال الدين عبد الرزاق البغدادي (٧٢٣هـ) ،
الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة . المكتبة العربية ،
بغداد ، ١٣٥١هـ.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٨٨- نفســه :
تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب ، جـ٤ ، تحقيق مصطفى جـــواد ، وزارة الثقافة والارشاد القومي . ب.ت.
٨٩- الفيروز أبادى : أبو طاهر محمد بن يعقوب (٨١٧هـ) ،
القاموس المحيط ، المكتبة الحسينية ، المطبعة التجارية الكبرى بمصـــر . ب.ت.
٩٠- القلقشندى : أبو العباس أحمد (٨٢١هـ) ،
صبح الاعشى ، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية ، وزارة الثقافة والارشاد القومي ، القاهرة . ب.ت.
٩١- ابن الكازروني : ظهير الدين علي بن محمد (٦٩٧هـ) ،
مختصر التاريخ من أول الزمان الى منتهى دولة بني العباس ، تحقيـــق وتعليق مصطفى جواد ، مديرية الثقافة العامة ، بغداد ، ١٩٧٠م.
٩٢- الكتبي : محمد بن شاكر (٧٦٤هـ) ،
فوات الوفيات والذيل عليها ، ٤جـ ، تحقيق الدكتور إحسان عبـــاس ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٣-١٩٧٤م.
٩٣- ابن كثير : أبو الفداء اسماعيل بن عمر (٧٧٤هـ) ،
البداية والنهاية في التاريخ ، مطبعة السعادة . مصر ، ب.ت.
٩٤- لويس المعلوف : الأب لويس المعلوف اليسوعي .
المنجد في اللغة والأدب والعلوم ، الطبعة الجديدة ، المطبعـــة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩٦٠م.
٩٥- المتنبي : أبو الطيب أحمد بن الحسين (٣٥٤هـ) ،
ديوان المتنبي ، دار بيروت ودار صادر ، بيروت ١٣٧٧هـ/١٩٥٨م.
٩٦- مجمع اللغة العربية ،
المعجم الوسيط ، الطبعة الثانية ، دار المعارف بمصر ، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م.
٩٧- المحب الطبرى : أبو جعفر أحمد بن عبد الله (٦٩٤هـ) ،
الرياض النضرة في مناقب العشرة ، الطبعة الأولى ، المطبعة الحســينية ، ١٣٢٧هـ.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٩٨- محمد زغلول سلام : الدكتور محمد زغلول سلام ،
الأدب العربي في العصر المملوكي ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧١م.
٩٩- محمد عبد السلام كفافي : الدكتور محمد عبد السلام كفافي ،
في أدب الفرس وحضارتهم ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٧٠م.
١٠٠- محمد كرد علي ،
خطط الشام ، جـ٦ ، مطبعة المفيد بدمشق ، ١٣٤٧هـ/١٩٢٨م.
١٠١- نفسه :
غوطة دمشق ، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ، الطبعة الثانية ،
مطبعة الترقي ، دمشق ، ١٣٧١هـ/١٩٥٢م.
١٠٢- محمد موسى هنداوي ،
سعدي الشيرازي شاعر الانسانية ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٥١م.
١٠٣- محمود ابراهيم : الدكتور محمود ابراهيم .
صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني ، المكتب الاسلامي ، دمشق ،
١٩٧١م.
١٠٤- محي الدين بن عبد الظاهر : عبد الله بن عبد الظاهر (٦٩٢هـ) ،
تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور ، تحقيق الدكتور مراد
كامل ، نشر الشركة العربية للطباعة والنشر ، الطبعة الاولى ، القاهرة ،
١٩٦١م.
١٠٥- نفسه :
الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ، تحقيق ونشر عبد العزيز الخويطر ،
الطبعة الأولى ، الرياض ، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.
١٠٦- مسلم : أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري (٢٦١هـ) ،
صحيح مسلم ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، ٤جـ ، ١٣٧٤-١٣٧٥هـ.
١٠٧- مصطفى طه بدر : الدكتور مصطفى طه بدر ،
محنة الإسلام الكبرى ، القاهرة ، مطبعة الثقافي الدولي ، ب.ت.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١٠٨- نفســـه :
غول إيران بين المسيحية والاسلام ، دار الفكر العربي . القاهـــــرة ، ب.ت.
١٠٩- المعري : أحمد بن عبد الله (٤٤٩هـ) ،
ديوان سقط الزنـــد ، شرح وتعليق نهاد رضا ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٦٥م.
١١٠- ابن المقـــرب : علي بن مقـــرب العيوني (٦٢٦هـ) ،
ديوان ابن المقرب ، تحقيق وشرح عبد الفتاح الحلو ، الطبعة الاولى ، مطبعة البابي الحلبي ، مصر ، ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م.
١١١- المقريزي : تقي الدين أحمد بن علي (٨٤٥هـ) ،
السلوك لمعرفة دول الملوك . جـ١-٢ ، تحقيق محمد مصطفى زيـــادة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥٦-١٩٧١م ، جـ٣ ، تحقيق الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ، مطبعة دار الكاتب ، القاهرة ، ١٩٧١م.
١١٢- نفســـه :
خطط المقريزي ، مصورة عن طبعـــة بولاق ، ١٢٧٠هـ ، تصـــــدره دار التحرير للطبع والنشر .
١١٣- ابن منظور : ابو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (٧١١هـ) ،
لسان العرب ، دار صادر ودار بيروت ، بيروت ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.
١١٤- النســـوي : محمد بن أحمد (٦٣٩هـ) ،
سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، تحقيق حافظ أحمد حمدي ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٥٣م.
١١٥- النعيمي : عبد القادر بن محمد (٩٢٧هـ) ،
الدارس في تاريخ المدارس ، نشر وتحقيق جعفر الحســـين ، مطبعة الترقي ، دمشق ، ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١١٦- ابن هشام : عبد الملك بن هشام (٢١٣هـ) ،
السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى السقا ورفيقاه ، الطبعة الثانيـــــة ،
١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م.
١١٧- الهمذاني : رشيد الدين فضل الله (٧١٦هـ) ،
جامع التواريخ ، م٢ ، ترجمة محمد صادق نشأت ورفاقه ، دار إحيـاء
الكتب العربية .
١١٨- ابن واصل : جمال الدين محمد بن سالم (٦٩٧هـ) ،
مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، جـ٤ ، تحقيق جمال الدين الشيال
ورفيقه ، دار الكتب والوثائق القومية ، ١٩٧٢م.
١١٩- ابن الوردي : سراج الدين أبو حفص عمر بن مظفر ، (٧٤٩هـ) ،
تتمة المختصر في أخبار البشر . تحقيق أحمد رفعت البدراوي ، دار
المعرفة ، ١٩٧٠م.
١٢٠- ياقوت : شهاب الدين ابو عبد الله ياقوت بن عبد الله ، الحموي الرومي ،
(٦٢٨هـ) ،
معجم البلدان ، دار صادر ودار بيروت ، ١٩٥٥/١٩٥٧م.
١٢١- نفســـه :
كتاب المشترك وضعا والمفترق صقعا ، طبعة وستنفلد ، جوتنجـــن ،
١٩٤٦ ، تصويـر مكتبة المثنى ، بغداد .
١٢٢- اليونيني : الشيخ قطب الدين أبو الفتح موسى (٧٢٦هـ) ،
ذيل مرآة الزمان ، ٤جـ ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانيـــة ،
حيدر أباد ، الهند ، ١٩٥٤-١٩٦١م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(جـ) الدوريـــــــــات :

١٢٣ ـ مجلة الآداب ، بيروت .

١٢٤ ـ مجلة كلية الآداب ، جامعة بغداد .

١٢٥ ـ مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة .

١٢٦ ـ Bulletin of The School of Oriental Studies-
University of London , Vol: VII. (B.S.O.S)

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهـــــــرس المحتـــــــوى

المقدمـــة : ١-٦

التمهيـــد : ٧-٣٦

- ساحة الصراع بين المسلمين والمغول
- الحالـــة السـياسـية
- الحالـــة الاجتماعيـــة
- الحالـــة الثقافيـــة

الفصل الأول : ٣٧-٦٤

مواكبة الشعر لأحداث الغزو المغولـــي
- من بدئه الى سقوط بغـــداد
- من سقوط بغداد الى نهايتـــه

الفصل الثاني : ٦٥-١٣٢

دور الشعر في مقاومة الغـــزو المغولـــي
١- تصوير طبيعة الصراع مع المغـــول
٢- الدعـوة الى الجهـــاد
٣- الدعوة الى ضرب أحلاف المغـــول
٤- تصـــوير الانتصـــارات
٥- مدح القـــادة المســـلمين

الفصل الثالث : ١٣٣-١٧٢

رثاء المدن خلال الغزو المغولـــي

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الرابع : ١٧٣-٢٠٧

- صورة المغول في الشعر العربي
- الأثر النفسي للغزو المغولي في الشعر

الفصل الخامس : ٢٠٨-٢٥٤

التقويم الفني لشعر الأصداء

خاتمة : ٢٥٥-٢٥٦

الفهارس : ٢٥٧-

- فهرس الآيات
- فهرس الأحاديث
- فهرس الأعلام
- فهرس الشعوب والأمم والقبائل والطوائف والفرق
- فهرس البلدان والأماكن والمواقع الجغرافية
- فهرس المصادر والمراجع
- فهرس المحتوى

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit